

الإسلام في السجادة

بقلم
موسى محمد علي

الشعب

(٥٥) شارع مصر العيني بالتاج
الهندون ١٠٨١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف
المرسلين سيدنا ومولانا محمد الفاتح لما اغلق ، والخاتم
لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، والهادي الى صراطك
المستقيم ، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم .

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من
لدنك رحمة انك انت الوهاب » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت

لكم الاسلام ديناً »

صدق الله العظيم

تمهيد

نحمدك اللهم ونستعينك ، ونعوذ بك من شرور أنفسنا ،
وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضل الله فلا تجد له
وليا مرشدا .

ونشهد أن لا اله الا انت ، رضيت الاسلام لنا ديناً ، ونشهد
أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله ، أهداه الله للناس رحمة ،
واختاره للاسلام داعياً ، واصطفاه للبشرية قائداً ومربياً ومرشداً
ومعلماً ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وتركها على
الحجة البيضاء التي لن يضل عنها الا هالك .

فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله واصحابه ، الذين آمنوا
ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

وبعد : فان الانسان أينما رمى ببصره في جوانب تلك الحياة ،
وجد شبح الحق واضحاً أمامه ، يسترشد به فلا يزيغ ولا يطفئ ،
ويسير على سننه ومنواله فلا يضل ولا يغوى .

لهذا فان كل دين من الأديان السماوية يعتمد - أول
ما يعتمد - على الوحي الإلهي ، أو على الإلهام الرباني ، فعنهما
صدر ، وعلى تعاليمهما أرسيت قواعده ، وتأسست أركانه ، وشيد
بناؤه .

ونبي الاسلام صلى الله عليه وسلم ، انسان من بنى البشر ،
اختاره الله تعالى لوحيه ، واجتباه سبحانه لنبوته ، واصطفاه
عز وجل لرسالته ، واختصه بخصوصية عموم التبليغ علواً لقدره ،
وشرفاً لأمتة :

« فاستمسك بالذي أوحى إليك ، انك على صراط مستقيم ،
وانه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسألون » (١)

هذا النبي العظيم : منحه الله سبحانه القدرة الكاملة على الاتصال به ، واكملة العصمة الوافرة توفيقا للتعبير عن ارادته ، وجعله بالعناية الالهية ، تحقيقا لعظيم دعوته ، وانزل عليه الذكر تبيانا : هدى وموعظة للمؤمنين ، ودستورا لامته .

هذا وبما لنبي الاسلام من امتياز وسمو ، وبراءة نفس ، وطهارة قلب ، وبكل ما له من شرف النبوة ، كان صلوات الله وسلامه عليه ، لا يرى رؤيا الا وجاءت كفلق الصبح .

فلا يرى صلى الله عليه وسلم ، الا بأمر ، ولا ينطق الا عن أمر ، ولا يتحرك الا بأمر . . . بل انه لا يرى خبرا الا وكان تنزيلا من حكيم حميد .

انه لا ينطق عن هوى ، ولا يتحدث عن رغبة حاكت في صدره ، ولا عن خاطر همت له نفسه ، ولا عن غرض وقر في قلبه ، يتفق وما عليه البشر من حب اللذة ، وجشع الهوى ، وايشار الشهوة .

انه المعصوم ولا شك : ومن حق عصمته ، ان كان صلوات الله وسلامه عليه ، عازفا عن الدنيا وما فيها من لذة ومتعة ، وبهجة وشهرة ، بل انه عزف عن كل ما يؤدي الى نقص في مرتبة الرسالة والنبوة .

انه المعصوم الذي لا يغوى ، بل انه الصادق الامين الذي لا يبتدع من أجل رسالته ولا يطفئ :

« ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى » (١) .

انه المعصوم الذي براه الله تعالى ، بكل ما تحمل هذه الآيات الكريمة ، بين طياتها من سمو التقدير ، وعظيم الاجلال . بل انه المعصوم الذي براه الله سبحانه حتى لم يكن لنفسه ولا لهواه عليه من سبيل .

لقد براه الله لإلمانة في المجتمعات والاسير ، وبالصديق في القول

والعمل ، وبالاخلاص في السر والعلن ، وبالعدل في الرضا والغضب ،
وبالتقصد في الفقر والغنى .

بل انه براه في صمته فكان صمته فكرا ، وبراه في نطقه فكان
نطقه ذكرا ، وبراه في نظره فكان نظره عبرا .

انه براه في كل شيء حتى كان صلوات الله وسلامه عليه ، بكمال
الكمال موصوفا ، وعن قليل القليل من النقص معصوما .

انه بحق معصوم : وحظه الوافر من العصمة ، انه لا يقضى
بقضاء الا وكان فيه ارادة الله سبحانه :

« قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما ادري ما يفعل بي ولا بكم ،
ان اتبع الا ما يوحى الي ، وما انا الا نذير مبين » (١)

ويتحدث الامام على كرم الله وجهه عن براءته صلوات الله
وسلامه عليه وعراقة مجده فيقول :

« مستقره خير مستقر ، ومنبته اشرف منبت ، في معادن
الكرامة ، ومماهد السلامة .

قد صرفت نحوه افئدة الابرار ، وثبتت اليه أزمة الأبصار .

دفن الله به الضغائن ، وأطفأ به النوائر .

الف به اخوانا ، وفرق به اقرانا .

اعز به الذلة ، وأذل به العزة .

كلامه بيان ، وصمته لسان » اهـ

بهذا الطابع النبوي المبرا ، طابع الصفاء والطهر والنقاء ، طابع
رسول الاسلام ، تنبئ ان الاسلام كذلك : دين البراءة والعصمة ،
دين الطهر والصفاء ، دين السعادة الدنيوية والابدية : ذلك
لاشتماله وعمومه لكل ما جاءت به الاديان السابقة ، وما تميز به
من كرم فياض ، ومروءة ومودة ، وما ملئ به من حيب وايشار ،
وعطف واحسان .

انه دين العموم والشمول الذي ارتضاه الله لخلقه ، واختاره
شريعة ميسرة لعباده ، وافتراضه سبحانه عقيدة ثابتة بقضائه
وعدله ؛

انه دين اتى به سبحانه لا غبن فيه ولا اجحاف ، ولا نقص به
ولا اسراف ، فكان بذلك التمام : شريعة موفقة ، على وجه يتناسب
مع فطرة الله التى فطر الناس عليها دون تبديل او انحراف .

لقد اتى الله سبحانه بهذا الدين الاسلامى عقيدة تامة ، لا يحيد
عنها من طلب الهداية ، ولا ينتهك حرمتها من اتقى الله سبحانه ،
ولا يضل عن صراطها المستقيم ذو بصيرة وثابة تدعو للخير ، وتؤمن
بالله ، ولا يرغب عنها من ابتغى الاسلام ديناً ، وخضع لله سجدوا ،
واستجاب لله مسلماً تسليماً ، انه بعث سيدنا محمداً صلى الله
عليه وسلم بالحق بشيراً ونذيراً :

والاسلام بكل ما جاء به من معان كريمة وبكل ما اتسم به
رسوله الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وما اتسمت به
كذلك رسالته من معان انسانية سامية ، كان من البدهى - وهو
يقرر توحيد الله سبحانه - ان يكون هو دين الانسانية الفاضلة ،
والسعادة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة .

لا سيما وانه يستمد قوته من السماء ، وينير الكون نبراسه
الوضاء ، ويغمر فيض كرمه اهل الارض والسماء ؛ الا من سبق
عليه القول فكان - بفسقه او كفره - من الاشقياء .

هذا وكما ان الاسلام اصدر التشريع ، وقن القوانين ، وأوضح
الاحكام ، واثبت قواعد الخير الذى صلح به حال البلاد والعباد ،
واخذ بيد الانسانية الى السعادة المثلى ، فانه كذلك أظهر الحلال
والحرام ، وارشد - محذراً - الى ما بينهما من امور متشابهات ،
لا يعلمهن كثير من الناس ، وحذر من هذه المتشابهات ، ليستبرىء
الانسان لعرضه ودينه ، والا : وقع فى محارم الله سبحانه .

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول :

« ان الحلال بين وان الحرام بين ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن

كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

الا وان لكل ملك حمى ، الا وان حمى الله هى محارمه ، الا وان فى الجسد مضغة ، اذا صلحت صالح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، الا وهى القلب « (١) » اهـ

وعن عطية بن عروة السعدى الصحابى ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ، حتى يدع مالا بأس به ، حذرا مما به بأس » (٢)

بهذا رسم الاسلام - فى بساطة ويسر - طريق الهداية ، وأوضح سبيلها للسالكين ، وأظهر الضلال فى أشجع صورة ، وأحذر بأن يرغب عنه من اراد الله بقلب سليم .

ولأجل أن يتم الله نعمه على بنى البشر - بعد أن افاض عليهم بما فى الكون من آيات - أنزل القرآن من أجلهم ، وأرسل الرسول فيهم ومنهم ، حتى لا تكون لهم الحجة ، وتنقطع عنهم المذرة .

أنزله سبحانه هداية للتي هى اقوم ، بل أنزله كذلك دستورا جامعاً ، وقانوناً عادلاً ، وسبيلاً واضحاً ، وبياناً ميسراً .

من أجل هذا وذاك ، بل ومن أجل مبادئ الاسلام السامية ، وأعجاز قرآنه المعجز ، أردت وبالله التوفيق ، واستعنت به ومنه يستمد العون وحده ، أن أنشر فى هذا الكتاب صورة طيبة متواضعة عن سماحة اسلامنا الحنيف ، تحمل بين طياتها حقيقة واضحة عن أهمية هذا الدين السماوى الجامع المانع ، العادل السمح ، وما منحه الله من فضائل اختص بها وحده دون أن يشركه دين سواه .

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

خاصة وأن هذا الدين - الذي اختاره الله وارتضاه - انطلقت وما زالت تنطلق عليه السنة حداد ، بالسب والرمى والاتهامات الكاذبة الضالة المضلة ، من شسيوعية حمراء ، ووجودية حمقاء : والحادية عمياء ، وزندقة جهلاء ؛ وكثير وكثير ، ممن لا يعي عن الاسلام شيئاً ، ولا يرعى له حرمة ، ولا يقدر فيه الله سبحانه شعيرة من شعائره .

وان الغاية العظمى التى اقصدها ، والهدف الجاد الذى أحب أن اصبو اليه أن يوقفنى الله لرد هذه الخزعبات الممقوتة ، ودحض حجج هؤلاء الحمقى الموروثة ، حتى يفيئوا عن غيهم ويروا آيات الله فى الآفاق وفى انفسهم ، ويتبين لهم أن الاسلام حق ، وأن الله على كل شىء شهيد .

وانى لأرجو من نشر هذا الجهد المتواضع : أن ترد به شبهه الذين مرقوا من الدين ، وخرجوا عن حد الاعتدال فى فهم الاسلام ، واساءوا الظن به ، وحملوا عليه متقولين :

ان الاسلام فى تخلف بأبنائه ، وفى انصراف صارف عن ركب الحضارة وتيار المدنية باتباعه .

وبعد : فان الاسلام دين السمو بالانسانية كما اجملنا ذلك فى عرضنا هذا ، وما سيفصله فيما بعد بتوفيق الله كتابنا الذى نحن بصدده .

ولقد سميته بـ « الاسلام دين السعادة » أملًا فى الله تعالى أن يكتب لنا وللمسلمين السعادة فى الدين والدنيا والآخرة . واعترافاً كذلك : أن الله قدر للاسلام البقاء ، وأسند اليه القيادة الرشيدة ، حتى يرث الله الارض ومن عليها . والله وحده الموفق وهو حسبى عليه توكلت واليه أنيب .

الباب الأول

- التعريف بالاسلام
- الاسلام والمجتمع الانساني الاول
- دور الاسلام المشالي في تحرير الشعوب

الفصل الأول

التعريف بالاسلام

يقول الله تعالى :

« ان الدين عند الله الاسلام » (١)

ويقول سبحانه :

« ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » (٢)

ويقول صلوات الله وسلامه عليه - فيما روى عن ابن مسعود رضى الله عنهما :

« ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعن جنبتي الصراط سوران ، فيهما ابواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعند رأس الصراط داع يقول :

استقيموا على الصراط ولا تعوجوا ، وفوق ذلك داع يدعو ، كلما هم عبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال :

« ويحك لا تفتحه ، فانك ان تفتحه تلجه ، ثم فسره فآخبر :

ان الصراط : هو الاسلام ، وان الأبواب المفتحة ، محارم الله ، وأن الستور المرخاة ، حدود الله .

والداعى على رأس الصراط : هو الاسلام ، وأن الأبواب المفتحة ، محارم الله ، وأن الستور المرخاة ، حدود الله ؛

والداعى على رأس الصراط : هو القرآن ، وأن الداعى من فوقه ، هو واعظ الله في قلب كل مؤمن » (٣) ١ هـ

(١) آل عمران آية : ١٩ .

(٢) آل عمران آية : ٨٥ .

(٣) انظر كتاب : « جامع المعقول والمنقول » شرح جامع الاصول لاحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ٢٦٠ .

وفي صحيح الترمذى ، عن النواس بن سمعان رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً ، على كنفى الصراط زوران ، لها أبواب مفتحة ، على الأبواب ستور ، وداع يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو فوقه ، والله يدعو الى دار السلام ، ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

والأبواب التي على كنفى الصراط ، حدود الله ، فلا يقع احد في حدود الله ، حتى يكشف الستر ، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه » (١)

من هذه النصوص الرائعة : التي تحمل بين طياتها صورة طيبة ، وحقائق عن الاسلام مباركة ، تفهم دنيا المسلمين بعبير الخلد وأنفاس الملائكة ، تفهم ان الدين الاسلامى :

هو دين الله الخالد : الذى شرعه سبحانه على لسان رسوله الصادق ، صلى الله عليه وسلم ، من عبادات ومعاملات ، والذى ارتضاه لعباده ، ولن يقبل عند الله غيره من الأديان الأخرى .

هذا التعريف الدقيق المعنى ، العميق المغزى ، الذى أطلقناه على الاسلام ، إنما هو :

باعتبار نسبة المقارنة بين الاسلام ، وبين غيره من الأديان السابقة الأخرى .

ولقد كان واقع هذا الدين من جهة هذا الاطلاق :

انه اخذ من القوة مأخذه الوافر ، الذى لا يحتمل فيه ضعف ، ومن السلامة حتى لا يتسرب اليه شك ، ومن اليقين الصادق ، حتى لا يتطرق اليه وهم ، ومن الحق الخالص ، حتى لا يشوبه باطل أو افتراء .

(١) أخرجه الترمذى أنظر كتاب : « جامع المعقول والمنقول » ج ٢ ص ٢٥٧ .

يقول سبحانه :

« اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » (١) .

وعن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب - فيما رواه الامام البخارى - قال : قال رجل من اليهود لعمر :

يا امير المؤمنين ، لو ان علينا نزلت هذه الآية : « اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . فقال عمر :

« انى لأعلم أى يوم نزلت هذه الآية ؛ نزلت يوم عرفه ، فى يوم الجمعة » (٢) .

وعن أبى بردة عن أبى موسى رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

« انما مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قوما فقال : يا قوم ، انى رأيت الجيش بعينى ، وانى أنا النذير العريان ، فالنجاة ؛ فاطاعه طائفة من قومه فأدلجوا ، فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم ، فاصبحوا مكانهم ، فصحبهم الجيش ، فاهلكهم واجتاحهم ؛

فذلك مثل من اطاعنى فاتبع ما جئت به ؛ ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق » (٣) .

بهذا التشبيه النبوى الرائع ، وبهذه المثل الاسلامية العالية ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أروع المثل ، التى تعتبر فى حد مفهومها الاسلامى ، نموذجاً حياً ، لبيان شأن الاسلام ، وما اشتمل عليه من الصدق والاخلاص والامانة ، وبيان ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، من الحق الواضح ، والقوة النورانية الهادية .

(١) المائدة آية : ٣ .

(٢) رواه البخارى رضى الله عنه .

(٣) رواه الامام البخارى .

بيان الحق الواضح الذي أخذ بل وسياخذ بيد أتباعه الى النجاة ، واستئصال شأفة الذين عصوا الله سبحانه ، وقطع دابر القوم الذين كفروا ، واجتياح كل من كذب بالاسلام ، واستخف برسالة رسوله ، عليه الصلاة والسلام .

وما ذاك الا اعظم شأن الاسلام ، وتثبيت علو مقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسمو رسالته عن بقية رسالات سائر الأديان، وتحقيقا لجدارته التامة ، بالحفاوة والتكريم ، ووجوب لزوم السمع والطاعة لأوامره ، والاجتناب لنواهيه ، والتأسي بأخلاقه وأفعاله ، والتزام طريقه ، والسير على منواله :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا

الله » (١) .

هذا : وان اطلاق هذا التعريف الذي عضدته الأسانيد القوية ، من الآيات القرآنية الكريمة ، والتي اشادت بعلو رتبته الأحاديث النبوية الشريفة ، انما كان ذلك كذلك : باعتبار نسبة المقارنة بين الاسلام ، وبين ما غيره من الأديان الأخرى .

اما اذا أردنا تعريفا للاسلام جامعا لأنواع الخير والفضيلة ، مانعا لأنواع الشر والرذيلة ؛

اما ان أردنا تعريفا للاسلام يتناسب مع جلالة قدر الاسلام وسمو منزلته ؛

اما ان أردنا ذلك : فان الأمر يعوزنا — لما نحن عليه من احتياج دائم للتأدب مع النبي — أن نفسح المجال ، ونذكر من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، ما هو جامع لمحاسن الاسلام ، والمشتمل على فضائل هذا الدين الحنيف .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم ، بارزا يوما للناس ، فأتاه جبريل فقال :

(١) الحشر آية : ٧ .

ما الايمان ؟ قال :

الايمان أن تؤمن بالله وملائكته ، وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث .

قال : ما الاسلام ؟ قال :

الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان .

قال : ما الاحسان ؟ قال :

أن تعبد الله ، كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : متى الساعة ؟ قال :

ما المستؤل عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها ؛ إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الابل البهم في البنيان ، في خمس لا يعلمهن الا الله ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم :
« ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس باى أرض تموت ، ان الله عليم خبير » (١) .

ثم أدبر فقال : ردوه ، فلم يروا شيئا ، فقال :

هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » (٢) .

ولكى نزيد من توضيح شأن التعريف بالاسلام ، نذكر من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما يحقق ذلك فى صورة جميلة رائعة .

عن عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله :
ما الاسلام ؟ قال صلوات الله وسلامه عليه :

(١) لقمان آية : ٣٤ .

(٢) من كتاب « الاسلام والايمان » لشيخنا العارف بالله الدكتور عبد الحليم

((أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك)) (١)

وروى الترمذى فى صحيحه ، والنسائى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم » (٢)

وروى البخارى ، ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، أن رجلا ، سأل النبى صلى الله عليه وسلم :

أى الاسلام خير ؟ قال :

« تطعم الطعام ، وتقرا السلام ، على من عرفت ومن لم تعرف » (٣) .

وروى مسلم فى صحيحه ، والترمذى ، عن العباس بن عبد المطلب قال : انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ذاق طعم الايمان ، من رضى بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسولا » (٤) .

قال صاحب التحرير ، رحمه الله تعالى :

« معنى رضيت بالشئ قنعت به ، واكتفيت به ، ولم اطلب معه غيره ؛ فحينئذ يكون معنى الحديث :

لم يطلب غير الله تعالى ، ولم يسع فى غير طريق الاسلام ، ولم يسلك الا ما يوافق شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولا شك فى أن من كانت هذه صفته ، فقد خلصت حلاوة الايمان الى قلبه ، وذاق طعمه » ا هـ

(١) رواه الامام أحمد ، ورجاله رجال الصحيح .

(٢) أخرجه الترمذى والنسائى .

(٣) أخرجه البخارى ، ومسلم ، والنسائى .

(٤) أخرجه مسلم والترمذى .

وقال القاضي عياض رحمه الله : معنى الحديث :

صح إيمانه ، واطمأنت به نفسه ، وخامر باطنه ، لأن رضاه بالمذكورات ، دليل على ثبوت معرفته ، ونفاذ بصيرته ، ومخالطة الإيمان بشاشة قلبه » اهـ

ويقول ابن عطاء الله السكندري ، رضى الله عنه ، عن قوله صلى الله عليه وسلم ، « ذاق طعم الإيمان ... الخ »

« فيه دليل على أن من لم يكن كذلك ، لا يجد حلاوة الإيمان ، ولا يدرك مذاقه ، وإنما يكون إيمانه صورة لا روح فيها ، وظاهرا لا باطن له ، ومرتسما لا حقيقة تحته .

وفيه إشارة الى أن القلوب السليمة من امراض الغفلة والهوى ، تتنعم بملذات المعاني ، كما تنعم النفوس بملذات الأطعمة .

وإنما ذاق طعم الإيمان ، من رضى بالله ربا ؛ لأنه لما رضى بالله رباً ، استسلم له ، وانقاد لحكمه ، وألقى قياده اليه خارجا عن تدبيره واختياره ، الى حسن تدبير الله واختياره ؛ فوجد لذادة العيش ، وراحة التفويض .

ولما رضى بالله ربا ، كان له الرضا من الله ، كما قال الله تعالى :
« رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

وإذا كان له الرضا من الله ، أوجده الله حلاوة ذلك ، ليعلم ما من به عليه ، وليعلم احسان الله اليه ؛

ولا يكون الرضا بالله الا مع الفهم ، ولا يكون الفهم الا مع النور ، ولا يكون النور الا مع الدنو ، ولا يكون الدنو ، الا مع العناية ؛

فلما سبقت لهذا العبد العناية ، خرجت له العطايا من خزائن المنن ؛ فلما واصلته امداد الله وانواره ، عوفي قلبه من الأمراض والأسقام ، فكان سليم الإدراك ، فأدرك لذادة الإيمان ، وحلاوته لصحة ادراكه ، ولسلامة ذوقه ؛

ولو سقم قلبه بالغفلة عن الله - والعياذ بالله تعالى - لم يدرك ذلك ، لأن المحموم ، ربما وجد طعم السكر مرا ، وليس هو في نفس الأمر كذلك .

فاذا ما زالت أسقام القلوب ، أدركت الأشياء على ما هي عليه ،
فتدرك حلاوة الايمان ولذاذة الطاعة ، ومرارة القطيعة والمخالفة .
فيوجب ادراكها لحلاوة الايمان ، اغتباطها به ، وشهود المنة
من الله عليها فيه ، وتطلب الأسباب الحافظة للايمان ، والجلابة له .
ويوجب ادراك لذاة الطاعة ، المداومة عليها ، وشهود المنة
من الله فيها .

ويوجب ادراكها لمرارة الكفران والمخالفة ، الترك لهما ، والنفور
عنهما ، وعدم الميل اليهما ، فيحمل على الترك للذنب ، وعدم التطلع
اليه ، وليس كل متطلع تاركا ، ولا كل تارك ، غير متطلع .

وانما كان كذلك : لأن نور البصيرة دال على ان المخالفة لله ،
والغفلة عنه ، سم للقلوب مهلك .

فنفرة قلوب المؤمنين عن مخالفة الله تعالى ، كنفرتك عن الطعام
المسموم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وبالاسلام ديننا » .

لانه اذا رضى بالاسلام ديننا ، فقد رضى بما رضى به المولى ،
واختاره لقوله تعالى :

« ان الدين عند الله الاسلام » . ولقوله تعالى :

« ومن يبتغ غير الاسلام ديننا ، فلن يقبل منه » . ولقوله تعالى .

« ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون » .

واذا رضى بالاسلام ديننا ، فمن لازم ذلك :

امثال الاوامر ، والانكفاف عند وجود الزواجر ، والامر
بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والفيرة اذا رأى ملحدا يجادل ،
أن يدخل فيه ما ليس منه ، فيدفعه ببرهانه ، ويقمعه بتبليانه .

وقوله صلى الله عليه وسلم ، « وبمحمد نبيا » :

فلازم من رضى بمحمد نبيا ، أن يكون له وليا ، وأن يتأدب بأدابه ،
وأن يتخلق بأخلاقه زهدا في الدنيا ، وخروجا عنها ، وصفحا عن

الجنائية ، وعفوا عن أساء اليه ، الى غير ذلك من تحقق المتابعة ،
 قولا ، وفعلًا ، وأخذًا ، وتركًا ، وحبا ، وبغضا ، وظاهرا ، وباطنا .
 فمن رضى بالله أ استسلم له ، ومن رضى بالاسلام : عمل له ،
 ومن رضى بمحمد صلى الله عليه وسلم : تابعه ، ولا تكون واحدة منها
 الا بكلها ؛

اذ محال أن يرضى بالله ربا ، ولا يرضى بالاسلام دينًا ، أو يرضى
 بالاسلام دينًا ، ولا يرضى بمحمد نبيا ، وتلازم ذلك بين لاختفاء
 فيه » (١) . اهـ

الدين الاسلامي وموقفه من الأديان السابقة :

اما مكانة الاسلام ، واما موقفه من الأديان السابقة الاخرى ،
 فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصور ذلك أحسن تصوير
 وأبدعه ، فيقول :

« مثلى ومثل الأنبياء قبلى ، كمثلى رجل بنى بيتا فأجمله وزينه
 الا موضع لبنة من زاوية ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم الأنبياء » .

وعن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه قال :

جاءت ملائكة الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو نائم ، فقال
 بعضهم : انه نائم ، وقال بعضهم :

ان العين نائمة ، والقلب يقظان . فقالوا :

ان لصاحبكم هذا مثلا ، فاضربوا له مثلا ؛ فقال بعضهم :

انه نائم ؛ وقال بعضهم :

ان العين نائمة ، والقلب يقظان ؛ فقالوا :

مثله كمثلى رجل بنى دارا ، وجعل فيها مأدبة ، وبعث داعيا .

فمن اجاب الداعى دخل الدار ، وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب
 الداعى ، لم يدخل الدار ، ولم يأكل من المأدبة .

(١) أنظر كتاب : « التنوير فى اسقاط التدبير » لابن عطاء الله السكندرى
 رضى الله عنه .

فقالوا ١ اولو هاله ، يفقهها ؛ فقال بعضهم :

انه نائم ، وقال بعضهم :

ان العين نائمة ، والقلب يقظان ، فقالوا :

فالدّار الجنة ، والدّاعى محمد صلى الله عليه وسلم .

فمن اطاع محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، فقد اطاع الله ، ومن عصى محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقد عصى الله ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فرق بين الناس « (١) ١ هـ

من هذه النصوص النبوية الكريمة ، التى لها من الصحة والقوة ، مالها من الصدق واليقين ، نفهم أن الاسلام هو :

اثبات التوحيد الخالص المخلص لله وحده ، وتنزهه سبحانه وتعالى بالعبادة الخالصة لوجهه ، وابطال الشرك ، ونفى الشريك ، ومنع الشبيه ، والنظر له تعالى :

« ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

وانه التصديق الصادق ، بارسال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاقرار الكامل الصادر عن قلب مؤمن ، أنه عبد الله ورسوله ، الذى اصطفاه الله لخلقه ، واختاره لوحيه .

وانه اقام الصلاة المفروضة ايضا :

الصلاة التى يخبر عن عظمتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يلي :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

قال لى جبريل :

« ان الله تعالى يقرئك السلام ويقول :

(١) رواه الامام البخارى فى صحيحه رضى الله عنه .

« اذا وقف العبد بين يدي للصلاة ، وقال : الله اكبر ، ارفع
الحجاب الذى بينى وبينه .

واذا قال : الحمد لله ، يقول لمن الحمد ؟ فيقول لله .

فيقول : ومن الله ؟ فيقول : رب العالمين .

فيقول : ومن رب العالمين ؟ فيقول : الرحمن الرحيم .

فيقول : ومن الرحمن الرحيم ؟ فيقول : مالك يوم الدين .

فيقول : يا عبدى انا مالك يوم الدين .

فيقول : العبد : اياك نعبد واياك نستعين .

فيقول : يا عبدى انا اياى تعبد ، واياى تستعين ، سل تعط .

فيقول : اهدنا . فيقول :

اى الهدى تريد ؟ فيقول :

الصراط المستقيم ، فيقول :

اى الصراط تريد ؟ فيقول :

صراط الذين انعمت عليهم ؛

فيقول . يا ملائكتى اشهدوا انى قد جعلت عبدى من الذين
انعمت عليهم ، من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين .

فيقول العبد : غير المفضوب عليهم ، ولا الضالين .

فيقول الله تعالى :

« اشهدوا انى جعلته من الذين انعمت عليهم ، ولم اجعله من
المفضوب عليهم ، ولا الضالين .

فيقول العبد : آمين . فتقول الملائكة : آمين » (١) اهـ

انه الصلاة المفروضة ، بالكتاب والسنة ، واجماع الأمة ، الثابتة

(١) انظر كتاب « شرح القلوب لابن الجوزى »

بشروطها وأركانها ، والقيام بأدائها في أوقاتها ، دون جمعها على بعضها ، والمحافظة على جماعتها وجمعيتها .

انه الصلاة التي هي الصلة القوية بين الانسان وربه ، والمقربة العظمى ، التي تقرب العبد من خالقه .

انه الصلاة التي هي المناجاة المشروعة ، والأعمال الطيبة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والتي هي ذكر الله الأكبر ، والله يعلم ما تصنعون .

وأن الاسلام هو كذلك :

ابتداء الزكاة عن طيب خاطر ، وانشراح صدر ، واطمئنان نفس ، واخلاص نية .

انه الزكاة التي هي عبارة عن اخراج جزء من مال حلال ، وكسب مشروع للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والفارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل .

انه الزكاة الصحيحة المقبولة ، المحصنة للأموال ، المحافظة للبنين والبنات ، الرافعة للأعمال الصالحات .

انه الزكاة التي تربط الغنى بالفقر ، والقوى بالضعيف ، والفرد بالجماعة ، والقبائل بالشعوب ؛

انه الزكاة التي تربط ذلك كله برباط الاخوة والمحبة ، والالفة والشفقة ، والمودة والرحمة ؛

انه الزكاة التي تدفع فاقة الفقير ، وترد بأس الجياع والمعوذين ، وتدخل البشر والسرور على المحرومين .

انه الزكاة التي تطفىء غضب الرب ، وتكسر جماع طمع الطامعين .

انه الزكاة التي هي الانفاق في سبيل الله ، الذي يضاعفه الله لمن يشاء من عباده ، والذي يقول في شأنه

« مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ، كمثل حبة انبتت

سبع سنابل ، في كل سنبل مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ،
والله واسع عليم (١) .

وان الاسلام هو ايضا :

الصوم الذى هو ركن من اركانه ، وأساس قوى من أسس بنيانه ،
انه الصوم الذى فرضه الله على المؤمنين ليكون سببا مباشرا
لتقوى الله سبحانه .

« يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين
من قبلكم لعلكم تتقون » (٢) .

انه الصوم الذى به تكسر الشهوات ، وتحرم المنكرات ، وتمسك
به النفوس : وتجمع به الأهواء ، وتحبس الشياطين ، وتوصلد
أبواب الجحيم ، وتفتح أبواب الجنان .

انه الصوم الذى تصح به المعدة ، وتنشط به الأعضاء ، وتقوى
به الأجسام ، وتتروض به القلوب ، وتسمو الأعمال ، ويقوى اليقين ،
وترقى درجة الايمان .

انه الصوم الذى يقول الله في فضله على لسان رسوله :

« كل عمل ابن آدم له ، الا الصوم ، فانه لى ، وأنا أجزي به » .

انه الصوم ، والصوم جنة .

وأن الاسلام هو : حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر النبى عليه
الصلاة والسلام .

انه الحج البيت الذى هو أول بيت وضع للناس ، والذى جعل
الله الأمان لمن دخله .

انه الحج الذى فرضه الله على من استطاع اليه سبيلا .

انه الحج الى بيت الله الحرام ، الذى أنزل الله في حقه :

(١) البقرة آية : ٢٦١ .

(٢) البقرة آية : ١٨٣ .

((ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين .
فيه آيات بينات مقام ابراهيم : ومن دخله كان آمناً ، والله على الناس
حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ، ومن كفر فان الله غنى عن
العالمين)) (١) .

وان الاسلام هو كذلك ايضا :

الجهاد في سبيل الله سبحانه ، اعلاء لكلمة الله تعالى ، والدفاع
المستميت ضد اعداء الدين والوطن .

انه الجهاد في سبيله سبحانه ، من اجل الشرف والعزة
والكرامة ، وسلامة الفرد والمجتمع .

انه الجهاد ضد كل غاصب او معتد اثم .

انه الجهاد من اجل المبادئ الانسانية ؛

انه الجهاد الخالص المخلص لوجه الله سبحانه ، من اجل دينه ،
دون فخر ، او مراعاة ، او سمعة او شهرة .

انه الجهاد الجاد من اجل الحق وللحق ، وللإسلام والمسلمين
إجمع .

انه الجهاد الذي تنال به منزلة الشهداء الذين هم احياء عند
ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين
لم يلحقوا بهم من خلفهم ، الا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

انه الجهاد بالقتال في سبيل الله تعالى ، الذي امرنا به سبحانه
بقوله :

((قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويغزهم ، وينصرم عليهم ،
ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله
على من يشاء ، والله غليم حكيم)) (٢) .

(١) آل عمران آية : ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) التوبة آية : ١٤ ، ١٥ .

انه الجهاد الذى فرضه الله علينا بقوله :

((وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ، ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس ، فاقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير (١))) .

انه الاسلام بكل هذه المعانى ، بل ان الاسلام كان اسلاما لا بكل ذلك فحسب ، بل انه كان اسلاما ، لتضمنه ايضا اسلام الوجه لله سبحانه .

انه تضمن اسلام الوجه لله سبحانه ، على وجه يتناسب وخضوع القلب هبة لجلال الله سبحانه ، ويتفق وقداسة السجود المعنى به تعظيم الحق تعالى .

يقول سبحانه :

((ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله ابراهيم خليلا (٢))) .

ويقول تعالى :

((ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، والى الله عاقبة الامور (٣))) .

وعن بهز بن حكيم ، عن ابيه عن جده - فيما رواه النسائي فى صحيحه - قال : قلت يا رسول الله !

ما اتيتك حنى حلفت اكثر من عددن - لاصابع يديه - ان لا آتيك ، ولا آتى دينك ، وانى كنت امرء ، لا اعقل شيئا الا ما علمنى الله ورسوله ، وانى سألتك لوجه الله ؛

(١) الحج آية : ٧٨ .

(٢) النساء آية : ١٢٥ .

(٣) لقمان آية : ٢١ .

بم بعثك الله إلينا ؟

قال صلى الله عليه وسلم :

بالاسلام . قال :

وما آيات الاسلام ؟ قال : أن تقول :

« أسلمت وجهى لله ، وتخليت ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة (١) » .

واسلام الوجه لله سبحانه ، اسلاما تاما ، لا يتأتى للانسان الا بالاذعان الكامل لأوامر الله تعالى ، والتسليم المطلق ، والخضوع الكلى لأحكامه ، والقاء الكيان البشرى فى خضم العبودية لله وحده ، دون أن يشرك فى ذلك اشتغال بما سوى الله سبحانه وتعالى ، حتى يصفو القلب ، وتخضع الجوارح ، وتصدق النية ، وتصح العقيدة ، وتسلم الأفكار من الظنون السيئة ، وتذوب بشريته فى صهاريج العبودية ، ويتحقق العبد بقوله :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » (٢) .

ولن يتأتى القرب للعبد من ربه فى سجوده الذى هو أولى درجات اسلام الوجه لله تعالى ، الا بسلامة المسلمين من لسانه ويده . وهذه السلامة المقصودة هنا ، انما تكون بعدم الإيذاء مطلقا ، فعلا أو تركا ، قولاً أو عملاً ، هما بالنفس ، أو عزماً بالإرادة .

اذ أن سلامة المسلم من لسان أخيه ويده ، تستلزم : كف الأذى مطلقا بسائر أنواع الجوارح ، وترك ما نهى الله تعالى عنه ؛ ففى الحديث الشريف يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر ، من هجر ما نهى الله عنه » .

(١) أخرجه النسائى .

(٢) الداريات آية : ٥٦ ، ٥٧ .

فاذا ما تأتى من المسلم ذلك ، وتحقق به أيضا - وهو على يقين صادق ، واخلاص مخلص - كان شأنه عند الله أعظم ، وثوابه أجزل ، وحاله يتفق وما أمره به الرسول صلى الله عليه وسلم .

بهذه المعانى الاسلامية ، الجامعة لخيرى الدنيا والآخرة ، كان الاسلام اسلاما كاملا ، أرتضاه الله لخلقه دينا ، واختاره خاتما لجميع الأديان السابقة .

هيمنة الاسلام

ان الاسلام على الرغم من منزلته السامية التى سبق أن ذكرناها ، والتى لم يشركه فيها غيره ، واختص بها وحده دون ما عداه ؛ على الرغم من ذلك : فانه صنو الأديان السابقة ، والمهيمن عليها قاطبة .

ذلك : انه يتحد معها فى المبادئ ، ويفوقها فى الغايات ، ويسير معها فى خصوصيتها ، ويفضلها أنه خاتم الرسالات وأعمها .

يقول سبحانه مبينا ذلك :

« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم ، واسماعيل ، واسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان : وآتينا داود زبوراً (١) » .

ويقول جل ذكره :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ، ويهdy اليه من يشاء (٢) » .

يقول صاحب روح المعانى فى تفسير هذه الآية (٣) :

(١) النساء آية : ١٦٣

(٢) الشورى آية : ١٣

(٣) صاحب روح المعانى هو الشيخ الالوسى صاحب التفسير المشهور .

« شرعنا لكم ما شرعنا للأنبياء ، ديننا واحدا في الأصول ، وهي :
التوحيد ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والتقرب
بصالح الأعمال ، والصدق ، والوفاء بالعهد ، وإداء الأمانة ، وصلة
الرحم ، وتحريم الكبر ، والزنا ، والإيذاء للخلق ، والاعتداء على
الحيوان ، واقتحام الدناءات ، وما يعود بخرم المروءات .

فهذا كله مشروع ديننا واحدا ، وملة متحدة ، لم يختلف على
السنة الأنبياء ، وان اختلفت أعدادهم » اهـ

وقال الحافظ أبو بكر بن العربي :

« لم يكن مع آدم عليه السلام الانبوه ، ولم يفرض له الفرائض ،
ولا شرعت له المحارم ، وانما كان فيها على بعض الأمور مقتضرا على
بعض ضروريات المعاش ، واستمر الأمر الى نوح عليه السلام ،
فبعثه الله تعالى ، بتحريم الأمهات والبنات ، ووظف عليه الواجبات ،
وأوضح له الأدب في الديانات ، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسول ويتناصر
بالأنبياء ، واحدا بعد واحد ، وشريعة اثر شريعة ، حتى ختمه
سبحانه ، بخير الملل على لسان اكرم الرسل » اهـ

ويقول الرازي ايضا :

« شرعنا لكم من الدين ، ديننا تطابقت الأنبياء على صحته ، وقد
أراد له صانعه أن يكون خاتما لهذه الأديان جامعا لمحاسنها ، محتويا
لغاياتها ، ولذا ذابت ، وفنيت في طياتها ، وجعل الاصرار عليها دونه
لونا من ألوان العبث غير مقبول . ولسنا نرمي القول جزافا :

فالدين الواحد الذي لا يدخله النسخ ، ولا يختلف باختلاف
الأنبياء ، هو في نظر القرآن حجة الله الوحيدة ، والمسمى اسلاما » .
وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال :

« ما من الأنبياء نبي الا أعطى من الآيات ، ما مثله او من ، او آمن
عليه البشر ، وانما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله الى ، فأرجو
أنى أكثرهم تابعا يوم القيامة (١) » .

(١) رواه الامام البخارى رضى الله عنه .

ويقول صاحب كتاب : « أنوار التنزيل ، وأسرار التأويل (١) » :
 « لا دين مرضى عند الله سوى الاسلام ، وهو التوحيد والتدرع
 بالشرع الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم » .
 وعن عوف رضى الله عنه ، أن أبا المنهال ، حدثه أنه سمع أبا برزة
 قال :

« أن الله يغنيكم ، أو أنعمشكم بالاسلام ، وبمحمد صلى الله عليه
 وسلم (٢) » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

« جلس ناس من أصحاب النبی صلى الله عليه وسلم ؟
 ينتظرونه ، فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذكرون ، فسمع
 حديثهم ، واذا بعضهم يقول :

ان الله تعالى اتخذ من خلقه خليلا ، فابراهيم خليله ۞
 وقال الآخر :

ماذا بأعجب من ان كلم الله تعالى موسى تكليما ۞
 وقال آخر :

فعيسى روح الله تعالى وكلمته ۞
 وقال آخر :

آدم اصطفاه الله تعالى ، فخرج عليهم ، فسلم فقال :
 قد سمعت كلامكم وعجبكم ؛

ان ابراهيم خليل الله تعالى ، وهو كذلك ، وموسى كلمه ، وعيسى
 روحه وكلمته ، وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك ۞ .

(١) هو ناصر الدين أبى الخير عبد الله بن عمر البيضاوى صاحب التفسير

المشهور .

(٢) رواه الامام البخارى رضى الله عنه ۞

الا وانى حبيب الله تعالى ولا فخر ، وانا اول شافع ومشفع
ولا فخر ، وانا اول من يحرك حلق الجنة فيفتحها الله تعالى ،
فيدخلونها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر ، وانا اكرم الاولين والآخرين
يوم القيامة ولا فخر (١) » .

ويقول الامام على رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه ا
« ان الله تعالى خصكم بالاسلام ، واستخلصكم له ، وذلك لانه
اسم سلامة ، وجماع كرامة ، اصطفى الله تعالى منهجه ، وبين
حججه ، من ظاهر علم ، وباطن حكم .
لا تغنى غرائبه ، ولا تنقضى عجائبه . فيه مرابع النعم ،
ومصابيح الظلم ؟

لا تفتح الخيرات الا بمفاتيحه ، ولا تكشف الظلمات الا
بمصاييحها ؟

قد احمى حماه ، وارعى مرعاه ؟

افيه شفاء المستشفى ، وكفاية المكتفى » اهـ

وحقا ان الاسلام كذلك ، لانه دين الله الوحيد الذى اختاره الله
لخلقه عامه ، ورضيه شريعة جامعة ، يتعبد عليها كل من اراد الله
يقليب سليم من عباده .

انه بحق كذلك : لانه الدين الالهى المرضى عند الله ، المعنى به
الشرع ، المبعوث به الرسل ، المبني على التوحيد لله سبحانه ، المقرر
اكمال الربوبية للخالق البارىء جل جلاله .

انه دين سماوى ، سما عن الكفر والشرك ، وابتعد عن النفاق
واللحاد ، بل انه دين سماوى ، حارب الكفر والشرك ، وقضى على
النفاق والظلم .

انه دين كامل ، ارتضاه الله وكملة لعباده ، وجعله نعمة مسبغة ،

(١) اخرجه الترمذى ، وابن مردويه ٥

طابت لها نفوس المخلصين من خلقه ، واهتدت بها قلوب الذين
اهتدوا ، فزادهم الله هدى ، وآتاهم تقواهم .

يقول عنه سيدنا على رضى الله عنه وكرم الله وجهه :

« ان هذا الاسلام ، دين الله الذى اصطفاه لنفسه ، واصطنعه
على عينه ، واصفاه خيرة خلقه ، وأقام دعائمه على محبته .

اذل الأديان بعزته ، ووضع الملل برفعه ، وأهان أعداءه بكرامته ،
وخذل محاديه بنصره ، وهدم أركان الضلالة بركنه ، وسقى من
عطش من حياضه ، وآتاق (١) الحياض بمواتحه ، ثم جعله
لا انفصام لعروته ، ولا فك لحلقته ، ولا انهدام لأساسه ، ولا زوال
لدعائمه ، ولا انقلاع لشجرتة ، ولا انقطاع لمدته ، ولا عفاء
لشرائعه ، ولا جذ لفروعه ، ولا ضنك لطرقه ، ولا وعوثة
لسهواته ، ولا سواد لوضحه ، ولا عوج لانتصابه ، ولا عصي في عوده ،
ولا وعت لفجه ، ولا انطفاء لمصابيحه ، ولا مرارة لحلاوته .

فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها ، وثبت لها أساسها ،
ويتابع غزرت عيونها ، ومصاييح شبت نيرانها ، ومنارة اقتدى بها
سفارها ، وأعلام قصد بها فجاجها ، ومناهل روى بها ورادها ،
جعل الله فيه منتهى رضوانه ، وذروة دعائمه ، وسنام طاعته ؛

فهو عند الله وثيق الأركان ، رفيع البنيان ، منير البرهان ،
مضى النيران ، عزيز السلطان ، مشرف المنار ، معوز المنار ؛

فسرفوه واتبعوه ، وأدوا اليه حقه ، وضعوه في مواضعه « اه
وصدق رضى الله عنه ، اذ ان الاسلام هو :

الدين القيم ، والعبرة المستلهمة ، والنفحة الربانية الموحاة ،
والطريق السوى لمن اهتدى ، والرباط الوثيق الذى لا تنفك عراه ،
ولا تنحل أواصره ، ولا تحجب الأضواء دونه .

فهو دين لا تعوقه الحواجز ، ولا تمنعه الاستتار ، ولا يبليه
زمان ، ولا يخلقه رد ، ولا تنتهى منه العجائب .

(١) آتاق : ملا .

ذلك : أن شرائعه قاطبة ، عقائده كلها ، وقوانينه جميعها ، مأخوذة من كتاب الله الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، اللذين هما وحى مباشر ، عن الله سبحانه ، أو وحى غير مباشر عن طريق الإلهام منه سبحانه وتعالى .

شمول الاسلام وعمومه :

لقد فرض الدين الاسلامى الفروض ، وأوجب الواجبات ، وأباح الجائز ، وحجب فى النوافل ، وحث على السنن ، ونهى عن المحرم ، وأحال المستحيلات . وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وحذر عن الانهماك فى المخالفات .

عن انس بن مالك رضى الله عنه ، قال :

بينما نحن جلوس مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فى المسجد ، إذ دخل رجل على جمل ، ثم أناخه فى المسجد ، ثم عقله ، ثم قال :
أيكم محمد ؟

والنبى صلى الله عليه وسلم ، متكئ بين يديهم ، فقلنا :
هذا الرجل الأبيض المتكىء .

فقال له : ابن عبد المطلب ؟

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : قد أجبتك . فقال الرجل :
انى سائلك فمشدد عليك فى المسألة ، فلا تجد فى نفسك ؟ قال :
سل عما بدا لك . فقال :

أسألك بربك ! ورب من قبلك ! الله أرسلك الى الناس كلهم ؟
قال :

اللهم نعم . قال :

أشددك بالله ! الله أمرك أن تصلى الصلوات الخمس فى اليوم
والليلة ؟ قال :

اللهم نعم . قال :

انشدك بالله ! الله امرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال :

اللهم نعم . قال :

انشدك بالله ! الله امرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا ،
فتقسمها على فقرائنا ؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم نعم .

قال الرجل :

أمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورأى من قومي ، وأنا
ضمام بن ثعلبة ، أخو بني سعد بن بكر (١) « أهـ

وفي رواية أخرى للامام مسلم رضى الله عنه : قل أنسى رضى
الله عنه :

نهينا في القرآن أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن
شيء ؛ فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية ، العاقل (٢) ،
فيسأل ونحن نسمع ؛ فجاء رجل من أهل البادية ، فقال :

يا محمد ! اتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم ، أن الله أرسلك ؟
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلق .

قال : فمن خلق السماء ؟

قال : الله .

قال : فمن خلق الأرض ؟

قال : الله .

قال : فمن نصب هذه الجبال ، وجعل فيها ما جعل ؟

قال : الله .

(١) هذا لفظ البخارى ، انظر : جامع المقول والمنقول ، شرح جامع الأصول

لاحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ١١٩ .

(٢) أى الرجل الموصوف بالدكاء وكمال الفطنة .

قال : فبالذى خلق السماء والأرض ، ونصيب هذه الجبال ؟
الله أرسلك ؟

قال : نعم .

قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ؟

قال : صدق .

قال : فبالذى أرسلك ، الله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ؟

قال : صدق .

قال : فبالذى أرسلك ، الله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا ؟

قال : صدق .

قال : فبالذى أرسلك ، الله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

قال : وزعم رسولك ، أن علينا حج البيت ، من استطاع إليه
سبيلا ؟

قال : صدق .

قال : فبالذى أرسلك ، الله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

قال : ثم ولى ، وقال :

والذى يعثك بالحق ، لا أزيد عليهن ، ولا أنقص منهن .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« لئن صدق ليدخلن الجنة (١) » ا هـ

ويعبر الامام على رضى الله عنه ، عما اشتمل عليه الاسلام من محاسن الشيم ، وما انطوى عليه من فضائل وقيم فيقول :

« ان افضل ما توسل به المتوسلون الى الله سبحانه وتعالى :

الايمان به وبرسوله .

والجهاد فى سبيله ، فانه ذروة الاسلام .

وكلمة الاخلاص ، فانها الفطرة .

واقام الصلاة ، فانها الملة .

وايتاء الزكاة ، فانها فريضة واجبة .

وصوم شهر رمضان فانه جنة من العقاب .

وحج البيت واعتماره ، فانهما ينفيان الفقر ، ويرحضان الذنب .

وصلة الرحم ، فانها مثراة فى المال ، ومنسأة فى الاجل .

وصدقة السر ، فانها تكفر الخطيئة .

وصدقة العلانية ، فانها تدفع ميتة السوء .

وصانع المعروف ، فانها تقى مصارع الهوان » ا هـ

هذا وان كان الاسلام قد اشتمل على هذه الفضائل على طريق التزام ما امر الله تعالى به ، فان ذلك لم يكن حدا فاصلا يقف عنده الاسلام ، اكتفاء على اوامر الله سبحانه ، وانما نهى الاسلام نهيا اكليا عن كل ما نهى الله عنه ايضا ، حتى اشتمل على كثير من الفضائل الاسلامية ، التى يتحلى بها كل مؤمن عن طريق الاجتناب لما نهى الله تعالى عنه ايضا .

لذلك اعتبر الاسلام ، ان الامة الاسلامية ، كانت خير امة اخرجت للناس ، لامرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، واعتبر

(١) الحديث بطوله رواه مسلم - انظر كتاب جامع المقبول والمنقول

ج ١ ص ١١٠

تماما ، أن كل واحد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد شطري القضية المنتجة للإيمان بالله سبحانه ، إيماننا كاملا .

وليست الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس عنده ، لأمرها بالمعروف ، فحسب ، أو لنهيها عن المنكر فقط ، وإنما كانت خير أمة لتحققها بالأمرين معا ، اللذين هما قاعدة الخيرية المطلوبة ،

لهذا حذر الإسلام وانهذر ، ووعظ وأرشد ، وزجر وخوف ، ووعد وتوعد ، ورغب ورهب ، واستفاض في استعمال ذلك كله ، استفاضة تامة ، تحقيقا لاتباع أوامر الله تعالى ، واجتناب نواهيه سبحانه .

الإسلام يرسم طريق الهداية ويوصل للسعادة :

رسم الإسلام طريق الهداية الذي يوصل لسعادة الانسانية المثلى ، والذي يحقق لها الفضيلة الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

انه رسم ذلك في الحياة الدنيا : بتقفي آثار الأنبياء والصالحين ، والتأسي بأخلاق سيد المرسلين ، والأخذ بدعوته المجيدة الواردة في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وكتب العلماء ، وسيرة الصالحين .

« قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني (١) »

والقرآن الكريم يبين فضيلة هذه الدعوة الإسلامية الخالدة بيلنا واضحا ، في صراحة صريحة فيقول :

« ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله ، وعمل صالحا ، وقال انني من المسلمين (٢) »

وأما في الآخرة فقد رسمه بالاخبار والتبشير بما أعده الله

(١) يوسف آية : ٦٠٨ .

(٢) فصلت آية : ٥٢ .

للمتقين من عباده ، والأنبياء الصالحين من صفوة خلقه الذين بشرهم الله بقوله :

« الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبدل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم (١) » •

انه رسمه فى الآخرة : بالاخبار والتبشير بما أعده الله لهؤلاء من النعيم المقيم ، والأجر الوفير ، والثواب العظيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون (٢) » •

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يقول الله : أعددت لعبادى الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ اقرءوا ان شئتم :

« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » •

وفى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرءوا ان شئتم :

« وظل مملود »

وموضع سوط من الجنة ، خير من الدنيا وما فيها ، اقرءوا ان شئتم :

(١) يونس آية : ٦٢ - ٦٤ .

(٢) السجدة آية : ١٧ .

« فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز (١) » .

لهذا فانه لا جدال ولا مرء ، أن الاسلام هو :

دين السعادة والفضيلة ، دين العدل والانصاف ، دين الرحمة والألفة ، دين العطف والمحبة ، دين الرعاية والعناية ، دين الاحسان والمساواة ، دين التآخي والتواد ، دين الله الغالب الذي لا يغلب ، دين الله الباقي الذي ليس بعده أو وراءه دين .

يقول عنه سيدنا على رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه :

« الحمد لله الذى شرع الاسلام فسهل شرائعه لمن ورده ، وأعز أركانه على من غالبه ، فجعله أمناً لمن عقله ، وسلاماً لمن دخله ، وبرهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن خاصم به ، ونوراً لمن استضاء به ، وفهماً لمن عقل ، ولباً لمن تدبر ، وآية لمن توسم ، وتبصرة لمن عزم ، وعبرة لمن اتعظ ، ونجاة لمن صدق ، وثقة لمن توكل ، وراحة لمن فوض ، وجنة لمن صبر .

فهو ابلج المناهج ، وواضح الولايج .

مشرف المنار ، مشرق الجواد ، مضى المصاييح ، كريم المضمار ، رفيع الغاية ، جامع الجلبة ، متنافس السبقة ، شريف الفرسان .

التصديق منهاجه ، والصالحات مناره ، والموت غايته ، والدنيا مضماره ، والقيامة حلبته ، والجنة سبقتة « اهـ

ولا عجب اذن من الاسلام - وهو بهذه المثابة - أن كان : دين السعادة الانسانية فى الدنيا والآخرة ، ذلك : لما انطوت عليه صحائفه البيضاء ، من معانى انسانية راقية ، وما اشتمل عليه من فضائل اجتماعية عامة ، تأخذ بيد اتباعه المخلصين ، الى مرتبة النعيم المقيم ، فى جنات الخلد والفوز العظيم .

(١) رواه بهذا اللفظ والسياق : الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وصدره

فى الصحيحين .

خاصة وأنه : تولى تنظيم الحياة الانسانية جميعها ، أفرادا وجماعات ، وتناول منذ قيادته - بهذا التنظيم - طبيعة العلاقة بين الخلق والخالق ، والعباد ورب العباد .
كما تناول كذلك : طبيعة العلاقة بين .

الانسان والكون والحياة ، وطبيعة العلاقة الانسانية بين الفرد ، وبين الجماعة ، وبين الانسانية في شتى مناحي الحياة .

ودين هذا شأنه ، كما علم بالضرورة خليق بالخضوع لاحكامه ، والاذعان التام لأوامره ، والاستجابة الكاملة لاجتناب كل ما نهى عنه ، حتى تسمو الانسانية بالاستجابة له ، عن بقية الحيوانات ، وتحقق عندها الربوبية الكاملة ، لخالق الأرض والسماوات .

ولا شك أنه لن يتأتى لانسان ما ، مهما عز وارتقى ، وارتفع وساد ، الا الخضوع لأوامر هذا الدين الاسلامي ، والامتثال المطلق ، والتسليم التام ، لما جاء به الرسول النبي الأمي ، الذي بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا . وكان من فضل الله سبحانه ، كما أراد ، فبشر وأنذر ، ونصح وأرشد ، ووجه وبلغ ، واستمر كذلك صلوات الله وسلامه عليه ، الى أن انتشرت الرسالة ، وعم غيرها الخالد ، فسعدت به الأمم ، واستيقظت الهمم ، ورشدت القبائل ، وصحت العقائد ، وبلغت الهداية القلوب ، وآمن به المؤمنون ، وعلموا أن ما جاءهم به حق ، وأن الحق لله سبحانه .

يقول سيدنا على رضي الله عنه ، وكرم الله وجهه :
« أن الله سبحانه ، بعث محمدا صلى الله عليه وآله ، بالحق ، حين دنا من الدنيا الانقطاع ، وأقبل من الآخرة الاطلاع ، وأظلمت بهجتها بعد اشراق ، وقامت بأهلها على ساق ، وخشن منها مهاد ، وأزف منها قياد .

في انقطاع من مدتها ، واقتراب من أشراطها ، وتصرم من أهلها ، وانفصام من حلقتها ، وانتشار من سببها ، وعفاء من أعلامها ، وتكشف من عوراتها ، وقصر من طولها .

جعله الله سبحانه بلاغا لرسالته ، وكرامة لأمته ، وربيعا لأهل زمانه ، ورفعة لأعوانه ، وشرفا لأنصاره .

ثم انزل عليه الكتاب نورا ، لا تطفأ مصابيحہ ، وسراجا لا يخبو
توقده ، وبحرا لا يدرك قعره ، ومنهاجا لا يضل نهجه ، وشعاعا
لا يظلم ضوءه ، وفرقانا لا يخمد برهانه ، وتبياناً لا تهدم أركانه ،
وشفاء لا تخشى أسقامه ، وعزا لا تهزم أنصاره ، وحقا لا تخذل
أعوانه .

فهو معدن الايمان وبحبوخته ، وينابيع العلم وبحوره ، ورياض
العدل وغدرانه ، وأثافي الاسلام وبنياته ، وأودية الحق وغيطانه ،
وبحر لا ينزفه المنتزفون ، وعيون لا ينضبها المانحون ، ومناهل
لا يفيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، واعلام
لا يعنى عنها السائرون ، وآكام لا يجوز عنها القاصدون .

جعل الله ربا لعطش العلماء ، وزبيعا لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطريق
الصلحاء ، ودواء ليس بعده دواء ، ونورا ليس معه ظلمة ، وحبل
وثيقة عروقه ، ومعقلا منيعة ذروقه ، وعزا لمن تولاه ، وسلما لمن
دخله ، وهدي لمن اتهم به ، وعذرا لمن انتحل به ، وبرهانا لمن تكلم به ،
وشاهدا لمن خاصم به ، وقلجا لمن حاج به ، وحاملا لمن حمله ،
ومطية لمن أعمله ، وآية لمن توسم ، وجنة لمن استلام ، وعلمنا لمن
دعى ، وحديثا لمن روى ، وحكما لمن قضى « ا هـ

وبعد : فيقول الله سبحانه :

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه
ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

الفصل الثاني

الاسلام والمجتمع الانساني الاول

يقول الله تعالى :

« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين (١) » .

ويقول سبحانه :

« كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ، ياذن ربهم الى صراط العزيز الحميد ، الله الذي له ما في السموات وما في الارض ، وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ، ويغفونها عوجا ، اولئك في ضلال بعيد .
وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ، ليبين لهم ، فيفضل الله من يشاء ، ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم (٢) » .

آيات كريمة ، من قرآن كريم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تشعر تمام الاشعار ، وتبين لنا بيانا واضحا ، حاجة المجتمع الانساني الاول الى من يأخذ بيده ، وينقذه من الظلام المخيف ، الى النور الساطع الآمن الوادع .

ذلك ان الانسانية قبل مجيء الاسلام ظلت ادھارا طويلة ، تنخبط في دياجير الظلام ، حائرة بين متاهات الشرك ، وعبادة الأوثان .

لا تهتدى الى فكرة شاملة ، عن الخالق الحق ، للكون ، والحياة ، والانسان .

(١) آل عمران آية : ١٦٤ .

(٢) ابراهيم آية : ١ - ٤ .

ذلك : أنها لم تكن قد تهيات بعد ، لادراك مثل هذه الفكرة الكلية الشاملة .

والقرآن الكريم ، يقص علينا في كثير من الآيات ، والسنة النبوية تخبرنا بما روته من أحاديث ، والتاريخ الحافل بسير الأعلام من الصحابة والتابعين ، يحدثنا بما سجله من مواقف مشهودة .

يحدثنا ذلك كله : أن الأمة الإسلامية عانت في بادئ أمرها من العذاب ألوانا عديدة ، وتحملت منذ نشأتها من الآلام الكثير والكثير ؛ أنها قاست من عناد الكفر ، وتمرد الشرك ، وطغيان الظلم ، وانتشار الفسق ، وفساد الجاهلية وكلوح الحادها ، قاست الأمة الإسلامية في بادئ أمرها كل ذلك ، بل إنها عانت كل ما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ويخافون عذابه ، وتقبض منه قلوب المؤمنين من عباد الله سبحانه .

وليت هذا الإيذاء وقف عند حد من الفحش ، لا ... لا ... بل إنه تخطى الرقاب ، وانتهك المحارم ، وتجاوز الحدود ، حتى أخذه الجبن ، وجره الخبث ، الى استعمال كل ما يملك من لؤم ومكر ، ودهاء وفسق .

أخذه الجبن ، وجره الخبث الى استعمال ذلك كله في إيذاء الإنسانية ، وتعدى باجرامه المجرم ، وفسقه الفاسق ، حتى طفئ وبغى ، وأحدث مالا ينبغي .

وما زال هكذا يفعل ... ويفعل ... وهو يواصل سيره ، دون أن يقعد أو يكف عن الظلم ، حتى أعجزه القدر ، وغلبه القضاء ، وحال بين أهله وبين ما يشتهون ، أمر السماء ، وحق بهم الهوان ، ونزل بهم الذل ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، من أهل الكفر والشرك ، والنفاق والضلال .

وقف في وجه الدعوة الإسلامية في بادئ أمرها ، أهل الشرك والكفر ، وقفة الحاقد الناقم ، يبغون هدم هذه الدعوة الجديدة ، أو الحط من مكانة الرسالة الإسلامية ، أو التقليل من شأنها ، ليتحقق لهم ما يريدون .

خاصة : وأنهم وجدوا اتباع هذه الدعوة المحمدية الجديدة ، يزدهر شأنهم ، ويزداد عددهم ، وتقوى عدتهم ، وهم يشاهدون ذلك بأبصارهم ، ويلمسون حقيقته بأيديهم ، ولكنه الظلام المخيف الذي لا نور بعده .

أنهم شاهدوا ذلك فاشتعل أوار الحقد في قلوبهم ، واشتدت نيرانه في أفئدتهم ، فما كان منهم إلا أن سارعوا بالوقوف في وجه الرسالة الإسلامية ، على الرغم من صدق الآيات ، ووضوح الحق الذي لا يتفق وأهواءهم :

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ، ومن فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون (١) » .

أنهم شاهدوا من الآيات الكريمة ما شاهدوا ، ولكن أعرضوا ، ولووا رءوسهم ، واستكبروا واستغنوا وكان عاقبة ذلك ، أنهم فكروا ، وقدروا ، ثم أسفرت النتيجة ، من بنات أفكارهم ، لا بد من الصمود ضد هذه الدعوة ، والوقوف في وجه داعيها الأول ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .



ذلك أن الاسلام حينما بدا ، كان العالم البشرى وقت ذاك مغورا تحت جاهلية عمياء ، تأنها في دياجير الظلام ، حائرا بين تقلب الشرك ، وعبادة الأوثان ، حتى كل ساعده ، واقعدت الرذيلة قوائمه ، وقوضت اضاليل الكفر دعائمه ، وعمت الفوضى معظم البلاد ، وأخذ الظلم يطفو ، الى ان أخذ مأخذه من قلوب الدين استحوذتهم الشياطين ، واستعبدتهم الأهواء ، واستشرى فيهم الفساد ، فضلت أعمالهم ، وتسفلت أخلاقهم ، وخاب سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

على هذه الحال ، استمر العالم البشرى يتقلب من سيىء الى أسوأ ، ويتغير من قبيح لما هو أقبح ، ولم يزل مغلوبا على أمره ، جاثيا في بؤرة الجهل والظلام ، محتضنا بين معترك الجاهلية الحمقاء يصارعها فتصرعه ، ويغالبها فتغلبه ، يطفو بآماله فيمد يده ، فلا يجد بدا تمتمد اليه ، ويرسب أخرى ، حتى تنبسط فوقه صفحة اليأس فتحسبه من الهالكين .

وهكذا ظل العالم البشرى في طياته رهن إشارة الفوضى ، يتخبط ويتشبث ، ويظهر ثم يختفى ، ويتحرك ثم يستكين ، حتى وهن

(١) المؤمنون آية :

عظمه ، واشتعل رأسه شيبا ، وابيضت عيناه ، واستحال أديمه ، ولم يبق بين الناس منه ، إلا رأس يضطرب ، ويد تختلج .

على هذا الحال المخيف الرهيب ، ظلت المعركة قائمة بين الحياة والموت ، والرجاء واليأس ، والطمع والخوف ، والمسالمة البشرية ممزق القوى ، حيران الفكر ، طائش اللب ، ضال السبيل ، معوج الصراط . لا يعرف للحياة وزنا ، ولا للهداية سببا ، ولا للاستقامة طريقا ، ولا للسعادة سبيلا .

ويعصف الامام على رضى الله عنه ، ما كان عليه حال المجتمع وقت ذلك فيقول :

« أرسله (١) على حين فترة من الرسل ، وطول هجمة من الأمم ، واعتزام من الفتن وانتشار من الأمور ، وتلظ من الحروب ، والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور ، على حين اصفرار من ورقها ، واباس من ثمرها ، واغورار من مائها ؛

قد درست منارة الهدى ، وظهرت أعلام الردى ، فهي متجهمة لأهلها ، عابسة في وجه طالبها ، ثمارها الفتنة ، وطعامها الجيفة ، وشعارها الخوف ، ودثارها السيف » اهـ

حاجة المجتمع الى نور جديد :

يقول الله تعالى :

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم .

في خضم تلك الظروف العصيبة التى سبق ان اشرنا اليها ، وفي قلب طيات سجلها المظلم المخيف ، عاش المجتمع الانسانى الاول ، وكان من البدهى ان يكون هذا المجتمع فى حاجة ماسة لن يخرجهم من الظلمات الى النور ، ويهديه الى صراط الله المستقيم .

(١) الضمير هنا يرجع الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وشاءت الأقدار ، وأذنت إرادة الله سبحانه ، استخراج هذا المجتمع من هذا الظلام ، فأذن مؤذن القدر للإسلام أن يظهر ، فتنفس الصعداء ، وظهر الفجر يبرق ضياؤه ، ويملأ الكون شعاعه فانعكست الحيرة ، وسقط نجم سمائها ، وانطوى الظلم طى السجل للكتب ، وبذل الله خوف المجتمع أمنا ، واتصلت بالأرض رحمت السماء ، ومن الله على خلقه ، وألقى في الناس روح البحر ، وبعث فيهم بعثه الإلهي لأمره ، فتلاأت السماء ، بهجة وسرورا ، وأشرقت الأرض ضياء ونورا ، وابتسم الوجود ابتهاجا ، بقدوم من اختاره الله للعالمين رحمة ، فكان بالحق داعيا ، وللخلق مبشرا ونذيرا .

يقول سيدنا على كرم الله وجهه ، معبرا عن وصف ما ألم بالناس من حيرة وفتن ، حتى كشف الله عنهم بمبعث رسول من أنفسهم :

« بعثه (١) والناس ضلال في حيرة ، وخابطون في فتنة ، قد استهوتهم الأهواء ، واستزلهم الكبرياء ، واستخفتهم الجاهلية الجاهلاء ، حيارى في زلزال من الأمر ، وبلاء من الجهل ، فبالغ صلى الله عليه وسلم ، في النصيحة ، ومضى على الطريقة ، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة » ١ هـ



جاء الإسلام ولا سلطان عليه ، إلا الله وحده ، وقام بدعوته السامية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، تنفيذا لقول الله سبحانه :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين (٢) » .

والإسلام في نشأته هذه ، قام في مجتمع لم يتكامل بعد ، كما أرادت سنة الله تعالى ؛ فما كان عليه إلا أن يتولى تنظيم هذا المجتمع ، ويأخذ بيده إلى التنمية والتقدم والارتقاء ، ويضع له القوانين ، ويرسم له السبل ، ويرفع عن أتباعه ما ضرب عليهم من

(١) الضمير في « بعثه » يعود على الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) المائدة آية : ٦٧

أسوار الظلم ، وحصار الجاهلية ، ويرد عنهم بأس الذين ظلموا ،
ويضع عنهم أصرهم ، والأغلال التي كانت عليهم .

ويتولى كذلك : سلوكه ، كما يتولى عمله ، ويجمع فيه بين
الدين والدنيا في توجيهاته وتشريعاته ، ليوحد بين عالم الأرض
وعالم السماء ، في مجتمع واحد ، يعيش فيه الفرد ، كما تعيش
فيه الجماعة .

من أجل هذه المبادئ الفاضلة ، جاء الإسلام يعرض فكرة
جديدة كاملة لا أعوجاج فيها ، ولا انحراف بها ، ولا اضطراب معها ،
ولا تعارض فيما بينها ولا تضاد .

انه جاء ليجمع بين القوى والطاقات ، ويمزج النزعات والميول
والرغبات ، حتى يحقق اتجاهاتها كلها ، ويعترف بها وحدة متكاملة
في الكون ، والنفس ، والحياة .

انه جاء ليحقق الجمع في النظام الكوني ، بين الأرض والسماء .
انه جاء ليحقق الجمع في النظام الديني بين الدنيا والآخرة .
انه جاء ليحقق الجمع في النظام الانساني بين الروح والجسد .
انه جاء ليحقق الجمع في نظام الحياة بين العبادة والعمل .

انه جاء ليحقق كل ذلك ، ويسلكه بأجمعه في طريق واحد .
انه الطريق الالهى الخالص لله وحده :

« وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق
بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (١) »

جاء الإسلام وكان لا بد وان يحقق هذا ، ولكن شاء الله سبحانه ،
أن يكون للحق أعوان ، وللباطل أخوان ؛ لهذا قوبلت دعوة الإسلام
الجديدة ، منذ بدايتها - كما سبق أن ذكرنا - بإيذاء الداعي

(١) الأنعام آية : ١٥٣ .

الأول ، والمعارضة الشديدة ، ضد هذا الرسول المجرم المنذر ، صلى الله عليه وسلم .

وصدقت مشيئة الله ، وأبى الله إلا أن يتم نوره ، ويؤيد رسوله ، وينشر الحق الواضح ، الذي كل ما عداه باطل ، و « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » . فارتفع صوت الحق مدويا ، وانتشرت الأنوار منه تشع في أرجاء المعمورة ، وأحق الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكتب الله العزة له ولرسوله وللمؤمنين .

« والله العزة ورسوله وللمؤمنين (١) »

وجاء الحق وزهق الباطل ، وسبقت كلمة العذاب ، وحقت الغلبة ، وحاق الذل ، ونزل الهوان ، بأعداء الله ورسوله ، وأعداء الإسلام والمسلمين ، من كفار ، ويهود ، ومشركين ، ومناققين .

حقت الغلبة على هؤلاء ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، على الرغم مما كانوا عليه من كثرة في العدد ، وقوة في العدة ، ولكن لم تغن عنهم كثرتهم شيئا ، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت ، ثم ولوا مدبرين .

واستطاع صلوات الله عليه وسلامه ، بتأييد الله له ، وبصدقه الصادق في تبليغ دعوته ، أن يطوى سدفة ظلام الشرك ، وضلال الفكر ، ويقضى على فتن طال مداها ، وعم خطرها ، كما استطاع صلى الله عليه وسلم ، أن يبدد عقائد الشرك ، ويقضى على وسائل الفساد والفسق ، ويطهر القلوب من أوهام الجاهلية ، ويثبت دعائم الأخلاق التي بعث ليعمها .

« انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

وأخذ صلى الله عليه وسلم ، يكافح ويناضل ، في سبيل الدعوة ، وهو يواصل سيره الطويل ، يدلى بالحجة تارة ، ويلين للموعظة أخرى .

(١) المنافقون آية : ٨ .

وَيَصُورُ الْإِمَامُ ابْنَ كَثِيرٍ جِهَادَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَبِيلِ دَعْوَتِهِ فَيَقُولُ :

« اسْتَمِرَّ - صَلَّاتِ اللَّهَ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ - يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَجَهْرًا لَا يَصْرِفُهُ عَنْ ذَلِكَ صَارْفٌ ، وَلَا يَرُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ رَادٌّ ، وَلَا يَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ صَادٌّ .

يَتَّبِعُ النَّاسُ فِي أَنْدِيَتِهِمْ وَمَجَامِعِهِمْ وَمَحَافِلِهِمْ ، وَفِي الْمَوَاسِمِ وَمَوَاقِفِ الْحَجِّ ، يَدْعُو مِنْ لَقْبِهِ ، مَنْ حَرُوعِبْدٌ ، وَضَعِيفٌ وَقَوِيٌّ ، وَغَنِيٌّ وَفَقِيرٌ ، جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي ذَلِكَ عِنْدَهُ شَرَعٌ سَوَاءٌ » اهـ

وَحَقًّا أَنَّهُ اسْتَمَرَ صَلَّاتِ اللَّهَ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ ، هَكَذَا فِي تَبْلِيغِ دَعْوَتِهِ ، وَنَشْرِ رِسَالَتِهِ ، حَتَّى ذَهَبَ الظُّلَمُ أَدْرَاجَ الرِّيحِ ، بَلَا رَجْعَةً ، وَوَلَّتْ عَادَاتُ الْجَاهِلِيَّةِ ذَاهِبَةً ، وَبَادَتْ خِصَالُ الشَّرْكِ وَالْكَفْرِ خَاسِئَةً مُتَحَسِرَةً .

وَأَتَتْ الْأَفْوَاجُ مِنَ النَّاسِ سَرَاعًا لِلدِّينِ اللَّهَ الْجَدِيدِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ ، وَدُنَّتِ الْعِشَائِرُ وَالْقَبَائِلُ خَاضِعَةً إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ صَقْعٍ ، فَاتَسَعَّتْ مَجَالَاتُ الدَّعْوَةِ ، وَارْتَفَعَتْ مَعْمَعَةُ الْحَقِّ تَجُوبُ دُرُوبَ الْبُلْدَانِ ، وَاعْتَنَقَ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ مِنَ الْعَالَمِ الْبَشَرِيِّ الْكَثِيرِ ، وَأَيَقَنُوا بِصَدَقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ هَذَا الدِّينَ مِنْ هُدًى ، وَثَبَاتٍ وَيَقِينٍ .

وَحْدَةُ الْعَقِيدَةِ :

جَاءَ الْإِسْلَامُ أَوَّلَ مَا جَاءَ وَفِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ ، لَا بَدَّ وَأَنْ يَنْشُرَ الْفُضِيلَةَ ، وَيَحَقِّقَ السَّعَادَةَ لِلنَّاسَانِيَّةِ ، فَرَأَى مِنْ لَازِمِ ذَلِكَ ، أَنْ يَحْرُرَ الْعَقَائِدَ إِلَى اتِّخَاذِ عَقِيدَةٍ وَاحِدَةٍ .

يَحْرُرُ الْعَقَائِدَ مِنْ كُلِّ مَا يَشُوبُ أَصْحَابَهَا مِنْ شَرِكٍ وَكَفَرٍ ، وَيَحْرُرُهَا مِنْ كُلِّ مَا يَخَالِفُهَا مِنَ الْحَادِّ وَنِفَاقٍ ، بَلْ أَنَّهُ جَاءَ لِيَحْرُرَهَا مِنْ كُلِّ عِبَادَةٍ غَيْرِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ .

ذَلِكَ أَنَّهُ وَجَدَ : أَنْ كُلَّ مَا عَلَيْهِ أَنْ يَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ بَطْلَانَ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَصَدَقَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ، فَأَخَذَ يُرْشِدُهُمْ وَيُحَثِّمُهُمْ ، وَيُوجِّهُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ الْكَامِلِ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ ، الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، وَلَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ ، لَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ ، وَلَا يَتَبَدَّلُ بِالْأَحْوَالِ .

وما اصدق قول الامام على رضى الله عنه ، فى اثبات العقيدة لله وحده ، واعلام الناس ، بأن البقاء له وحده ، والفناء لكل ما عداه . يقول رضى الله عنه :

« الذى لا يحول ولا يزول ، ولا يجوز عليه الافول ، ولم يلد فيكون مولودا ، ولم يولد فيصير محدودا ؛ جل عن اتخاذ الأبناء ، وطهر عن ملامسة النساء ، لا تناله الأوهام فتقدره ، ولا تتوهمه الفطن فتصوره ، ولا تدركه الحواس فتحسه ، ولا تلمسه الأيدى فتمسه .

لا يتغير بحال ، ولا يتبدل بالأحوال ، ولا تبليه الليالى والايام ، ولا يغيره الضياء والظلام ، ولا يوصف بشيء من الأجزاء ، ولا بالجوارح والأعضاء ، ولا بعرض من الأعراض ، ولا بالغيرية والأبعاض ، ولا يقال له حد ، ولا نهاية ، ولا انقطاع ولا غاية ، ولا أن الأشياء تحويه فتقله أو تهويه ؛ أو أن شيئا يحمله فيميله أو يعدله .

ليس فى الأشياء بواجب ، ولا عنها بخارج ، يخبر لا بلسان ولهوات ، ويسمع لا بخروق وادوات .

يقول ولا يلفظ ، ويحفظ ولا يتحفظ ، ويريد ولا يضر ؟ يحب ويرضى ، عن غير رقة ، ويبغض ويغضب من غير مشقة ؛ يقول لمن أراد كونه : « كن فيكون » .

لا بصوت يقرع ، ولا بنداء يسمع ، وانما كلامه - سبحانه - فعل منه ، انشاء ومثله لم يكن من قبل كائنا ، ولو كان قديما ، لكان الها ثانيا .» ١ هـ

على نفس ما جاء فى هذا النص الذى تحدث فيه الامام عن توحيد الله تعالى ، وتنزهه سبحانه ، واثبات البقاء له وحده ، كانت دعوة الاسلام الصارخة ، وصيحته المدوية ، الى تخليص الناس من عقائد الشرك والكفر ، والاعلان الواضح فيهم ، أنه ليس هناك اله غيره ، وما من سلطان فى الملك والملكوت غير سلطانه ، وما من أحد يملك من الضر والنفع شيئا ، أو يميت أو يحيى ، أو يعطى أو يمنع الا الله وحده سبحانه .

« ان كل من في السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا (١) »

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير ، انك على كل شيء قدير .

تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحي من الميت ، وتخرج الميت من الحي ، وترزق من تشاء بغير حساب (٢) »

ويقول سبحانه :

« الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك في الملك ، وخلق كل شيء ففكره تقديرا .

واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا » (٣) .

و « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذي خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من قطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » (٤) .

السموات والأرض ، ومن فيهن ، وما فيهن ، ملك ذلك كله ، خلقا وايجادا ، بقاء (٥) وفناء ، استمرارا وزوالا ، منعا وعطاء ، نفعا وضرا . . . ملك ذلك كله : الله الواحد الأحد ، الذي تنزه عن الشرك والشريك ، والشبيه والنظير ؛

بل ان الكون كله ، وما فيه من ارض وسماء ، وما بين الأرض والسماء . . . الخ ، له تعالى وحده .

(١) مريم آية : ٩٣ .

(٢) آل عمران آية : ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) الفرقان آية : ٢ ، ٣ .

(٤) الملك آية : ١ - ٤ .

(٥) ليس المقصود هنا بالبقاء : الدوام الأبدى ، وانما هو الاستمرار حتى

يأتى امر الله سبحانه .

« قل لمن مافى السموات والأرض ؟

قل : لله ، كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنكم الى يوم القيامة
لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون •

وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم •

قل : اغير الله اتخذ وليا ؟ فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم
ولا يطعم ، قل : انى امرت ان اكون اول من أسلم ، ولا تكونن من
المشركين • قل : انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، من
يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين ، وان يمسسك
الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يمسسك بخير ، فهو على كل
شئ قدير ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ، قل
اى شئ اكبر شهادة ؟ قل الله ، شهيد بينى وبينكم ، وأوحى الى
هذا القرآن لأنذركم به ، ومن بلغ ، أنكم لتشهدون ان مع الله ءالهة
أخرى ؟ قل : لا أشهد ؛ قل : انما هو اله واحد ، واننى برىء مما
تشركون » (١) •

آيات بينات من كتاب مبين ، أثبتت يقينا ، ان الله سبحانه له
ما فى السموات والأرض ، وأنه هو الذى يمسك السماء ان تقع على
الأرض الا باذنه ، وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وأنهارا ،
ومن كل الثمرات ، وهو الذى أرسل الرياح فتثير سحابا سقناه
لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، وهو الذى
قسم الأرزاق ، وحدد الآجال ، وهو الذى يكور الليل على النهار
ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر ، وهو الذى خلق
الخلق وجعل كل ما سواه عبدا ، ليس لهم الخيرة من أمرهم ، ولا
فى أمر غيرهم :

« وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحان الله
وتعالى عما يشركون ، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ،
وهو الله لا اله الا هو ، له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم
واليه ترجعون » (٢) •

(١) الانعام آية : ١٢ - ٦٩ •

(٢) القصص آية : ٦٨ - ٧٠ •

على ضوء هذا التوحيد الخالص ، وعلى نفس هذه العقيدة المنزهة ، جاء القرآن هاديا الى عقيدة واحدة ، بل وجاء الاسلام كذلك محررا العقيدة معلنا في الناس ايضا أن مرد ذلك لله وحده ؛ مرد ذلك لله الخالق لكل شيء ، والمظهر لكل شيء ، والواحد الأحد الذي ليس معه شيء .

يقول سيدنا على كرم الله وجهه ، في موعظة له :
 « ... فالله الله أيها الناس فيما استحفظكم من كتابه ، واستودعكم من حقوقه ، فانه سبحانه لم يخلقكم عبثا ، ولم يترككم سدى ، ولم يدعكم في جهالة ولا عمى ؛

قد سمي آثاركم (١) ، وعلم أعمالكم ، وكتب آجالكم ، وأنزل عليكم الكتاب تبيانا لكل شيء ، وعمر فيكم نبيه أزمانا ، حتى أكمل له ولكم - فيما أنزل من كتابه - دينه الذي رضى لنفسه ، وأنهى اليكم على لسانه محابه من الأعمال ، ومكارهه ، ونواهيه وأوامره ، وألقى اليكم المذرة ، واتخذ عليكم الحجة ، وقدم اليكم بالوعيد ، وأنذرکم بين يدي عذاب شديد .

فاستدركوا بقية أيامكم ، واصبروا لها انفسكم ، فانها قليل في كثير الأيام التي منكم فيها الغفلة والتشاغل عن الموعظة ، ولا ترخصوا لانفسكم فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة ، ولا تدهنوا فيهجم بكم الادهان على المعصية » اهـ

وصدق رضى الله عنه ، لأن الله هو الله في كل شيء ، وهو الواحد الأحد الذي ليس معه شيء ، وهو الفرد الذي لا شريك يعاونه ، ولا شبيه يماثله ، ولا ضد يعانده . وصدق الله العظيم اذ يقول :

« اننى انا الله لا اله الا انا فاعبدنى ، واقم الصلاة لذكرى » (٢) .

ويقول سبحانه :

« فاعلم انه لا اله الا الله ، واستغفر للنبيك وللمؤمنين والمؤمنات ، والله يعلم متقلبكم ومثوايكم » (٣) .

(١) بين أعمالكم وحددما لكم .

(٢) طه آية : ١٤ .

(٣) محمد آية : ١٩ .

والقرآن الكريم غاص بمثل هذه الآيات ، ولهذا تناول الرد في
أتم اقناع ، وأبلغ حجة ، على الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى ؛
وأثبت لهم أن الله هو الإله الواحد في السموات وفي الأرض ، يعلم
سرهم وجهرهم ويعلم ما يكسبون .

وحده لا شريك له :

يقول الله تعالى :

« وهو الذي في السماء إله ، وفي الأرض إله ، وهو الحكيم
العليم ، وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده
علم الساعة واليه ترجعون ، ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة
إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » (١) .

آيات كريمة ، من قرآن عظيم ، دلت حقيقة أن الله واحد لا شريك
له في ملكه وملكوته ، في السماء ، وفي الأرض ، بل إنه إله واحد حكيم
عليم ، له ملك السموات والأرض ، وعلم ما بينهما ، إليه المرجع
والمصير ، لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد
بالحق وهم يعلمون .

ثم أقام الإسلام الدليل ، وأثبت الحجة ، على أنه واحد ، دون
أن يكون معه آلهة أخرى ، في السموات والأرض ، ومن فيهن ، فقال
سبحانه :

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش
عما يصفون » (٢) .

ويقول تعالى :

« ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله
بما خلق ، ولعل بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ، عالم
الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » (٣) .

(١) الزخرف آية : ٨٤ - ٨٦ .

(٢) الأنبياء آية : ٢٢ .

(٣) المؤمنون آية : ٩١ ، ٩٢ .

ثم برهن القرآن برهنة واضحة ، واستفاض استفادة تامة ،
في أن تصرف الكون كله بما فيه ومن فيه ، لله وحده سبحانه ، فقال
تعالى :

« قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟

سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون .

قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟

سيقولون لله قل أفلا تتقون .

قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم
تعلمون ؟

سيقولون لله ، قل فأنى تسخرون » (١) .

ثم وجه القرآن الكريم الخلق ، وحثهم بالآيات حتى يفيتوا الى
رشدهم ، ويستشعروا بقلوبهم ، أن سابغ النعم التي لا تحصى ،
والمفضل بعظيم احسانه الذي لا ينسى ، هو الله وحده ، المستوجب
للحمد ، المستحق للثناء والشكر ، فقال سبحانه :

« قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير
أما يشركون ؟

أمن خلق السموات والأرض وانزل لكم من السماء ماء ، فانبتنا
به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم ان تنبتوا شجرها ، أأله مع الله ،
بل هم قوم يعدلون .

أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها
رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أأله مع الله ؟ بل أكثرهم
لا يعلمون .

أمن يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء
الأرض ، أأله مع الله قليلا ما تذكرون .

أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا
بين يدي رحمته ، أأله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون .

(١) المؤمنون آية : ٨٤ - ٨٦ .

من يبدو الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟
أءله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (١) .

وأسند القرآن الكريم ، ادخال ظلمة الليل في ضوء النهار ؟
والإلاج كل منهما في الآخر ، وجعل كل منهما سرمداً ، الى يوم
القيامة . أسند القرآن الكريم ذلك كله الى الله وحده فقال :

« قل أرايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة ،
من اله غير الله ياتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟

قل أرايتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة ،
من اله غير الله ياتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون ؟

ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا
من فضله ، ولعلكم تشكرون » (٢) .

ويقول تعالى :

« خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ،
ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لأجل
مسمى ، ألا هو العزيز الغفار » (٣) .

ويعبر سيدنا علي رضي الله عنه عن نسبة هذا الكون كله وما
فيه لله وحده فيقول :

« خلق الخلائق على غير مثال خلا من غيره ، ولم يستعن على
خلقها بأحد من خلقه ، وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال ،
وأرسلها على غير قرار ، وأقامها بغير قوائم ، ورفعها بغير دعائم ،
وحصنها من الأود والأعوجاج ، ومنعها من التهاافت والانفراج .

أرسي أوتادها ، وضرب أسدادها ، واستفاض عيونها ، وخذ
أوديتها ، فلم يهن ما بناه ، ولا ضعف ما قواه .

هو الظاهر عليها بسلطانه وعظمتيه ، وهو الباطن لها بعلمه
ومعرفته ، والعالى على كل شيء منها بجلاله وعزته .

(١) النمل آية : ٥٩ - ٦٤ .

(٢) القصص آية : ٧١ - ٧٣ .

(٣) الزمر آية : ٥ .

لا يعجزه شيء منها طلبه ، ولا يمتنع عليه فيغلبه ، ولا يفوته السريع منها فيسبقه ، ولا يحتاج الى ذى مال فيرزقه .

خضعت الأشياء له ، وذلت مستكينة لعظمته ، لا تستطيع الهرب من سلطانه الى غيره ، فتمتنع من نفعه وضره ، ولا كفاء له فيكافيه ، ولا نظير له فيساويه .

هو المعنى لها بعد وجودها ، حتى يصير موجودها كمفقودها « اهـ

بهذه التوضيحات الواضحة التى جاء القرآن الكريم بها ، والتى دلت على آثار رحمة الله تعالى على خلقه ، وبهذه العظات البالغة التى شرحها لنا الامام على رضى الله عنه ، ثبت يقينا : أن تصرف الكون كله ، وما فيه من أرض وسماء ، وبحار ، ووديان ، وليل ونهار ، و . . . أمر ذلك كله خاص بالله وحده ، ومرده اليه سبحانه .

لهذا كان من ضرورة الايمان الضرورية بالله تعالى ، الرجوع اليه فى كل شيء ، والاذعان له وحده والتسليم المطلق لارادته ، والطاعة المحضة ، والافتداء الحسن برسوله صلى الله عليه وسلم .

* * *

وجه الاسلام الناس ، وأرشد القرآن الخلق الى اتخاذ عقيدة واحدة ، وحذرهم بالتالى كذلك أيضا ، عن تشبيه الله بخلقه ، وأن من شبه الله بتباين أعضاء خلقه ، وتلاحم حفاف مفاصلهم المحتجة ، لتدبير حكمته ، وعظيم قدرته ، لم يعقد غيب ضميره على معرفة الله سبحانه ، ولم يباشر قلبه اليقين ، بأنه لاند ، ولا ضد ، ولا شريك له ، ولا مثيل ؛

وكانه لم يسمع تبرؤ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، وراوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، ولم يسمع كذلك : تبرؤ التابعين من المتبوعين ، اذ يقولون :

« تالله ان كنا لفي ضلال مبين ، اذ نسويكم برب العالمين » .

هذه العقيدة الاسلامية : التى أرشد القرآن الكريم الناس اليها ، وأمرهم باعتناقها ، هى عقيدة التوحيد الخالصة لله سبحانه ، انها عقيدة التجرد عن كل أنواع العبادة الى عبادة اله واحد ، انها العقيدة التى أنقذت الكثير من مناهات الجاهلية الضالة ،

وخلصت الأكثر من العادات السيئة التى استحوزت على القلوب ، واستهوت لفيها من أفراد المجتمع الانسانى الاول .

انها العقيدة الاسلامية التى غزت الجاهلية فى عقر دارها ، واخذت سيرها الى التقدم الارتقائى ، حتى أظهرها الله على كل ما عداها ، على يدى رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم .

انها العقيدة الاسلامية التى اختارها الله لخلقها ، وأحبها لنفسه ، واختتم بها كل ما سبق من الأديان السماوية قبلها .

لهذا ، فانه لا يتأتى لمسلم ، ولا ينبغى لعاقل ، أن ينتظر اتصالا جديدا من السماء بالأرض ، بعد أن اختتم الله الأديان بهذه العقيدة ، ولا ينتظر نبيا آخر بعد رسولها صلى الله عليه وسلم ، يخرج الناس من الظلمات الى النور ، ولا كتابا جديدا يهدى الإنسانية الحائرة الى سبيل الرشd والسعادة ؛

ولكن ينبغى لكل مسلم أن يعلم يقينا ، أن الله جلّت قدرته ، تركنا فينا كتابا لن يضل من بعده من اتبعه ، وشريعة لن يشقى من عمل بها لميعاده .

هذا الكتاب : انه المصدر الاول والمنهل العذب الذى تنهل منه هذه العقيدة الاسلامية ، وتستمد منه أول ما تستمد .

وما هذه الشريعة الا شريعة الاسلام السمحة الميسورة .

وما هذا الكتاب الذى لن يضل من بعده من اتبعه ، الا القرآن الذى يقول عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، فيما أسند عن الحارث ، وأخرج الترمذى ، وروى عن على رضى الله عنه :

« ستكون فتنة ، قيل : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال :

كتاب الله ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر من بعدكم ؛

هو الفصل ليس بالهزل ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم .

من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ؛

هو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تشيع منه العلماء ، ولا تلبس به اللسن ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ؛

هو الذى لم تنته الجن اذ سمعته عن أن قالوا :

« انا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى الى الرشـد فأمنّا به » .

من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به اجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم « اهـ .

ويقول ابن عوف ، فيما رواه البخارى رضى الله عنهما :

« ثلاث احبهن لنفسى واخوانى :

هذه السنة ان يتعلموها ، ويسألوا عنها ، والقرآن ان يتفهموه ،

ويسألوا عنه ، ويدعوا الناس الا من خير (١) » .

ويقول الامام على رضى الله عنه ا

« اعلموا ان هذا القرآن هو الناصح الذى لايفش ، والهادى

الذى لا يضل ، والمحدث الذى لا يكذب ، وما جالس هذا القرآن

أحد الا قام عنه ، بزيادة أو نقصان ؛

زيادة فى هدى ، ونقصان من عمى .

واعلموا أنه ليس على احد بعد القرآن من فاقة ، ولا لاحد قبل

القرآن من غنى ؛ فاستشفوه من ادوائكم ، واستعينوا به على

لاوائكم ، فان فيه شفاء من اكبر الداء : وهو الكفر والنفاق والفسى

والضلال ؛

فاسألوا الله به ، وتوجهوا اليه بحبه ، ولا تسألوا به خلقه .

انه ما توجه العباد الى الله بمثله ، واعلموا انه شافع ومشفع ،

وقائل ومصدق ، وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة ، شفع فيه ،

فانه ينادى مناد يوم القيامة :

« ألا ان كل حارث مبتلى فى حرثه ، وعاقبة عمله ، غير حرثة

القرآن » ..

(١) رواه الامام البخارى رضى الله عنه .

فكونوا من حرثه واتباعه ، واستدلوه على ربكم ، واستنصحوه على انفسكم ، واتهموا عليه آراءكم ، واستغشوا فيه أهواءكم » اهـ

وعن مرة الهمداني يقول : قال عبد الله :

« ان احسن الحديث كتاب الله ، واحسن الهدى ، هو هدى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وان ما توعدون لآت ، وما انتم بمعجزين » (١)

وبعد ، فيقول الله تعالى :

« وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدي الى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، الا الى الله تصير الأمور » (٢) .

(١) رواه الامام البخارى رضى الله عنه .

(٢) الشورى آية : ٥٢ ، ٥٣ .

الفصل الثالث

دور الاسلام المثالي في تحرير الشعوب

نشأ الاسلام في بلاد مستقلة ، لا سلطان لملك عليها ، فلم يكن مضطرا أن يضيق دائرة عمله ، خشية سلطان عليه ؛ فهو سيد نفسه ، وميدان عمله هو الحياة البشرية كلها .

ولعل هذا كان من أبرز الدواعي - بعد ما اتسم به من حق وصدق - وأهم الأسباب التي جعلت الطريق أمام الاسلام معبدا ، وسبيله سهلا ميسرا ؛

وكان ذلك أيضا : هو السر الساري في نجاح دعوة الاسلام ، وازدياد عدد المسلمين ، وارتقاء دعوتهم الى ما حققته من آمال ، وما وصلت اليه من أهداف .

فلا يحق لباحث أن يرتاب ، ولا يصح لصاحب بصيرة نفاذة ، أن يشك في أن فكرة المجتمع الذي نشأ فيه الاسلام ، وقت مجيئه ، كانت منفصلة انفصالا كاملا ، عن الديانات الصحيحة السالفة ، كما هو واضح تماما في نظمه التي كانت فوضى عارمة لا سراة لها ، ولا قوانين تضبطها ، حتى ابتعد المجتمع ابتعادا كلياً عن العقيدة الصحيحة ، التي جاءت بها الرسل من قبل .

ورضى الله عن الامام على ، اذ يحدثنا عن فكرة المجتمع الذي نشأ فيه الاسلام ، وعن فكرة انفصاله عن الديانات الصحيحة السابقة فيقول :

« نسلت القرون (١) ، ومضت الدهور ، وسلفت الآباء ، وخلفت الأبناء ، الى أن بعث الله سبحانه محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لانجاز عدته (٢) ، وتمام نبوته ، مأخوذاً على النبيين ميثاقه ، مشهورة سماته (٣) كريما ميلاده ، وأهل الأرض يومئذ ملأ

(١) مضت متتابعة .

(٢) أن الله تعالى ، حقق ما وعد ، وكان وعده حقا .

(٣) يعني علاماته التي ذكرت في كتب الأنبياء من قبل .

متفرقة ، وأهواء منتشرة ، وطوائف متشتتة ، بين مشبه الله
بتخلقه ، أو ملحد في اسمه ، أو مشير الى غيره ، فهداهم به من
الضلالة ، وأنقذهم بمكانه من الجهالة » اهـ

كانت حال المجتمع وقت نشأة الاسلام هكذا ، وشاءت ارادة
الله سبحانه ، الا يترك خلقه هملا بغير طريق واضح ، ولا علم قائم
مستقيم ، فأكرمهم سبحانه وتعالى بفضله ، وأنزل فيهم كتابا
مبيناً لهم حلاله وحرامه ، وعبره وأمثاله ، مفسراً مجمله ، ومبيناً
غوامضه ، فكان لهذا الكتاب الفضل الأسبق في تحرير شعوب
المجتمع من ربة العبودية ، وفك أغلال الاستعباد من أعناق أتباعه ،
الذين استولت عليهم الجاهلية بمبادئها الضالة ، وشقتهم بحيرتها
المحيرة .

وكان الفضل أيضاً : في تحرير المجتمع وإنقاذه من حيرته ،
وتبصيره بسبيل الهداية والرشاد ، كان الفضل في ذلك كله ،
للرسول الأكرم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي اختاره
الله لوجيه ، واختتم به جميع من سبقه من الأنبياء والرسل .

ولا ريب : أن ما تقرره اليوم عن الاسلام في بادئ امره ، ليس
بدعاً نختلقه ، أو تأويلاً جديداً ، تؤيد به حقيقة ما ذكرناه عن
الاسلام ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وإنما ذلك : حق صادق ،
ودليل قاطع يقرر بجلاء حقيقة الاسلام المباركة ، على ضوء ما جاء
به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفهمه أصحابه الاتقياء من بعده ،
حتى ضحوا بالغالى والنفيس من أجله ، رضوان الله عليهم .
يقول سيدنا على رضى الله عنه :

« لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نقتل آبائنا ،
وأبنائنا ، وأخواننا ، وأعمامنا ، ما يزيدنا ذلك الا إيماناً وتسلماً ،
ومضياً على اللقم ، وصبراً على مضض الألم ، وجداً في جهاد
العدو .

ولقد كان الرجل منا ، والآخر من عدونا ، يتصاولان تصاول
الفحلين ، ويتخالسان أنفسهما (١) أيهما يسقى صاحبه كأس
المنون ، فمرة لنا من عدونا ، ومرة لعدونا منا .

(١) يعنى أن كل واحد يريد أن يختلس روح الآخر .

فلما رأى الله صدقنا ، أنزل بعدونا الكتب (١) ، وأنزل علينا النصر ، حتى استقر الاسلام ملقيا جرائه (٢) ، ومتبونا أوطانه .

ولعمري لو كنا نأتى ما أتيتم ، ما قام للدين عمود ، ولا أخضر للإيمان عود ، وأيم الله ، لتحلبنها دما ، ولتبعنهما ندما « اهـ

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه :

انه لما يزيد من فهم الصحابة لهذا الدين وضوحا ، ما قاموا به من التضحية والثبات ، وراء دعوة الحق الذى كل ما عداه باطل ، وراء دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، الى نشر دين جديد ، والدود عن هذه الدعوة الخالصة لله ، والدفاع المستميت ضد كل معتد آثم .

لقد وهبوا أنفسهم للقتال فى سبيل الله ، وباعوا ارواحهم بثمن هو الجنة ، وضحوا باموالهم وابنائهم ابتغاء كلمة الحق ، وارتفاعها عالية خفاقة ، حتى ساد الدين الاسلامى ، وعز وانتصر ، وكتب الله له العزة ولسوله ، وللمؤمنين .

واننا لنذكر - تشريفا بسيرة هؤلاء - من النماذج الحية الرائعة ، ما تنكشف به الحجب ، وتزول الاقنعة ، ويظهر لنا واضحا طابع ايمان الذين وجلت قلوبهم ، فباعوا انفسهم وارواحهم فى سبيل الله ، دون أن تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله سبحانه :

من هذه النماذج نذكر - كما روت كتب السيرة - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استشار أصحابه يوما فى شأن القتال ضد المشركين والكفار ، اختبارا لقوة ايمانهم ، وصدق اخلاصهم ، وثبات يقينهم ، وتبينانا لحبهم لله ولسوله صلى الله عليه وسلم .

فقام سيدنا ابو بكر الصديق ، فقال : واحسن ، وقام سيدنا عمر ، فقال : واحسن ، ثم قام المقداد بن الأسود فقال :

« يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنوا اسرائيل لموسى :

(١) معنى الدال والخلدان والانكسار .

(٢) معنى التمكن والثبات .

« اذهب أنت وربك فقاتلا ، أنا هنا قاعدون ؛
ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، أنا معكما مقاتلون » .
وفي رواية أخرى للامام البخارى رضى الله عنه :

ولكن نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، وبين يديك ، وخلفك ؛
فوالذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا الى « برك الغماد » لجاءنا
معك من دونه حتى تبلغه » .

فقال له رسول الله خيرا ، ودعا له ، ثم قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم :

« اشيروا على ايها الناس » .

فقام سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فقال :

« والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم :

« أجل » . فقال سعد :

لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ؛
وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ؛
فامض لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضت
بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره
أن تلقى بنا عدونا غدا .

انا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك ما تقر به
عينك ، فسر على بركة الله » .

ففرح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وظهر السرور على
وجهه ، وأعلن في القوم بشائر النصر قائلا لهم :

« سيروا وأبشروا ، فان الله قد وعدنى بها احدى الطائفتين :

والله لكأنى الآن انظر الى مصارع القوم » .

هكذا كان موقف الصحابة .

انه لموقف البطولة الرائعة ، والايمان الصادق ، والاخلاص
المخلص ، والدفاع والذود ، بالأموال والأرواح ، عن هذا الدين
الحنيف ، والوقوف بجوار أشجع رسول ، وأكرم نبي صلى الله
عليه وسلم .

انه لموقف الايمان القوى ، الذى لاتهمه الطعنة ، بل تزيده قوة .
انه لموقف الصحابة الاجلاء الذين استفاضت في الثناء عليهم
الاحاديث الشريفة .

ولبيان فضل الصحابة ، واقدامهم للدفاع عن هذا الدين ،
نسرده من الاحاديث ما يوضح ذلك .

روى انه لما عزم ابو بكر على تسيير جيش اسامة ، دخل عليه
عمر ، وعثمان ، وابو عبيدة ، وسعد بن ابي وقاص ، وسعد بن
زيد ، رضى الله عنهم ، فقالوا :

يا خليفة رسول الله ، ان العرب قد انتفضت عليك ، من كل
جانب ، وانك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئا ، اجعلهم
عدة لاهل الردة ، ترمى بهم في نحورهم ، وأخرى لا تأمن المدينة أن
يفار عليها ، وفيها الذراري والنساء ، ولو تأخرت لغزو الروم حتى
يضرب الاسلام بجيرانه ، ويعود اهل الردة الى ما خرجوا منه ،
أو يفتنيهم السيف ، ثم تبعث أسامة حينئذ ، فنحن لا تأمن الروم
أن تزحف إلينا .

فلما استوعب أبو بكر كلامهم قال :

هل منكم أحد يريد أن يقول شيئا ؟

قالوا : لا ؛ لقد سمعت مقاتلتنا . فقال :

« والذي نفسى بيده ، لو ظننت أن السباع تأكلنى بالمدينة ،
لأنفذت هذا البعث ، ولا بد أن يرجع منه ، كيف ورسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ينزل عليه الوحي من السماء يقول :

« أنفذوا جيش أسامة (١) ؟ » .

وعن عمر رضى الله عنه قال :

لما اجتمع المهاجرون وأنا فيهم حين ارتدت العرب ، قتلنا ؛
يا خليفة رسول الله (٢) ، اترك الناس يصلون ، ولا يؤدون الزكاة ،
فانهم لو قد دخل الايمان في قلوبهم لأقروا بها .

فقال أبو بكر ، رضى الله عنه :

(١) انظر كتاب « الجهاد فى الاسلام » لجامعة الأزهر »

(٢) وهو : أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

« والذي نفسى بيده ، لأن أقع من السماء ، أحب الى من أن أترك شيئا ، قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن أقاتل عليه » فقاتل العرب حتى رجعوا الى الاسلام .

فقال عمر :

« والذي نفسى بيده ، لذلك اليوم خير من آل عمر » (١) .

أما شجاعة سيدنا عمر رضى الله عنه ، التى من أجلها سمي الفاروق ، والتى من أجلها فرق الله به بين الحق والباطل ، فإن الحديث التالى يحدثنا عنها تماما :

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال :

ما علمت أحدا هاجر الا مختفيا ، غير عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فإنه لما هم بالهجرة ، تقلد سيفه ، وحمل قوسه ، وأخذ فى يده أسهما ، وأتى الكعبة ، وأشراف قريش بفنائها ، فطاف سبعا ، ثم صلى ركعتين عند المقام ، ثم أتى حلقهم ، واحدة ، واحدة ، فقال :

شاهت الوجوه ، من أراد أن تشكله أمه ، ويؤتم ولده ، وترمل زوجته ، فليلقنى خلف هذا الوادى ، فما تبعه منهم أحد » (٢) .

أما سيدنا عثمان رضى الله عنه ، وتضحيته الباسلة ، وكرمه الفياض فى سبيل الجهاد : فقد روت كتب السيرة ، أنه أنفق من أمواله الكثير ، فى تجهيز الجيوش ، ابتغاء وجه الله تعالى ، وأعلى كلمته ، حتى أنه جهز يوما جيش العسرة ، كما جهز يوما ثلث الجيش الذى بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم ، الى القبائل ، وإلى مكة ، فكفى ثلث ذلك الجيش مؤنتهم ، حتى أن كان ليقال :

« ما بقيت لهم حاجة ، حتى كفاهم شق أسقيتهم ؛

ويقال : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال يومئذ :

(١) الجهاد فى الاسلام .

(٢) انظر كتاب « الجهاد فى الاسلام » .

« ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا » (١) .

أما شجاعة سيدنا على رضي الله عنه ، وشدة جراته ، وقوة
اقدامه ، للجهاد في سبيل الله ، فحسبه من الشرف الرفيع ،
والرجولة الحقّة ، أن باع روحه ونفسه ، وأقام مكان النبي صلى الله
عليه وسلم ، ليلة الهجرة ، وهو على علم تام ، ويقين صادق ، أن
الكفار والمشركين يريدون قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وأحكموا أمرهم أن ينفذوا ذلك الليلة . ولكن عليا لم يمنعه ذلك أن
يقوم مكان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وينام على فراشه ،
ليوهم المشركين ، ويسلم الرسول صلى الله عليه وسلم .

وموقف آخر من مواقف سيدنا على رضي الله عنه ، يسجل له
اسمى أنواع البطولة :

عن كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه قال :

لما كان يوم الخندق ، خرج عمرو بن عبد ود ، معلما ليري
مشهده ، وهو مقنع بالحديد ، فنادى من يبارز ؟

فقام على بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال :

أنا لها يا نبي الله ، صلى الله عليه وسلم ؛

فقال : انه عمرو ، اجلس .

ثم نادى عمرو ، ألا رجل يبارز ؟ فجعل يؤنبهم ، ويقول :

أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ؟ أفلا تبرزون
إلى رجلا ؟

فقام على رضي الله عنه فقال :

أنا يا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟

فقال : اجلس .

ثم نادى الثالثة ، فقام على رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، أنا .

(١) من كتاب : « الجهاد في الإسلام » .

فقال : انه عمرو ، فقال : وان كان عمرا (١) ؛
فاذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمشى اليه ، وهو
يقول :

انى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربه نجلاء يبقى ذكرها عند الهزائن

فقال له عمرو : من أنت ؟

قال : أنا على .

قال : ابن عبد مناف ؟

قال : أنا على بن أبى طالب .

فقال : يا ابن أخى ، من اعمامك ما هو أسن منك ، فانى أكره
أن أهريق دمك ؟

فقال على رضى الله عنه :

لكنى والله لا أكره أن أهريق دمك .

فغضب ، فنزل وسل سيفه ، كأنه شعلة من نار ، ثم أقبل
نحو على رضى الله عنه ؛ مغضبا ، واستقبله على بحرته ، فضربه
عمرو فى حربته ففقدها ، وأثبت فيها السيف ، وأصاب رأسه
فشجه ؛

وضربه على رضى الله عنه ، على جبل عاتقه فسقط ، وسمع
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التكبير ، ثم أقبل على رضى الله
عنه ، نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجهه يتهلل ، فقال
له عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

هلا استلبت درعه ؟ فإنه ليس للعرب دوع خير منها ؟ قال :

ضربته فاتقانى بسوءته ، فاستحييت أن أسلبه « (٢) .

(١) قالها وهو يعلم أن عمرا ، هو من هو من شدة الكفر ، وغلظة الشركة ؛
وكراهيته الشديدة للإسلام والمسلمين .

(٢) انظر كتاب « الجهاد فى الإسلام » .

ها هو جانب من جوانب شجاعة الامام على رضى الله عنه ، كما
صوره لنا الحديث الرائع الجميل .

اما شهامة المقداد ، وشجاعته النادرة ، وبطولته الباسلة ،
وجرأته القوية ، فقد بلغ شأن ذلك عنده ، مبلغ الغبطة ، التي تمنى
ابن مسعود - وهو من هو شجاعة وتضحية - أن يكون هو
صاحبها .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال :
لقد شهدت من المقداد مشهدا ، لأن اكون صاحبه ، أحب الى
مما يعدل به .

جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يدعو على
المشركين ، فقال :

والله يا رسول الله ، لا نقول لك ، كما قالت بنو اسرائيل
لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا انا هنا قاعدون » .

نقاتل عن يمينك ، وعن يسارك ، ومن بين يديك ، ومن خلفك .
فرايت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يشرق ، وسر
بذلك (١) »

اما موقف طلحة رضى الله عنه ، من الجهاد في سبيل الله ،
والتضحية القوية في سبيل انتصار هذا الدين ، فانه موقف يمتاز
بالشرف الرفيع ، والعزة الكريمة ، وحسبه تشريفا ، شهادة
الصديق رضوان الله عليه ، في حقه يوم أحد :

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان أبو بكر رضى الله عنه %
إذا ذكر يوم أحد قال :

ذاك يوم كله لطلحة ، رضى الله عنه ، ثم أنشأ يحدث فذكر
الحديث وفيه :

فانتهينا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كسرت
وباعيته ، وشج في وجهه ، وقد دخل في وجنته حلقتان ، من حلق
المغفر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) انظر كتاب : « الجهاد في الاسلام »

« عليكمما صاحبكما ، يريد طلحة رضى الله عنه ، وقد نرف
فذكر الحديث وفيه :

ثم أتينا طلحة رضى الله عنه ، فى بعض تلك الجفار ، فاذا به
بضع وسبعون طعنة ورمية وضربة ، واذا قد قطعت أصبعه ،
فأصلحنا شأنه » (١) .

وأما شجاعة أسد الله ، وأسد رسوله ، حمزة بن عبد المطلب ،
رضى الله عنه ، فان الحديث التالى يصور لنا جانباً حياً من
جوانبها .

عن الحارث التميمى قال :

كان حمزة بن عبد المطلب ، رضى الله عنه ، يوم بدر ، معلماً
بريشة نعامة ، فقال رجل من المشركين :

من رجل أعلم بريشة نعامة ؟

فقال : حمزة بن عبد المطلب ، رضى الله عنه . قال :

« ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل » (٢) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال :

فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم أحد ، حمزة رضى
الله عنه ، حين رجع الناس من القتال قال : فقال رجل :

رايته عند تلك الشجرة ، وهو يقول :

« أنا أسد الله ، وأسد رسوله ؛

اللهم انى ابرا اليك مما جاء به هؤلاء - لأبى سفيان وأصحابه -
وأعتذر اليك مما صنع هؤلاء من انهزامهم »

فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نحوه ، فلما رأى
جبهته بكى ، ولما رأى ما مثل به ، شهق ثم قال :

الا كفن ؟ فقام رجل من الأنصار ، فرمى بثوب :

قال جابر رضى الله عنه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) من كتاب : « الجهاد فى الاسلام » .

(٢) انظر : « الجهاد فى الاسلام » .

« سيد الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة ، حمزة رضى الله عنه » (١)

اما الذين جاهدوا في الله حق جهاده ، وباعوا انفسهم وارواحهم ابتغاء مرضاتيه ، واشترى الله منهم انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة ، وصدقوا الله وعده ، فصدقهم الله وعده .

من هؤلاء الذين ربحت تجارتهم ، واهتدوا بهدى الله سبحانه ، انس بن النضر رضى الله عنه .

فعن انس رضى الله عنه قال :

عمى سميت به ، ولم يشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم بدر ، قال : فشق عليه ، وقال :

اول مشهد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غبت عنه ، ولئن أرانى الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، قال : فشق عليه ، وقال :

فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم أحد ، قال :

فاستقبل سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فقال له انس رضى الله عنه :

يا أبا عمرو ، واهما لريح الجنة ، أجده دون أحد ، قال :

فقاتلهم حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة ، وطعنة ، ورمية . قال :

فقاتلت أخته ، عمتى الربيع بنت النضر ، فما عرفت أخى إلا بيناته ، ونزلت هذه الآية :

(١) انظر : « الجهاد في الاسلام » .

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » (١)

أما بطولة الأبطال الرائعة ، وتمنى الموت في سبيل الله ، والحرص المحريص على الاستشهاد ضد العدو ، فإن ذلك انما يتمثل في سيف الله المسلول « خالد بن الوليد » رضى الله عنه .
فعن أنس بن حارثة رضى الله عنه قال :

لم يكن أحد أعدى للعرب من هرمز ، فلما فرغنا من مسيلمة واصحابه ، أقبلنا الى ناحية البصرة ، فلقينا هرمز بكاظمة في جمع ، فبرز له خالد ، ودعا البراز ، فبرز له هرمز ، فقتله خالد بن الوليد رضى الله عنه ، وكتب بذلك الى أبى بكر الصديق ، فأعطاه سلبه ، فبلغت قلنسوته مائة ألف درهم ، وكانت الفرس اذا شرف الرجل فيهم ، جعلوا قلنسوته مائة ألف درهم » (٢)

وعن أبى الزناد قال : لما حضرت خالدا الوفاة ، بكى ، ثم قال :

لقد حضرت كذا وكذا ، زحفا ، وما بى في جسدى شبر ، الا وفيه ضربة سيف ، أو طعنه رمح ، أو رمية سهم ، وها انا أموت على فراشى حتف أنفى ، كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » (٣)

أما الدين سبقت لهم من الله الحسنى ، واشتروا الدار الآخرة بالحياة الدنيا ، فمنهم الصحابى الجليل الذى غسلته الملائكة :
« حنظلة بن أبى عامر » رضى الله عنه .

فقد روت كتب السيرة ، أن حنظلة بن أبى عامر ، ليلة أن أعرس بزوجته ، نودى بالجهاد فى غزوة أحد ، من ليلته ، فخرج مسرعا الى المعركة ، وأظهر ضروبا من البسالة والشجاعة والقوة ،

(١) انظر كتاب : « الجهاد فى الاسلام » - الآية رقم ٢٣ من سورة الاحزاب .

(١) انظر كتاب : « الجهاد فى الاسلام » .

(٢) انظر كتاب : « الجهاد فى الاسلام » .

حتى اتاه سهم مفاجيء فاستشهد ، وبعد المعركة ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لقد رأيت حنظلة بن أبى عامر ، تغسله الملائكة بماء الزن في صحاف الفضة بين السماء والأرض » .

فذهب الصحابة اليه ، وهو في القتلى ، فوجدوا شعره يقطر ماء فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال أ

« اذهبوا الى زوجته فاسألوها ، فذهبوا اليها فقالت :

انه أعرس بى أول ليلة فقط ، ولما سمع الداعى الى الجهاد خرج مسرعا وهو جنب ، فرجعوا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه فقال :

« من أجل ذلك ، غسلته الملائكة » (١)

وموقف آخر من مواقف الشجاعة ، يدل على الايمان القوى ، واليقين الصادق ، والثقة الكاملة ، والحب التام لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

هذا الموقف الجاد ، يقصه لنا عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فيقول :

« انى لواقف يوم بدر فى الصف ، فنظرت عن يمينى وشمالى ، فاذا أنا بين غلامين من الانصار حديثة أسنانهما تمنيت ان اكون بين أضلع منهما .

فغمزنى أحدهما فقال : يا عماه ، اتعرف أباه جهل ؟

فقلت : نعم ؛ وما حاجتك اليه ؟ قال :

اخبرت انه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي نفسى بيده ، لئن رأيته ، لا يفارق وجهى وجهه ، حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك .

(١) انظر : « الجهاد فى الاسلام » .

فقمزنى الآخر ، فقال ايضا مثلها :

فلم يطل الوقت حتى نظرت الى أبى جهل ، وهو يجول في الناس ، فقلت :

ألا تريان ؟ هذا صاحبكم الذى تسألانى عنه .

فابتدراه بسيفيهما فضرباه ، حتى قتلاه ، ثم انصرفا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبراه فقال :

أيكما قتله ؟ قال كل منهما : أنا قتلته ، قال :

هل مسحتما سيفيكما ؟ قالا : لا . قال :

فنظر النبى صلى الله عليه وسلم ، فى السيفين فقال :

كلاهما قتله ، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والآخر معاذ بن عفراء رضى الله عنهما » (١)

هذه جولة عابرة حول النماذج الحية الرائعة التى ضربت الصحابة بها أروع ما سطرته الأقدار من شرف الصلبة ، وإخلاصهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وجهم الصادق لهذا الدين ، وإثارهم له ، على النفس والمال ، والجاه ، والبنين والبنات ، وفهمهم الوقاد لهذا الدين وتفانيهم الكلى من أجل تقويته ، والانصراف الصارف لهم عن كل شئ يخالف شريعته السماوية الغراء .

انهم تفاعلوا فى كل شئ ، رغبة فى إعلاء كلمة الله سبحانه ، وانتصار دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتحقيق العزة ، والكرامة ، والشرف ، القائم على محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

انهم تفاعلوا رضوان الله عليهم ، فى كل شئ حتى أخذ الإيمان القوى مأخذه العميق فى قلوبهم ، وسرت أشعته فى أجسامهم الطاهرة ، حتى كان الواحد منهم ، لا حرج عليه أن يقتل - فى بساطة ويسر - أباه ، أو ابنه ، أو هجرته ، أو أهله ، إذا رغب عن الإسلام فى شئ أو عارض دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، عملا بقوله تعالى :

(١) أنظر كتاب : « الجهاد فى الإسلام »

((لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ، ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون)) (١) •

ولنذكر على سبيل البيان والتوضيح - كما روت كتب السيرة -

أن عبد الله بن عبد الله ، بن أبى ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لا يارسول الله !

انه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى ، فيما بلغك عنه ، فان كنت فاعلا ، فمرنى به ، وأنا أحمل اليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ، وانى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر الى قاتل عبد الله بن أبى يمشى بين الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار » •

« وهنا يضرب رسول الرحمة ، صلوات الله وسلامه عليه ، أروع مثل المكارم فى العفو ، وكظم الغيظ فيقول له :

« بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » •

هذا قليل من كثير من الصور الجليلة التى سما فيها إيمان الصحابة ، عن العاطفة ، وحب العشيرة والقراة ، حتى لا يكون فى إيمانهم دخل ، ولا فى حبهم خلل ، ولا فى صدقهم لله ورسوله شك •

لهذا نجوا ، ونجوا جميعا ، منذ أن وزن إيمانهم ونصرتهم للحق ، وحبهم له ، بميزان قوله صلى الله عليه وسلم :

« لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » •

حتى ولو كان المخلوق ، أباً أو أخاً ، صديقاً أو قريباً •

هكذا كان طابع الرجال الذين لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، ولم تمنعهم أموالهم ولا أولادهم عن الجهاد في سبيله ، حتى أكرمهم وكانوا هم السعداء في الدنيا والآخرة .

ها هو ذا دور الصحابة الفعال نحو هذا الدين ، وفهمهم الوقاد للمبادئ ، الذي استوجب عليهم كل ما قاموا به ، وما قدموه من تضحيات شاقة ، وعمل دائب ، كما بينا ذلك فيما سردنا من نماذج .

الرسول المجاهد صلى الله عليه وسلم :

انه لمن يمن الطالع ، وسعادة الحظ ، أن نعود الآن الى فكرة تحرير الشعوب ، وأن الفضل في ذلك انما هو للمبشر الاول ، والرسول المجاهد الاعظم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من كتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أتى به صلى الله عليه وسلم ، الى هذا المجتمع ، وأخذ يعرفهم رسالة التوحيد الخالص ، على الرغم مما كانت تعج به العرب وقت ذلك ، من عناد الكافرين ، وتكذيب المشركين ، وصدور الاتهامات من المكابرين ، الذين حملوا على الاسلام ورسوله ، ووجهوا سهام الطعن ، وجادلوا بالباطل ، ليدحضوا به الحق الواضح الذي فيه الهداية والكفاية .

أتى صلى الله عليه وسلم ، على الرغم من ذلك كله ، ينذر في الناس ويبشر ، ويخوف ويطمئن ، ويرهبهم ويرغبهم ، وظل وهو على حاله هذه يعمل - بكل جهد وطاقة ، وعين الله ترعاه وتحفظه - على اخراج الناس من ظلمات الكفر والشرك ، الى نور الايمان والحق ، ومن عبادة الأوثان الى عبادة الرحمن ، ومن طاعة الشيطان الرجيم ، الى طاعة الله الرحمن الرحيم .

واستمر صلوات الله وسلامه عليه ، بحث الناس ويرشدهم ، ويبين لهم أن الله تعالى ، أنزل عليه القرآن الكريم تبياناً ، ليعلم العباد ربهم اذ جهلوه ، ويقرؤا به اذ يحجدوه ، ويثبتوه بعد اذ أنكروه .

وليعلموا أن الله تعالى ، قد تجلى لهم سبحانه في كتابه ، من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته ، وخوفهم من سطوته ، وكيف محق من محق بالثلاث ، واحتصد من احتصد بالنقمات .

بهذه النصائح الرشيدة ، أخذ صلوات الله وسلامه عليه ، يحث الفكر ويوجهه ، ويرشد القلوب وينمي شعورها الكريم ، والشدائد الشديدة تعترض طريقه ، وهو يقابلها بصبر دائم ، وحزم جازم ، ويقين متيقن أن الله مؤيده وناصره .

استمر صلوات الله وسلامه عليه ، بهذه الثقة القوية ، يصارع الجبابرة ، ويرد بأس الظلم ، ويحارب عقائد الإلحاد والفسق دون ملل أو فتور .

ويتحدث الامام على رضى الله عنه ، عن شجاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

« كنا اذا اشتد البأس ، واحمرت الحديق ، ولقى القوم القوم ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون احد اقرب الى العدو منه .

قيل : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قليل الكلام ، قليل الحديث ، فاذا أمر الناس بالقتال ، تشمر وكان الشجاع هو الذى يقرب منه في الحرب لقربه من العدو » اهـ .

وصدق الامام على رضى الله عنه ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو الرسول الشجاع المجاهد ، والنبي العابد المكافح ، الذى جاهد في الله حق جهاده ، وأمر أن يقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، ويؤمنوا به .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ،

ويؤمنوا بي ، وبما جئت به ، فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم ، وأموالهم ، إلا بحقها ، وحسابهم على الله » (١) .
وفي رواية أخرى : عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فاذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » (٢) .

أعلن ذلك صلوات الله وسلامه عليه ، في صراحة صريحة ، وهو على علم تام ، ويقين جازم أن ذلك مغضب لقومه ، مثير لشعورهم ، باعث الأسى في نفوسهم ، ولكنها شجاعة الرسالة ، وجراءة النبوة ، وغيره الرجولة ، ونصرة الحق ، أبت أن ترغب فيما سوى الله أبدا ، أو تجامل في طاعته أحدا .

لم يحل بينه وبين ما يصبو إليه من تبليغ دعوته شيء من ذلك أبدا ، فظل ثابت القدم ، قوى الإرادة ، لم يتغير لحالهم ، ولم يتأثر لقولهم .

بل أنه سار في جد جاد ، ثبت لهم - بما لديه من فصاحة لسان ، وبلاغة جنان - أنه رسول الله إليهم ، اصطفاه الله لنفسه ، واختاره للناس رحمة ، أوحى الله إليه بما أوحى من الشرع ، وأنزل عليه القرآن ، لينذر به أم القرى ومن حولها .

ولكن : لم يستجيبوا له ، ولم يستروحوا نسيمات ما دعاهم إليه ، وأخذتهم صيحة الاستكبار ، وقتلت فيهم الأنانية معاني الإنسانية الراقية .

أذ كيف يكون هذا النبأ العظيم ، لرجل مثلهم ، لغته كلفتهم ، لشأنه كنشأتهم ، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق .

(١) رواه الإمام مسلم رضى الله عنه .

(٢) رواه الإمام مسلم رضى الله عنه .

« وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ،
لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ؟ » .

زعموا الباطل ، وأصروا على الخبث ، واستكبروا عن الاستجابة
له ، واجتمعوا في ناديهم يتسامرون تعنتا منهم ، وكيدا لهذا النبي
المرسل .

ويقص علينا الامام على رضى الله عنه ، طرفا من فحشهم في
القول ، وتعنتهم في الطلب فيقول :
« لقد كنت معه صلى الله عليه وسلم ، لما أتاه الملا من قريش
فقالوا له : يا محمد !

انك قد ادعيت عظيما ، لم يدعه آباؤك ، ولا أحد من بيتك ،
ونحن نسالك أمرا ، ان اجبتنا اليه وأريتناه ، علمنا انك نبي ورسول ،
وان لم تفعل علمنا انك ساحر كذاب فقال صلى الله عليه وآله .
وما تسألون ؟ قالوا :

تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك .
فقال صلى الله عليه وسلم :
ان الله على كل شيء قدير ، فان فعل الله لكم ذلك ، أتؤمنون
وتشهدون بالحق ؟

قالوا : نعم . قال :
فانى سأريكم ما تطلبون ، وانى أعلم انكم لاتفيثون الى خير ،
وان فيكم من يطرح في القليب ، ومن يحزب الأحزاب ؛ ثم قال
صلى الله عليه وآله :

« يا أيها الشجرة ، ان كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر ، وتعلمين
انى رسول الله ، فانقلعى بعروقتك ، حتى تقفى بين يدي باذن الله » .
والذى بعثه بالحق ، لانقلعت بعروقها ، وجاءت ولها دوى
شديد ، وقصف كقصف أجنحة الطير ، حتى وقفت بين يدي رسول
الله صلى الله عليه وآله ، مرمرقة ، وألقت بغصنها الأعلى على رسول
الله ، صلى الله عليه وآله ، وبيعض أغصانها على منكبي ، وكنت عن
يمينه صلى الله عليه وآله .

فلما نظر القوم الى ذلك قالوا : - علوا واستكبارا - فمرها
فليأتك نصفها ، ويبقى نصفها ؛

فأمرها بذلك ، فأقبل اليه نصفها ، كأعجب اقبال وأشده
دوباً ، فكادت تلتف برسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالوا كفرا
وعتوا :

فمر هذا النصف ، فليرجع الى نصفه ، كما كان ، فأمره صلى
الله عليه وسلم ، فرجع . فقلت أنا :

لا إله إلا الله ، أتى أول المؤمنين بك يا رسول الله ، وأول من أقر
بأن الشجرة فعلت ما فعلت ، بأمر الله تعالى ، تصديقا بنبوتك ،
واجلالاً بكلمتك .

فقال القوم كلهم :

بل ساحر كذاب ، عجيب السحر ، خفيف قيّه ، وهل يصدقك
في أمرك إلا مثل هذا ، يعنونى » (١) أه .

ها هم أولئك الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، لم يتدبروا
الحق للحق ، ولم يستمعوا للنبي صلى الله عليه وسلم ، قاصدين
الصدق ؛

انهم طلبوا منه ذلك لا لقصد الهداية والإيمان ، وإنما طلبوا
منه ذلك : عنادا واستكبارا ، ظنا منهم أنه معجز له ومكذب ، ولما
أسفرت النتيجة بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم ، أصروا على
انكارهم ، واتحدت كلمة الشر منهم ، وجزموا الراى لا بد من التضدى
لهذه الدعوة ، والصمود فى وجه صاحبها .

خاصة : حينما أدارك علمهم ، بأن اتباعها يزيدون يوماً بعد يوم ،
فازدادوا خبثاً على خبثهم ، ولؤماً على لؤمهم ، ففكروا ، وقدروا
أن يواجهوا محمداً بالبأس الشديد ، لعله يكف عنهم ، أو يفىء
لرايهم ، أو يعتزلهم وما يعبدون من دون الله ، فيمسك لسانه ،

(١) انظر نهج البلاغة : للإمام على رضى الله عنه .

ويملك نفسه ، عن كل ما آذاهم به ، وحقرهم ، وأبطل زعمهم ،
وأفسد عقيدتهم .

كان هذا نتيجة ما فكروا فيه ، وما قدروا له أقدارهم .

وموقف آخر يشرح لنا خبث هؤلاء القوم ، واعراضهم عن
الحق ، وتماديهم في الباطل .

حدث أن عتبة بن ربيعة ، قال يوما ، وهو جالس في نادي
قريش ، والرسول صلى الله عليه وسلم جالس وحده في المسجد :
يا معشر قريش : ألا أقوم الى محمد فأكلمه . وأعرض عليه
أمورا ، لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ؟ فقالوا : بلى
يا أبا الوليد ، قم اليه فأكلمه .

فقام عتبة اليه حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فقال :

يا ابن أخى ، انك منا حيث قد علمت : من البسطة في العشيرة
والكمال في النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به
جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من
مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا ، تنظر فيها ،
لعلك تقبل منى بعضها .

فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

قل : يا أبا الوليد اسمع . قال :

يا ابن أخى ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ،
فجمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

وان كنت انما تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا
دونك .

وان كنت تريد به ملكا ، ملكتنا علينا .

وان كان هذا الذى يأتيك رثيا تراه ، لا تستطيع رده عن
نفسك . طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه ،
فانه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يداوى منه .

وعند ما فرغ عتبة من حديثه ، والرسول صلى الله عليه وسلم ، يستمع منه ، قال :

لقد فرغت يا ابا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع مني ؟ قال :

بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فاعرض اكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ، وفي آذاننا وقر ... ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرؤها ، وعتبة منصت لها ، حتى انتهى الرسول صلى الله عليه وسلم ، من قراءتها الى السجدة ، ثم قال :

قد سمعت يا ابا الوليد ما سمعت ، فانت وذاك .

فقام عتبة الى اصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

نحلف بالله ، لقد جاءكم ابو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس اليهم قالوا :

ما وراءك يا ابا الوليد ؟ قال :

« ورائي اني سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ؛ والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يامعشر قريش ، اطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ ، فان تصبه العرب ، فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم اسعد الناس به » .

قالوا : سحرك والله يا ابا الوليد بلسانه . قال :

هذا راى فيه ، فاصنعوا ما بدالكم « (١) ا ه .

صور هذا الحادث موقف المعاندين الذين لم يستجيبوا للدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، رغم ما فيها من صلاح حالهم ،

(١) انظر « القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم » لشيخنا المصنف بالله الدكتور عبد الحليم محمود .

وسعادتهم في الدنيا والآخرة لو أطاعوه وآمنوا بما جاءهم به . ولكنها
شقوة الكفر والشرك ، غلبت عليهم .

انهم لم تسجد جباههم للحق ، رغم أن هذه الدعوة أخذت مأخذ
الجادبية الساحرة من قلب عتبة .

انظر لقوله لهم حينما قالوا له : « ما وراءك يا أبا الوليد »
فأجابهم قائلا

ورائي اني سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو
بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة « اهـ .

أثار شعور عتبة ، ما تلاه الرسول صلى الله عليه وسلم من آيات
حتى لم يسهه إلا الصمت والسكوت عند سماعها إلى أن سرت
جاذبيتها في جسمه ، واستولت على كيانه : ولكنه النور الإلهي ،
يقذفه الله سبحانه ، في قلب من أحب من خلقه .

وهكذا شأن القرآن الكريم ، الذي لو أنزله على جبل لرأيت
خاشعاً متصدعاً من خشية الله .

أما الذين لم يأن لهم أن تخشع قلوبهم لسماعه ، فانهم قوم
ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة .

لهذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم ينزل عن رأيه .
كيف ذاك : وهو المعصوم الذي حفظه الله من أن يقع الذباب على
جسمه ، أو يطمأ قدم موضع ظله ؟

لم يفعل صاوات الله وسلامه عليه : شيئاً من ذلك ، لأنه المعصوم ،
ولأن رسالته لم تكن لغرض شخصي ، تابعة عن إرادة نفسية ، وإنما
هي رسالة السماء ، موجهة إلى عباد الله تعالى ، ليوحدوه أجلاً ،
ويسبحوه تعظيماً ، ويخلصوا له وحده ؛

فلا اللات ، ولا العزى ، ولا هبل ، ولا تعدد آلهة .

فلا عبادة إلا للمولى ، ولا ربوبية إلا للعلى الأعلى .

ويتحدث ربعة بن عباد ، عما قام به رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، في سبيل الدعوة الإسلامية فيقول :

« رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الجاهلية ، في سوق ذي المجاز ، وهو يقول : »

« يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » . والناس مجتمعون عليه .

ويقول ربعة أيضا :

انه رآه يتبع الناس في منازلهم ، يدعوهم الى الله ، فلما رأى المشركون أن الدعوة الإسلامية : تنتشر ، قاموا الى أبي طالب ، عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وانذروه بالحرب ، أن لم يمه ابن أخيه ويمنعه عن السير في دعوته ، وبعث اليه أبو طالب ، فلما حضر قال له :

يا ابن أخي : ان قومك قد جاءوني ، وقالوا كذا وكذا ، فابق على وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، أنا وأنت ، فاكف عن قومك ما يكرهون من قولك .

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن عمه خاذله : وأنه ضعف عن القيام معه ، فقال صلى الله عليه وسلم ، لعمه أبي طالب :

« والله يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك في طلبه » اهـ

واخذت صيحة الحق ترتفع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلو ، حتى أخذ الإيمان مأخذه الصادق من القلوب ، وازداد المسلمون عددا ، وعدة .

فما من يوم الا وتأتى وجوه الله مسلمة ، وبوحدانيته مؤمنة ، ولخشيتيه سبحانه مدعنة ، تسير على هدى نبيه ، وتتبع النور الذي أنزل معه .

دعوة النبي وشجاعته الأدبية :

قوى شأن الذين عرفوا صدق هذا الدين ، وعظم حرصهم عليه ، خاصة وانهم رأوا في نبيه صلى الله عليه وسلم العزوف الكلي والزهد التام ، في الدنيا وما فيها من متاع أو نعيم .

يقول الامام على كرم الله وجهه في زهده صلى الله عليه وسلم :
« قد حقر الدنيا وصغرها ، واهون بها وهونها ، وعلم أن الله
زواها عنه احتقارا ، وبسطها لغيره احتقارا ، فأعرض عنها بقلبه ،
وامات ذكرها عن نفسه ، وأحب أن يقيب زينتها عن عينه ، لكيلا
يتخذ منها ريشا ، أو يرجو فيها مقاما .

بلغ عن ربه معذرا ، ونصح لآمنه منذرا ، ودعا الى الجنة
مبشرا ، وخوف من النار محذرا » اهـ

شاهد العارفون هذا العزوف النبوي ، فما كان منهم الا انهم
اخذوا من النبي الكريم ا نمودجا حيا ، صالحا للدعوة فائدا
للمسالة .

خاصة : وانه صلوات الله وسلامه عليه ، فوق ذلك كله ، انفرد
بالشجاعة الأدبية ، واتسم بالسمات الخلقية ، والتضحية المؤثرة ،
والفناء في الفكرة ، والومضات الروحية والفكرية البارعة والبطولة
الفذة في شتى مناحي الحياة ، ومختلف مجالاتها ، لنشر رسالة
الدعوة الاسلامية .

انهم راوا في النبي كل شيء جميل ، يرضى عقيدتهم التي
استنارت بنور الاسلام : واهتدت بهديه عليه الصلاة والسلام ، فما
كان عليهم ، الا انهم ايقنوا دون أن يتشككوا واعترفوا دون أن
يرتابوا ، وآمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أن الذي يدعو اليه
محمد كله خير ، بل هو في أخلاق الناس حسن . يقول الشيخ
« الالوسي » :

لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم ، بمكة ، ودعا الى الاسلام
بعث اكرم بن صيفى ابنه « حبيشا » فاتاه بخبره ، فجمع بنى تميم
وقال لهم :

« ان ابني شافه هذا الرجل مشافهة ، واتانى بخبره : وكتابه ،
يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الاخلاق ،
ويدعو الى توحيد الله تعالى ، وخلق الاوثان ، وترك الحلف بالنيران
وقد حلف ذووا الراى منكيم :

أن الفضل فيما يدعو اليه ، وأن الراى ترك ما ينهى عنه » .
 ثم نطق كلمته الرائعة ، التى حملت بين طياتها صورة طيبة ،
 وحقيقة مباركة ، لما دعا اليه هذا النبى :
 « ان الذى يدعو اليه محمد : لولم يكن ديننا ، لكان فى اخلاق
 الناس حسنا » (١) .

وصدق اكثم بن صيفى : فان دعوة الرسول صلى الله عليه
 وسلم ، لو لم تكن ديننا - واستغفر الله من هذا الظن - حسبما
 زعم من زعم ، هى فى أخلاق الناس حسن ، وعمل متقبل » .
 ذلك : انه لم يدع الا لخير ، ولم يوجه الا لفضيلة ، ولم يرشد
 الا لسعادة تامة فى الدنيا والآخرة .

ومن هنا كان صلوات الله وسلامه عليه ، اولى بالمؤمنين من
 انفسهم ، كما صرح بذلك القرآن الكريم قائلا :

« النبى اولى بالمؤمنين من انفسهم ... » (٢)

اولى بهم من انفسهم لانه دعاهم الى الله وحده ، وعرفهم سبيل
 الوصول اليه ، وارشدهم الى ما يحقق لهم النجاة فى الدنيا ، والظفر
 بالسعادة فى الآخرة .

بخلاف ما تدعو النفس اليه من قبح وشر : وما تأمر به من الفحش
 والسوء ، وتزينه لصاحبها من العصيان والفجور ، مما يكون سببا
 للامر بمخالفتهما ، بل ومخالفة الشيطان والهوى .

« حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا » .

ولله در القائل :

(١) انظر كتاب القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم ، لفضيلة شيخنا العارف

ياله : الدكتور عبد الحليم محمود .

(٢) الاحزاب آية : ٥٦

وخالف النفس والشیطان واعصهما
وان هما محضاك النصیح فاتهم

ومخالفة النفس عمل جلیل الى أبعد الحدود ، فاذا ما وفق
العبد الیه کان له أن یتخذ لنفسه هدفا یتناسب وحکمة وجوده ،
والهدف الذی یتناسب وحکمة وجود الإنسان ، انما یکون ،
بالتزام :

« وما آتاکم الرسول فخذوه ، وما نهاکم عنه فانتهوا » •

فالشارع الحکیم : لم یأمر بالتزام ما أتى به الرسول ، واجتناب
ما نهى عنه الا لانه صلوات الله وسلامه علیه ، لم ینطق عن هوى ،
وانما هو وحى یوحى : فطاعته طاعة لله سبحانه وتعالى :

« من یطع الرسول فقد أطاع الله » •

وفى الالتزام لما أتى به ، وفى الاجتناب لما نهى عنه ، استجابة
لامر الحق سبحانه ، وطاعة له تعالى ، لانه صلوات الله وسلامه
علیه ، لم یأمرنا بشئ ، ولم ینها عن شئ الا لانه :

« عزیز علیه ما عنتم حریص علیکم بالؤمنین رءوف رحیم » •

واذا کان رسول الله صلوات الله وسلامه علیه ، للعالمین رحمة
وبالؤمنین رءوف رحیم ، فان دعوته لا تكون الا كذلك ، لانها دعوة
الى الله ، والدعوة الى الله : لیس هناك دعوة أحسن منها :

« ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من

المسلمین » •

وقصة هرقل عظیم الروم ، حیثما دعاه الرسول صلى الله علیه
وسلم الى الاسلام ، تبین عظیم جمال دعوة الرسول صلى الله علیه
وسلم ، وحسن مأخذها من قلوب السامعین ، وسياسته الرشيدة
صلى الله علیه وسلم •

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتب الى قيصر يدعوه الى الاسلام ، وبعث بكتابه اليه مع دحية الكلبي ، وامره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان يدفعه الى عظيم بصرى ليدفعه الى قيصر .

فلما جاء قيصر كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال حين قرأه :

« التمسوا الى ها هنا احدا من قومه ، لاسألهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال ابن عباس : فأخبرني أبو سفيان : انه كان بالشام في رجال من قريش ، قدموا تجارا في المدة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين كفار قريش . قال أبو سفيان :

فوجدنا رسول قيصر ببعض الشام ، فانطلق بي وبأصحابي ، حتى قدمنا ايلياء ، فادخلنا عليه ، فاذا هو جالس في مجلس ملكه ، وعليه التاج ، واذا حوله عظماء الروم ، فقال لترجمانه أ

سلمهم ايهم اقرب نسبا الى هذا الرجل الذي يزعم انه نبي ؟ قال أبو سفيان :

فقلت : انا اقرب اليه نسبا . قال :

ما قرابة ما بينك وبينه ؟ فقلت :

هو ابن عمي ، وليس في الركب يومئذ احد من بني عبد مناف قمري . فقال قيصر :

ادنوه ؟ وامر أصحابي فجعلوا خلف ظهري عند كتفي ، ثم قال لترجمانه :

قل لأصحابه : اني سائل هذا الرجل عن الذي يزعم انه نبي ، فان كذب فكذبوه ! قال أبو سفيان :

والله لولا الحياء يومئذ من أن يائر أصحابي عنى الكذب

لكذبتنه ، حين سألني عنه ، ولكن استحييت أن يأتروا الكذب عني ،
فصدقته ؛ ثم قال لترجمانه :

قل له : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قلت :

هو فينا ذو نسب . قال :

فهل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟ قلت : لا . فقال :

كنتم تتهمونونه على الكذب ، قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال :

فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال :

فأشراف الناس يتبعونه ، أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم .

قال :

فيزيدون أو ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال :

فهل يرتد أحد سخطة لدينه ، بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا .

قال : فهل يفدر ؟ قلت : لا . ونحن الآن منه في مدة نحن نخاف

أن يفدر . قال أبو سفيان :

ولم يمكني كلمة أدخل شيئا ، انتقصه به ، لا أخاف أن تؤثر
عني غيرها .

قال : فهل قاتلموه أو قاتلكم ؟ قلت : نعم . قال :

فكيف كان حربيه وحربكم ؟ قلت :

كانت دولا ، وسجلا ، يدال علينا المرة ، وندال عليه الأخرى .

قال : فماذا يأمركم ؟ قال :

يأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ؛ وبنهاننا عما كان

يعبد آبائنا .

ويأمرنا بالصلاة ، والصدقة ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء

الإمانة .

فقال لترجمانه حين قلت ذلك له : قل له :

انى سألتك عن نسبه فيكم ، فزعمت انه ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال احد منكم هذا القول قبله ؟ فزعمت ان لا . فقلت :

لو كان احد منكم قال هذا القول قبله ، قلت : رجل ياتم بقول قد قيل قبله .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال ؟ فزعمت ان لا ، فعرفت انه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله ؛

وسألتك : هل كان من آباءه من ملك ؟ فزعمت ان لا ، فقلت : لو كان من آباءه ملك ، قلت يطلب ملك آباءه .

وسألتك : اشراف الناس يتبعونه ام ضعفاؤهم ؟ فزعمت ان ضعفاؤهم اتبعوه ، وهم اتباع الرسل .

وسألتك : هل يزيدون او ينقصون ؟ فزعمت انهم يزيدون ، وكذلك الايمان حتى يتم .

وسألتك : هل يرتد احد سخطة لدينه ، بعد ان يدخل فيه ؟ فزعمت ان لا .

فكذلك الايمان حين تخلط بشاشته القلوب ، لا يسخطه احد .

وسألتك : هل يفدر ؟ فزعمت ان لا ، وكذلك الرسل لا يفدرون .

وسألتك : هل قاتلتموه وقاتلكم ؟ فزعمت ان قد فعل ، وان حربكم وحربه ، تكون دولا ، ويدال عليكم مرة ، وتداولون عليه الأخرى . وكذلك الرسل : تبلى وتكون لها العاقبة .

وسألتك : بماذا يأمركم ؟ فزعمت انه يأمركم ، ان تعبدوا

الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ، ويأمركم بالصلاة والصدقة ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة . قال :

وهذه صفة النبي قد كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أظن ، أنه منكم ، وإن يك ما قلت حقا ، فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين ، ولو أرجوا أن أخلص إليه ، لتجشمت لقيته ، ولو كنت عنده ، لغسلت قدميه . قال أبو سفيان :

ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأه فإذا فيه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ :

من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فعليك اثم الأريسيين !

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا ، أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (١) »

قال أبو سفيان :

فلما ان قضى مقالته ، علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم ، وكثر لفظهم ، فلا أدري ماذا قالوا :

وأمرنا فأخرجنا ، فلما ان خرجت مع أصحابي وخلوت بهم قلت لهم :

لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ، هذا ملك بنى الأصفر يخافه ؛ قال أبو سفيان :

(١) آل عمران آية : ٦٤ .

« والله ما زلت ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر ، حتى ادخل الله قلبي الاسلام وأنا كاره (١) »

سرت جاذبية دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، الى قلوب السامعين ، تهيمن على الكيان الانساني ، وتغمر بنور ربها الجسد البشرى .

فيالها من براعة أخاذه ، ورغبة جذابه ، اشتملت على توحيد خالص لله ، واسترسال جامع لعوامل الالفة ، ويقين صادق ، واخلاص مخلص في الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

انها دعوة الرسول الصادق التي اخذت صيحتها المدوية ، تشق أندرية الكفر ، وتفرق دواوين الشرك ، وتقوض دعائم النفاق والظلم ، وتبطل عبادة الأصنام ، وتوضح للناس : أن هذه الأصنام شرك كلها ، كفر جميعها ، الحاد ونفاق بأجمعها .

انها الدعوة التي بينت أن هذه الأصنام عاجزة ، لا تعطى ولا تمنع ، ضعيفة لا تقدر ، مغلوطة لا تغلب ، لا تملك ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

انها الدعوة الالهية التي اوضحت في وضوح واضح ، على لسان رسولها المجاهد ، ما ضرب الله به في القرآن الكريم ، مثلاً لبيان ضعف هذه الأصنام التي أخبر الله عن تمام عجزها بقوله :

« يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله ، لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئاً ، لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب (٢) » .

بين الله تعالى ضعف الأصنام وعجزها ، بل وسلب القدوة منها ، بأنها لا تستطيع أن تسترد ما سلب منها ، ولو كانت مجتمعة متعاونة ، عن طريق أضعف مخلوق أو اقله ، وهو الذباب مثلاً .

(١) رواه الامام البخارى بسنده في صحيحه ج ٤ ص ٥٤ - ٥٧ ع

(٢) الحج آية : ٧٣ ع

فكيف يتأتى لها أن تملك من النفع والضرر شيئاً ؟

فهي اذ ثبت عجزها عن ان تسترد ما سلب منها ، فهي في نفع غيرها ، أو ضرره ، أعجز ، وأعجز ؛

اذن فهي عاجزة أبدا . مقهورة حتما ، مغلوبة على امرها لا غالبية .

بالعجز الدائم موصوفة ، وبالضعف القائم بها مقهورة ، فكيف يتصور أن تكون آلهة تعبد ؟

« انكم وما تعبدون من دون الله ، حسب جهنم انتم لها واردون (١) » .

الاسلام يقضى على العادات السيئة ويحرد المرأة :

عالجت الدعوة الاسلامية وقت مجيئها في عموم شامل ، وفي شمول مطلق ، تحرير الشعوب وكافحت وناضلت حتى قضت على الكثير من العادات السيئة ، وخلصت العديد من المنكرات الفاحشة ، وعملت عملها الجاد ، في توجيه المجتمع الانساني التوجيه السليم ، الذي يحض على التماسك والتآلف ، ويحث على التعاطف والتراحم بين افراد المجتمع وابنائهم .

لهذا ارشدت الدعوة الاسلامية المجتمع ، لكي يعم السلام ، وينتشر الامان ، ويتكافأ المجتمع الانساني ، ويتساند بنيانه ، فتسود السعادة ، وتعم الفضيلة ، ويعيش الناس في رخاء وهناء ، تقودهم عقيدة واحدة ، وتربطهم اخوة جانية ، ويجمعهم دين عام شامل ، فيه سعادتهم في الدنيا ، وفوزهم الفائق في الآخرة .

جاء الاسلام وحالة المجتمع على نحو ما سبق ان صورنا من الفوضى العارمة ، والردائل المنكرة ، التي كانوا عليها ، كأن كان يباح عندهم للسيد - حسبما لديهم من زعم باطل - أن يقتل

(١) الانبياء آية : ٩٨ .

عبيده ، أو يعذب خدمه ، لانهم من نوع آخر غير نوع السادة الأحرار ... الخ .

وكان كذلك عندهم : وأد البنات في التراب ، هونا بهن ، وعارا منهن ، وقتل الأولاد خشية الفقر والاملاق ، واعتقاد أن الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا ، واعتبار المرأة نوعا من الحيوانات التي تباع وتشتري ، أو اعتبارها جزءا من المتاع الذي يتمتع به الرجل ، كما كان ذلك هو السائد في القرون السابقة ؛ وغير ذلك مما هو مخالف لشريعة الله ، ورسالة السماء .

فما كان على الاسلام الا انه انكر كل هذه العادات المأجنة ، بل انه انكر كل شيء يخالف شريعة الله .

ثم أخذ يقرر الاسلام وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير ، والحيا والممات ، معلما في الناس انه لا فضل الا للعمل الصالح ، ولا كرامة الا للاتقى من عباد الله سبحانه :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم (١) »

وحسبنا من انكار رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم ، لهذه العادة ، ما روى عن المعرور بن سويد انه قال :

رأيت أبا ذر رضى الله عنه ، وعليه حلة ، وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك ، فذكر انه ساب رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعيره بأمه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« انك امرؤ فيك جاهلية هم أخوانكم وخولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم (٢) » .

(١) الحجرات آية : ١٣ .

(٢) متفق عليه .

واشتد موقف الاسلام في القضاء على كثير من العادات ، فأعلن الحرب الشعواء على الذين يآدون البنات في التراب ، وعبر عن افعلهم الشنيع بقوله :

« واذا بشر احدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الاساء ما يحكمون (١) »

وعن قتل الأولاد خشية الفقر والاملاق بقوله :

« ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم (٢) » .
ويقول سبحانه :

« ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطا كبيرا (٣) » .

وعن الذين جعلوا لله من عباده جزءا ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا ، عبر بقوله سبحانه وتعالى :

« وجعلوا له من عباده جزءا ، ان الانسان ل كفور مبين ، ام اتخذ مما يفتق بنات واصفاكم بالبنيين ، واذا بشر احدهم بها ضرب للرحمن مثلا ، ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، او من ينشؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا ، اشهدوا خلقهم ؟

• ستتكتب شهادتهم ويسألون (٤) » .

وكما ألفى الاسلام هذه العادات الجاهلية ، ووبخ القائمين بفعلها ، فانه كذلك ألفى كل ما كانت تعامل به المرأة ، وأخذ بيدها الى أن وضعها في المكانة اللائقة بها التي لم يسبق أن وصلت اليها

(١) النحل ٥٧ - ٥٩ .

(٢) الانعام آية : ١٥١ .

(٣) الاسراء آية : ٣١ .

(٤) الزخرف آية : ١٥ - ١٩ .

في آية شريعة من شرائع العالم ، سواء اكان ذلك في قديم الزمان ،
أو في متوسطه ، أو في حديثه .

كانت المرأة في الجاهلية مستعبدة ، مسلوقة الحقوق ، بل انها
كانت تعد من سقط المتاع ، للرجل الحق في بيعها وشراؤها ،
والتصرف فيها ، كما يتصرف في ماشيته ، وما يملك من أغنام .
ووصل شأنها قديما ، الى أن كان الرجل يكرهها على البغاء وان
أرادت تحصن ، ابتغاء عرض الحياة الدنيا ، وان يعضلها عن
الزواج ، ليذهب ببعض ما أتاها ، ويتزوج عليها كيفما شاء ، ومتى
شاء ، دون حرج عليه ، أو مانع يوقفه عند حد .

قضت المرأة على هذه الحال سنين عدة ، لا تشعر بالاستقرار ،
ولا يعد لها حساب ، ولا يعطى لها من المكانة ما يليق بها كأنثى ،
حتى ظلت في قلق دائم ، مهضومة الحق ، مهينة الجناح ، سواء
اكان ذلك في بلاد العرب ، أو الفرس ، أو الرومان .

ينظر إليها على أنها لا ترقى بحال ، الى مستوى الرجل ، ولم
تصل الى مكانته ، لا في طبيعة تكوينها ، ولا في مؤهلاتها ، التي تكون
شخصيتها .

بهذا الانحطاط الخلقي ، كانت المرأة غارقة في بحار من الجهل
والظلام ، الى أن جاء الاسلام ، فكان لا بد وهو يبنى مجتمعا جديدا
قوامه الخلق الكريم ، والمروءة الفاضلة ، يقوم على التكافل
الاجتماعي ، والتعاون الانساني ، والعدل التام ، والمساواة المثلى ،
في الحقوق المقررة ، التي تعد للمرأة حسابها ، وتحفظ كرامتها ،
وتصون عرضها كأنثى ، فاعتد بالمرأة ، وعمل على استرداد
حقوقها ، وما سلب منها من حرية ، وأثبت ما لها وما عليها ،
كانسانة تحس كما يحس الرجل ، وتتألم كما يتألم ، نهى الاسلام
عن تعضل المرأة عن الزواج قائلا :

« ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتهن »

وسبب نزول هذه الآية يبين النهى الاسلامي التام ، عن عضل
المرأة عن الزواج ، كما ذكر المفسرون :

« كان أهل المدينة في الجاهلية ، وفي أول الاسلام ، اذا مات

الرجل ، وله امرأة ، جاء ابنه من غيرها ، أو قرابته من عصبته ،
فألقى ثوبه على تلك المرأة ، فصار أحق بها من نفسها ومن غيره ،
فإن شاء أن يتزوجها ، تزوجها بغير صداق ، إلا الصديق الذي
أصدقها الميت ؛ وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ، ولم يعطها
شيئا ، وإن شاء عضلها وضارها لتفدى منه بما ورثت عن الميت ،
أو تموت هي فيرتها .

فتوفى أبو قيس بن الأسلت الأنصارى ، وترك امرأته كبيشة
بنت معن الأنصارية ، فقام ابن له من غيرها يقال له : حصن ،
وقال مقاتل :

اسمه قيس بن أبي قيس ، فطرح ثوبه عليها ، فورث نكاحها
ثم تركها ، فلم يقربها ، ولم ينفق عليها ، يضارها لتفدى منه
بمالها .

فأتت كبيشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقالت :
يا رسول الله !

إن أبا قيس توفي وورث ابنه نكاحي ، وقد أضر بي ، وحول
علي ، فلا هو ينفق علي ، ولا يدخل بي ، ولا هو يخلي سبيلي ؟

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أقمدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله ، قال :

فانصرفت وسمعت بذلك النساء في المدينة ، فأتين رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وقلن :

ما نحن إلا كهياة كبيشة ، غير أنه لم ينكحنا الأبناء ، ونكحنا
بنوا العم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية :

« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ،
ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » (١)

(١) انظر كتاب « أسباب النزول - للواحدي النيسابوري - ص ٨٤ - والآية :

وحذر الله تعالى ونهى ، عن اكره الفتيات على البغاء ان اردن
تحصنا ، فقال سبحانه :

« ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصنا لتبتغوا عرض
الحياة الدنيا » (١) .

ثم زاد الاسلام اهتمامه بالمرأة حتى قدر لها نصيبها في الميراث ،
بعد ما طال حرمانها منه ، فقال سبحانه :

« يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » (٢)

واتسعت دائرة الاهتمام الاسلامي بالمرأة ، حتى اعتد براياها في
شريعته ، وأثبت العمل بشهادتها فقال :

« واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين ، فرجل
وامرأتان » (٣)

ثم حرص الاسلام على حقوقها المادية ، فأباح لها حرية التصرف
فيما تملكه لنفسها ، والذي أخذته في مقابل البضع ، حتى لا يحل
للزوج قهرها عليه ، أو استرداده منها فقال :

« ... وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، اتأخذونه
بهتانا وانما مبينا ؟ وكيف تأخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض ،
وأخفن منكم ميثاقا غليظا » (٤) .

وزاد حرص الاسلام ، وقويت عنايته بالمرأة الى أن وضع حدا
لتعدد الزوجات ، لا يصح بحال للرجل أن يتعداه ، وشرط لهذا
التعدد العدالة التي تحفظ للمرأة حقوقها ، وتصون لها عرضها ،
والا ... فواحدة . فقال سبحانه :

(١) النور ٢٤ : ٢٣ .

(٢) النساء آية : ١١ .

(٣) البقرة آية : ٢٨٢ .

(٤) النساء آية : ٢٠ ، ٢١ .

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى ، وثلاث ، ورباع ، فان ختمت الا تعدوا فواحدة » (١) .

وسما الاسلام بالمرأة ، حتى اوصى بها خيرا وحث على الاحسان اليها ، ولو كان في الاحسان اليها تحمل الاذى منها .

يقول صلوات الله وسلامه عليه ، فيما رواه ابو هريرة رضي الله عنه :

« استوصوا بالنساء خيرا ، فان المرأة خلقت من ضلع ، وان اعوج ما في الضلع اعلاه ، فان ذهب تقيمه كسرته ، وان تركته لم يزل اعوج ، فاستوصوا بالنساء » (٢) .

وعن عمرو بن الأخوش الجشمي ، رضى الله عنه ، انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، في حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله تعالى ، واثنى عليه ، وذكر ووعظ ، ثم قال :

« الا واستوصوا بالنساء خيرا ، فانما هن عوان عندكم ، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك ، الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فاهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ضربا غير مبرح ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ؛

الا ان لكم على نسائكم حقا ، ولنسائكم عليكم حقا ؛

فحقكم عليهن : ان لا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن في بيوتكن امن تكرهون ؛

الا وحقهن عليكم ، ان تحسنوا اليهن في كسوتهن ، وطعامهن » (٣)

قرر الاسلام ذلك للمرأة ، ولم يقف بها عند هذا الحد ، وانما اباح لها من الحقوق المدنية ، أن تمارس التجارة وأن تشتغل

(١) النساء آية : ٣ .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه الترمذي وقال حديثه حسن صحيح .

بالصناعة في مختلف الحرف ، ومهام الأعمال ، ما دام ذلك محوطا بالضمانات الشرعية التي تحفظ عليها عفافها ، وتصون لها أئويتها ، وتحافظ على كرامتها وعزتها .

والتاريخ الاسلامى حافل بالمثل النسائية العليا ، التي توضح المكانة الثقافية ، والأدبية ، والاجتماعية ، والأخلاقية التي احتلتها المرأة :

ولنضرب لذلك مثلا : بأم سليم صاحبة المكانة المشهورة ، والكرامة الماثورة ، والسيرة الحسنة .

فقد روى أن أم سليم رضى الله عنها ، قالت للرسول صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ! غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوما من نفسك ، نلتقى العلم عنك فيه .

فاجابها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووعدهن يوما .

وها هي السيدة أمينة بنت قيس الفقارية ، التي تعتبر نموذجا رائعا في الجهاد ، والتي قدر الرسول صلى الله عليه وسلم جهادها ، وحسن بلائها في غزوة خيبر .

وهذه أم عمار نسيبة بنت كعب ، التي تقاتل دون رسول الله صلى الله عليه وسلم :

عن أم سعد بنت سعد بن الربيع ، رضى الله عنهما قالت :

« دخلت على أم عمار رضى الله عنها ، فقلت لها : يا خالة ، أخبريني خبرك . فقالت :

خرجت يوم أحد ، أول النهار أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في أصحابه ، والدولة والريح للمسلمين ، فلما انكشف المسلمون ، انحزت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقامت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس ، حتى خلصت الجراح الى - قالت :

فرايت على عاتقها جرحا أجوف ، له غور ، فقلت لها : من أصابك بهذا ؟ قالت :

ابن قعنة ، اقماء الله ؛

فلما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقبل
يقول :

« دلوني على محمد - صلى الله عليه وسلم - لا نجوت ان نجا ،
فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، رضى الله عنه ، وأناس ممن
ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربنى هذه الضربة ،
ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان » .
وقال الرسول صلى الله عليه وسلم عنها :

« ما التفت يميننا ، ولا شمالا ، الا واراها تقاقل دونى » (١) .

وبلغ اهتمام الاسلام بالمرأة مبلغ العدل التام ، والاحسان
المتفضل ، حتى سوى بينها ، وبين الرجل في النواحي الروحية ،
وفي الجزاء على الأعمال الصالحة . يقول سبحانه :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنجينه حياة
طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٢) .

والمراد بالعمل الصالح هنا ، ليس هو مجرد العبادات
والتصرفات الأخلاقية فحسب ، وإنما هو يشمل عمل المرأة ، وعمل
الرجل في الميادين الإصلاحية ، والمجالات الاجتماعية .

فصاحب العمل في أى نوع : إذا أداه وأتقنه ، وأجاده كما يجب
وعلى ما ينبغي ، كان هذا العمل ثمرة ناضجة ، صالحة لصاحبها في
الحياة الدنيا ، وحياة طيبة له في الدار الآخرة .

وصدق الله العظيم اذ يقول :

(١) أنظر كتاب « الجهاد في الاسلام »

(٢) النحل آية : ٩٧ .

((ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، انا لا نضيع اجر من احسن عملا ، أولئك لهم جنات تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعنا)) (١) .

ويأمر الله تعالى عباده بالعمل ، ويرغبهم فيه ، ويحثهم عليه ، ويوجههم إلى ما فيه صلاحهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فيقول في عموم شامل ، وفي شمول مطلق :

((وقل اعملوا فسمي الله عملكم ورسوله ، والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون)) (٢)

والمعهود كما هو معروف ، ان الخطاب للرجال ، والنساء شقائق لهم ، يدخلن فيه ، ويشملهن معهم .

ويستجيب الله سبحانه ، دعاء من دعاه ، ذكرنا كان أو أنثى ، ما لم يكن فيه اثم ، أو قطعة رحم ؛

يقول سبحانه :

((فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واوذوا في سبيلي ، وقتلوا وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب)) (٣) .

وغاية ما يمكن اجماله ان نقول :

ان الاسلام حقق السعادة الدائمة للانسانية في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، بالقضاء على كثير من العادات السيئة ؛ على أن تحقق هذه السعادة لم يكن بمجرد القضاء على العادات السيئة كما ذكرنا

(١) الكهف آية : ٣٠ ، ٣١ .

(٢) التوبة آية : ١٠٥ .

(٣) آل عمران آية : ١٩٥ .

فحسب ، وانما حققها بأسمى معانيها ، بما أتى به أولا من توحيد العقائد الى عقيدة واحدة في الله وحده ، وبما أمر به أيضا ، وحث عليه ، ووجه اليه من أنواع المعبادات والمعاملات التي أخفى الكثير من حكمها ، لأسرار يعلمها الله سبحانه ، وربما كان منها : أن يجد الانسان في جميعها ، ويحرص على دوام العمل لينال عظيم ثوابها ، ولأجل أن يعطى نفسه الحظ الوافر من المواظبة على الطاعة ، والامتثال لأمر الله سبحانه ، دون علة ينتظرها ، حتى لا يفوته نيل ما أعدده الله عليها من ثواب ، أو نعيم مقيم في الدار الآخرة .

ونقلنا عما رواه شيخنا العارف بالله تعالى ، الدكتور عبد الحليم محمود ، عن اسلافنا رضى الله عنهم قالوا :

« أخفى الرب أمورا في أمور لحكم أ

ليلة القدر في الليالي ، لتحبى جميعها ؛

وساعة الاجابة في الجمعة ، ليدعو في جميعها ؛

والصلاة الوسطى في الصلوات ، ليحافظ على الكل ؛

والاسم الأعظم في أسمائه ، ليدعى بالجميع ؛

ورضاه في طاعته ، ليحرص العبد على جميع الطاعات ؛

وغضبه في معاصيه ، لينزجر عن الكل ؛

والولى في المؤمنين ، ليحسن الظن بكل منهم ؛

ومجئ الساعة في الاوقات ، للخوف منها دائما ؛

وأجل الانسان عنه ، ليكون دائما على أهبة » (١) .

وبعد : فان الاسلام منذ أن جاء ليحرر الشعوب ، هدم ما كان

(١) انظر كتاب « شهر رمضان » لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود

ورضى الله عنه .

قبله من عادات سيئة ، وقضى على ما قضى من عقائد فاسدة ، حتى استطاع أن يبني مجتمعا جديدا ، ملؤه العدل ، والاحسان ، وثماره الفضيلة والسعادة ، وتجارتها انتشار الأمن والخير ، وربحه الاستقرار ، والحب ، والاطمئنان ، والسلام .

ونختم هذا الفصل الذى نحن بصدده بما رواه الامام مسلم رضى الله عنه ، لما فيه من مناسبة طيبة ، وحقيقة عن الاسلام مباركة .

عن يزيد بن أبى حبيب ، عن ابن شماسه المهرى قال :
حضرتنا عمرو بن العاص ، وهو فى سياقة الموت ، فبكى طويلا ، وحول وجهه الى الجدار ، فجعل ابنه يقول :
يا ابتاه ! أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بكذا ؟
أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بكذا ؟ قال :
فأقبل بوجهه ، فقال :

ان أفضل ما نعد ، شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، انى قد كنت على أطباق ثلاث :

لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منى ، ولا أحب الى أن أكون قد استمكننت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال ، لكنت من أهل النار ؛
فلما جعل الله الاسلام فى قلبى ، آتيت النبی صلى الله عليه وسلم ، فقلت :

أبسط يمينك فلا يبعك ؟ فبسط يمينه ، قال :

فقبضت يدى ، قال : مالك يا عمرو ؟ قال . قلت :

أردت أن أشرط ؟ قال :

تشرط بماذا ؟ قلت : أن يغفر لى . قال :

أما علمت أن الاسلام يهدم ما كان قبله ؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟

وما كان أحد أحب إلى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه ، أجلالا له ،
ولو سألت أن أصفه ما أطق ، لأنني لم أكن أملأ عيني منه ، ولو
مت على تلك الحال ، لرجوت أن أكون من أهل الجنة .

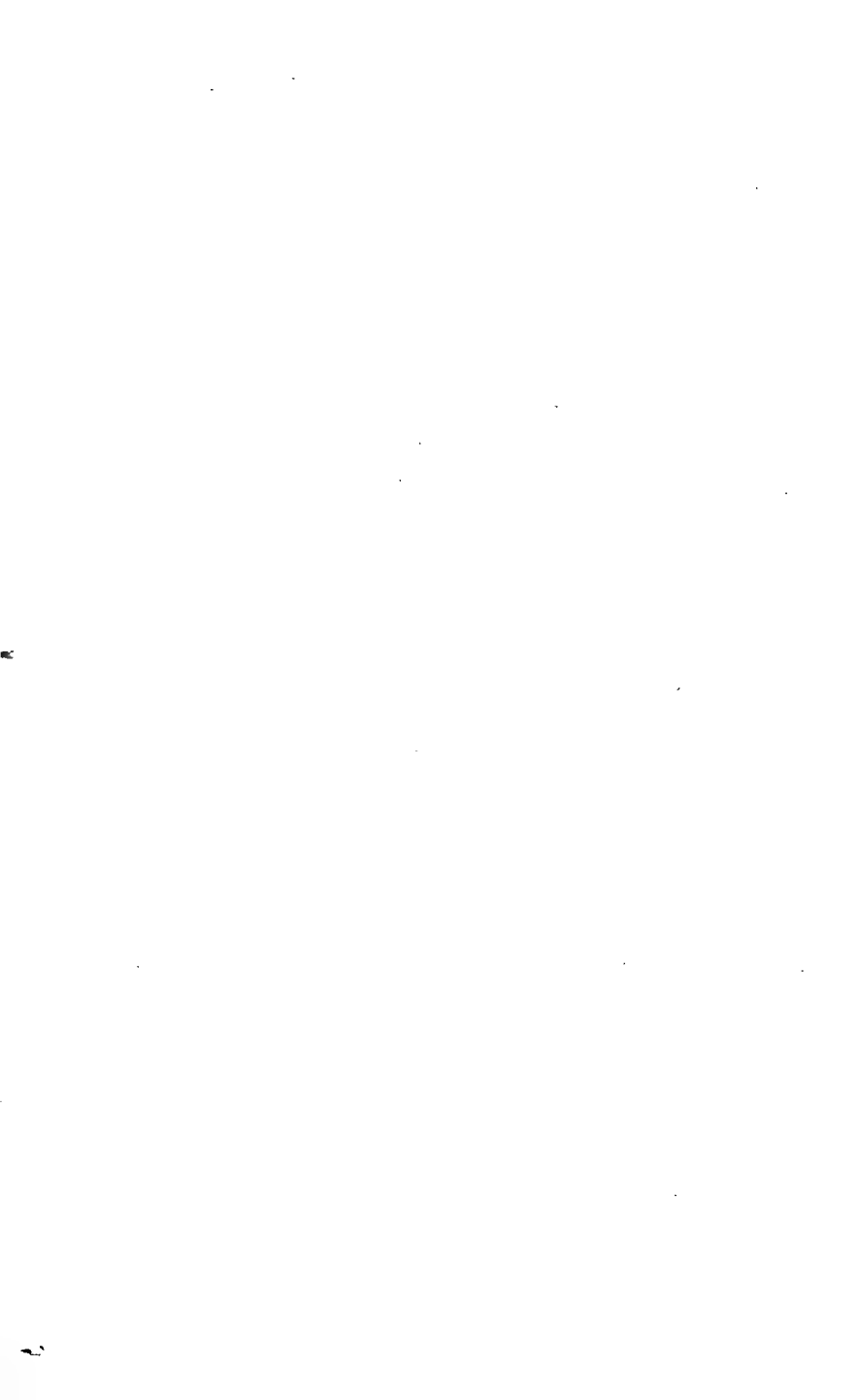
ثم ولينا أشياء ، ما أدري ما حالي فيها ؟

فإذا أنا مت فلا تصحبنى نائحة ، ولا نار ، فإذا دفنتموني
فشنوا على التراب شنا ، ثم اقيموا حول قبري قدر ما تنحرو
جزور ، ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم ، وانظر ماذا أراجع به
رسول ربِّي « (١) اهـ

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه ، رضي الله عنه .

الباب الثاني

- الاسلام بين الأمس واليوم
- شبهات مردودة
- الاسلام يسير العقل وينسجم مع واقع الحياة



الفصل الأول

الاسلام بين الامس واليوم

بيان وتذكير :

يقول الله تعالى :

((ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم ، وأن الله سميع عليم)) (١) •

سبق ان ذكرنا ان الاسلام هو دين الله الخالد ، وحجته البالغة ، ورسالته الدائمة ، منذ أن بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها •

وأن هذه الرسالة المحمدية ، أيدها الله بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه لن يشقى من عمل به لميعاده ، ولن يضل من بعده من اتبعه •

وأن هذا الكتاب هو الدستور السماوى الذى صلح به حال الأمم ، منذ أن اختار الله الاسلام دينا لخلقه ، وارتضاه لهم شريعة بمحض ارادته ؛

وكان هذا الكتاب : عصمة لمن تمسك ، وهداية لمن اهتدى ، وسببا موصلا لمن قصد ؛ لأنه معصوم عن الضلال ، برىء من النفاق والشقاق ، محفوظ عن الزيف والانحراف •

ولما كان القرآن الكريم وهو بهذه المثابة ، المرجع الأساسى للدين الإسلامى ، ومصدره القوى ، فإن الاسلام كذلك ، دين معصوم ، عصمه الله منذ أن اختاره وارتضاه ، وقدره وكماله ، وقدر له كل ما يليق به من كمال •

(١) الانفال آية : ٣٥ •

لا سيما وأنه دين قرر وحدة الاله الواحد ، واثبت التوحيد الخالص للخالق القوى الرازق ، وأبطل الشرك ونفى الكفر ، وأبعد الضد والند ، واثبت أن الله هو :

الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

اشتمل الاسلام على ذلك منذ مجيئه ، حتى استقر له الحال ، وتمكن به المقام ، واتسعت مجالات دعوته ، وعم عبيرها الخالد ، وآمن به المؤمنون ، وعلموا أنه الحق فأيدوه واتبعوه .

كان هذا في الواقع : منذ قرون مضت ، منذ أن اخلص له اتباعه ، وساروا على نهج رسوله ، واتبعوا النور الذي أنزل معه . أما اليوم : فان حب الامانة ، وصدق الحديث ، ألزمني أن أقرر باخلاص ، حقيقة لا مناص عنها بحال .

تلك الحقيقة ، هي :

أن الدين الاسلامي ، الذي ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مرارة الجهاد في تقويم أسسه ، وأريق دماء كثير من الصحابة في سبيل نصرته ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه من التضحية حتى كان منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، حتى اشتد آزره ، وقوى سلطانه ، وعز جاهه ، وسادت كلماته .

هذا الدين الذي أسسه الرسول الاعظم ، بكل ما له وما عليه ، وباع الكثير أرواحهم من أجله ، أصبح اليوم وقد خارت قواه ، ووهنت عظامه ، وحارت بين الهدى والضلال رسالته ... ولا عجب ... فاننا اليوم في غفلة تامة عن كتاب الله سبحانه ، واعراض كبير عن شريعة السماء ، واستخفاف شرير بمبادئ هذا الدين الاسلامي ، وانحراف منحرف عن طريق الله المستقيم ، وضلال مضل عن هدى الله القويم ، وابتعاد كلي عن نهج من أرسله الله رحمة للعالمين .

ذلك : أننا اليوم وضعنا الدين في الجوانب ، واستبحنا المنكرات المردولة في الأندية والشوارع ، واستخفنا بالقيم ، وضعنا الكرامة ، ورفعنا بأنامل الفسق أستار الحياء ، حتى عمت الفتن المهلكة ، وانتشر الفساد الذي هو نارها الموقدة ، ووقع الفسق

والعار ، وعم النفاق والضلال ، وانتشر الخبث ، وتلطخت صفحات الحياة بالخزي والعار .

ذلك كله : حاصل بما أحدثناه بأعمالنا الآثمة ، وتتبعنا خطاه بأهوائنا المنحرفة ، وأظهرناه بأرائنا المفرضة الخاطئة .

يقول سيدنا على رضي الله عنه ، مبيناً أن وقوع الفتن التي لها أثرها السيئ ، الذي تعم به البلوى ، نتيجة منبعثة عن تتبع الأهواء :

« إنما بدء وقوع الفتن ، أهواء تتبع ، وأحكام تبتدع ، يخالف فيها كتاب الله ، ويثولى عليها رجال رجالاً (١) ، على غير دين الله ، فلو أن الباطل خلع من مزاج الحق ، لم يخف على المرتادين ، ولو أن الحق خلع من لبس الباطل ، انقطعت عنه ألسن المعاندين ؛ ولكن يؤخذ من هذا ضعف ومن هذا ضعف ، فيمزجان ، فهناك يستولى الشيطان على أوليائه ، وينجو الدين سبقت لهم من الله الحسنى » اهـ .

وحقاً ما أخبر به الإمام ، فقد وقعت بنا الفتن منذ انحرافنا عن طريق الجادة والصواب ، والناظر في مجتمعنا اليوم يجد تماماً أننا في حالة ضالة ، وشعور خبيث ، وقلوب مظلمة .

لا نفكر في ديننا ، ولا نحاول إصلاح أنفسنا ، حتى ضللتنا الطريق ، وتخلفنا عن ركب السلف الصالح ، وتركنا كتاب الله تعالى ، وهجرنا سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفهمناهما فهماً معوجاً ، لا يتناسب مع جلال الله وعظمته ، ولا يتفق وقداسته . رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى أنك لترى المسلم ، واليهودى ، والقبضى ، يتعاشرون سنين عدة ، فلا تستطيع أن تميز أحدهم عن الآخر .

الغالبية العظمى لا تدخل مسجداً ، ولا تقيم لله فريضة ، ولا تحترم للإسلام شعيرة .

الكل يلهو ويلعب ، ويرتع ويتمتع ، ويشرب الخمر ويأكل الربا ، ويهتك الأعراض ويفعل الزنا ، ويسب الدين ويتفنن في الأذى .

(١) أى يستعين عليها رجال برجال

فتيات كاسيات عاريات في الطرقات متبرجات ، مائلات مميلات
في الشوارع مبعثرات ؛ فهن للشيطان حبال ، وللشهوات أماكن ،
فلا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها .

وشباب مخنث متسكع ، للخلاعة منساقا ، وللمجون مسامرا ،
وللانحراف مهللا ، وللريبة متدللا ، والى المنكرات منحرفا ، والى
الموبقات متسابقا ، وللفجور منسجما ، وللفسق مشجعا ، وللسفاهة
والحقارة مستأجرا ، وللأهواء والشياطين مستعبدا .

ويعبر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، عن هذين الصنفين
أيقول فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه :

« صنفان من أهل النار ، لم أرهما بعد :

نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، على رؤوسهن أمثال
أسنة البخت المائلة : لا يرون الجنة ، ولا يجدن ريحها .

ورجال معهم سياط كأذناب البقر ، يضربون بها الناس » اهـ
وغیر هذا :

سفك للدماء يحدث ، وزهوق للأرواح من غير حل يحصل ،
واختلاس للأموال ينتشر ، وحقوق للضعفاء تفتصب ، ورشوة في
الوظائف تؤخذ ، واستحلال للمحرمات يحصل .

أموال بالباطل تؤكل ، وحقوق لليتيم تهدر ، وعطف على
الصفار يعدم ، واحترام للكبار يمنع .

قداسة للعلم أهملت ، وكرامة للعلماء أهينت ، واقتداء بالكتاب
ترك ، وحرمة للسنة انتهكت ، وأمانة على الأعراض ضيعت ،
وصدق في التجارة والتجار ، رفع

هذا وغيره ، من الأوضاع التي انقلبت بأصحاب الأهواء ،
وغلبتهم شقوتها ، وأضلهم زخرفها ، حاصل منتشر ، سائد في
المجتمع الذي انحرف اليوم باتباعه ، وانحلت عرى الإيمان من
شبابه وفتياته .

ويصور الامام على كرم الله وجهه ، انقلاب الأوضاع عند اهل الزيف والأهواء فيقول :

« ... آثروا عاجلا ، وأخروا أجلا ، وتركوا صافيا ، وشربوا آجنا ، كأنى أنظر الى فاسقهم وقد سحب المنكر فالفه ، وبسئ به وافقه ، حتى شابت عليه مفارقة ، وصبغت به خلائقه ، ثم أقبل مزيدا كالتيار ، لا يبالي ما غرق ، أو كوقع النار في الهشيم ، لا يحفل ما حرم .

أين القلوب التي وهبت لله ، وعوقدت على طاعة الله ؟

ازدحموا على الحطام ، وتشاموا على الحرام ، ورفع لهم علم الجنة والنار ، فصرفوا عن الجنة وجوههم ، وأقبلوا الى النار بأعمالهم ، ودعاهم ربهم فنفروا وولوا ، ودعاهم الشيطان فاستجابوا وأقبلوا » اهـ

ان اخذه اليم شديد :

لهذه الحقائق المرة ، ولتلك الصور المنحرفة البشعة ، التي ان دلت فانما تدل على قسوة قلوب اهل الأهواء ، وكلوح انحرافهم المنحرف عن طريق الجادة والصواب ، غضب الله علينا ، وسلط علينا بذنوبنا من لا يخافه ولا يرحمنا .

فتكالبت علينا دول الفدر والبغى ، وتآلبت بلاد الطغيان والظلم ، كل يريد القضاء علينا ، والتخلص منا ، وابتلانا الله - والعياذ به وحده - بحشرات الأرض ، تنزل من السماء ، وكأنها صواعق محرقة ، فأهلكت مزارعنا ، وأتلفت محاصيلنا ، وجعلنا الله في ضيق وفقر ، وبؤس وهم ، وشقاء وحزن ، وما ظلمنا الله ولكن الناس بمعاصيهم ، وسوء انحرافهم ، وفجور ظلمهم ، وضلال أهوائهم ، انفسهم يظلمون .

فما أصابنا ما أصابنا الا بكثرة ذنوبنا وسوء أعمالنا (١) ، وما ابتلينا الا بشدة انحرافنا وضلال قلوبنا ، وما قصمنا بجبرتنا الا بعد ان أمهلنا أدهارا طويلة ... ولئن أمهل الله الظالم ، فلن

(١) مصداق ذلك قول الله سبحانه : « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت

أيديكم » .

يفوت أخذه ، وهو له بالمرصاد ، على مجاز طريقه ، وموضع الشجى من مساع ريقه ، ومحل القذى من عيونه .

يقول صلوات الله وسلامه عليه ، فيما رواه الامام مسلم ، عن أبى موسى رضى الله عنه :

« ان الله ليملى للظالم ، فاذا أخذه لم يفلقه ، ثم قرأ :
« وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ، ان أخذه اليم شديد » (١) .

ويقول الله تعالى :

« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصادون » .

بهذا البيان الالهى الذى جاء به القرآن الكريم ، والذى جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، تبين : ان بهذا الفسق الفاسق ، وبهذا الانحراف المنحرف : استحل أهل الأهواء بزعمهم ما حرم الله ، وفسقوا بأهوائهم عن أمر ربهم ، حتى انتشر الفسق ، وعم البلاء ، وظهر فى البر والبحر الفساد .

يقول سبحانه :

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت ايدى الناس » (٢) .

فلو ان الله تعالى ، اذن للجبال أن تدك ، وللأرض أن تبدل ، وللسماء أن تقع ، وللشمس أن تطمس ، وللجبار أن يأتى بالعذاب على الذين لم يأن لهم أن تخشع قلوبهم للاستقامة ، وتقوى الحق سبحانه ، لو اذن الله بذلك كله ، لكان منه عدلا .

ولو أنه تعالى ، أصاب الناس اليوم بما أصاب الأمم من قبل ، أو أخذهم بما اكتسبوا ، ولم يترك على ظهر البسيطة من دابة يستعين بها الانسان فى مهام حياته ، أو نعمة يسخرها فى قضاء مصالحه ، لكان ذلك كذلك من مخض عدله ، ولكن سبقت رحمته فكان من عظيم عفوه :

(١) رواه الامام مسلم .

(٢) الروم آية : ٤١ .

« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورها من دابة ، ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى .. (١) » .

ذلك ان الدنيا ازينت لأهل الأهواء والشهوات ، ففرتهم حتى صاروا يرتعون في ملذاتها دون تدبير ، ويطيشون في نعيمها دون تعقل ، وازخرقت لهم الى ان أعمتهم عن النظر في الدليل ، وصرفتهم عن الاعتبار ، حتى انحطت فيهم الأخلاق ، وانعكست الآيات ، وانقلبت الأوضاع ، وضاعت الحقائق ، وفسدت العقائد ، وآثر الناس الشر على ما فيه من قبح ، على الخير بما فيه من فضائل ، وأصبحت الأديان العظمى اليوم بذلك كله ، فريسة المتمردين ، ولعبة المجرمين ، ولهو الأثمين ، وخدعة الماجنين ، وفتنة المناققين ، وغرور المرائين الضالين .

بل انها أصبحت مهذا للحضارة المزيفة ، والمدنية المنحرفة ، ومصدرا للثقافة الخادعة ، ومسرحا للفوضى والانحلال ، وقاعدة للجبايرة الكهان ، ومحورا للجدل والخصام ، ووسيلة لترقى المناصب وعظم الجاه .

انهم ضلوا : حتى فقدت الأديان عندهم روحها ، وتغير شكلها ، واختلفت معالمها ، وضلت طرقها ، وتحيرت بين متاهات الجبن والضلal غايتها ، حتى لو بعث رسلها الأولون اليوم لم يعرفوها ، انهم ضلوا : حتى فقد العالم اليوم معالم الدين ، وتحير أمره بين الشك واليقين ، لا يستطيع أن يحمل للعالم رسالة صافية ، ولا للأمم دعوة سامية .

لا يملك من الدين السماوى شرعا صافيا ، ولا من النظام البشرى حكما قويا ، حتى ذهبت بالناس المذاهب ، وتاهت بهم الفياهب ، وخدعتهم الكواذب ، فصاروا كأنهم أشباح بلا أرواح ، وأرواح بلا أشباح ، ونساك بلا صلاح ، وتجار بلا أرباح ، وأيقاظ نوم ، وشهود غيب ، وناظرة عمياء ، وسامعة صماء ، وناطقة بكاء ، اخذ الباطل منهم مأخذه ، وركب الجهل فيهم مراكبه .

يقول الامام على كرم الله وجهه :

« اخذ الباطل مأخذه ، وركب الجهل مراكمه ، وعظمت الطاغية ، وقلت الداعية ، وصال الدهر صيال السبع العقور ، وهدر فنيق الباطل بعد كظوم ، وتواخى الناس على الفجور ، وتهاجروا على الدين ، وتحابوا على الكذب ، وتباغضوا على الصدق .

فان كان ذلك ، كان الولد غيظا ، والمطر قيظا ، وتفيض اللثام قيضا ، وتفيض الكرام غيضا ، وغار الصدق ، وفاض الكذب ، واستعملت المودة باللسان ، وتشاجرت الناس بالقلوب ، وصار الفسوق نسيانا ، والعفاف عجبا ، ولبس الاسلام لبس الفرو مقلوبا » اهـ

ورضى الله عن الامام على ، فقد اضحى الناس في فتن اشتعل اوارها ، خاصة : وان المسلمين اليوم انصرفوا عن الاسلام ، واتبعوا التقاليد العمياء ، والعادات السيئة . نباعا اقتدوا فيه بشياطين المدينة المزعومة ، ونزغوا فيه بنزغات الحضارة الغربية المدسوسة ، حتى انك لتراهم يتشدقون بالاقوال الكاذبة ، ويتقبلون في فتن انجذم فيها جبل الهداية والرشاد ، بل انك لتراهم . يخضعون لتعاليم هذه المدينة في ذل ذليل ، الى ان اختلفت بهم الاصول ، وتشتتت الأمور ، وضاق المخرج ، وعز النصير ، وعميت المصادر ، وانتشرت المفاصد ، وخمل الهدى ، وشمل العمى : وعصى الرحمن ، ونصر الشيطان ، وخذل الايمان وانها ت دعائمه ، وتنكرت معالمه .

انهم اطاعوا الشيطان ، وسلكوا مسالكة ، ووردوا مناهله ، وحتى اصبحوا على حالة لم يدعوا فيها لله محرما الا استحلوه ، ولا عددا الا تقضوه ، ولا بيتا الا دخله ظلمهم : ولا ناديا الا حل فيه منكرهم .

بذلك كله : قامت فتنة طيشهم الطائش ، التي اجاد وسائلها المنكرة ، قوم اضلتهم الامانى عن فهم الاسلام ، فهما يليق وقداسته ،

والزمتهم طباعهم الخبيسة أن يدنسوا أعراضهم ، وأعراض من حولهم من أفراد المجتمع الذين لم يعيروا لهذا الخبث الخبيث التفاتا فيتجنبوه ، أو يقدروا للإسلام حرمة فيحترموا شعائره ، ففسقوا ، حتى أصبح الفسق اليوم في الشباب ظاهرة منتشرة ؛ والتخنت فيهم عادة مبتكرة ، وبذلك فتنوا في أعراضهم وأموالهم ، وأولادهم ونسائهم ، وأصبحوا يمنون بدينهم على ربهم ، ويستحلون الحرام بشبهاتهم .

يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« ان القوم سيفتنون بعدى باموالهم ، ويمنون بدينهم على ربهم ، ويتمنون رحمته ، ويأمنون سطوته ، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة : والأهواء الساهية .
فيستحلون الخمر بالنبيذ ، والسحت بالهدية ، والربا بالبيع (١) » .

وصدق صلى الله عليه وسلم ، فالتناس اليوم قتل فيهم حب الشهوات معانى الانسانية الراقية ، حتى جعلهم لا يفكرون الا فيما يفضب الله عز وجل ، ويرضى أهواءهم ، ولذلك غضب الله عليهم ، وحلت بهم نقمته ، « ومن يحال عليه غضبى فقد هوى » .

زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فراوه حسنا ، وابتعدوا عن هدى نبيهم ، دون أن يتدارك أحد منهم : أن من مقدور الله سبحانه - فوق ما نزل بهم - أن ينزل عليهم من السماء آية ، تخضع أعناقهم ، أو يخسف الأرض بهم ، أو يسقط السماء كسفا عليهم .

« ان نشأ نزل عليهم من السماء آية ، فظلت أعناقهم لها خاضعين (٢) » .

(١) من حديث طويل رواه الامام على رضى الله عنه . انظر نهج البلاغة .

(٢) الشعراء آية : ٤٠ .

((أفلا يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ؟
ان نشأ نخسف بهم الأرض ، او نسقط عليهم كسفا من السماء ،
ان في ذلك لآية لكل عبد منيب (١))) .

وهذا قليل من كثير مما أعده الله لمن أعرض عن آياته الكثيرة ،
ولم يتبع هدى الله تعالى ، والايمان بما أمر به .

انظر لفرعون : وهامان ، وقارون ، بل انظر لقوم عاد ، وثمود ،
وما نزل بهم من هلاك ثمود بالطاغية ، وعاد بريح صرصر عاتية .
يقول سبحانه ، عن هؤلاء ، وأولئك :

((فاما ثمود فاهلكوا بالطاغية ، واما عاد فاهلكوا بريح صرصر
عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما ، فترى القوم
فيها صرعى ، كأنهم اعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من تاقية ؟
وجاء فرعون ومن قبله ، والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول
ربهم : فاخذهم اخذة رابية (٢))) .

وغير ذلك مما هو غاص به القرآن الكريم ، من آيات الزجر
والردع ، والعقاب والتعذيب ، كما انه غاص كذلك بآيات التبشير
والرجاء ، والطمع في الرحمة والغفران ، وفضل الله واسع يؤتیه
من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وما من شك : ان القرآن الكريم يحدثنا في صراحة صريحة ،
وفي وضوح واضح ، ان الهلاك والدمار ، بل وضيق الحياة ، وضنك
المعيشة : نتيجة منبثة لا محالة ، عن عدم التدبر والاعتبار ، بما
في الكون من آيات الله سبحانه .
يقول سبحانه وتعالى :

(١) سبا آية : ٩ .

(٢) الحاقة آية : ٥ - ١٠ .

« ومن أعرض عن ذكرى ، فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ؟

قال :

كذلك انتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة ، أشد وأبقى .

افلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم،
ان في ذلك لآيات لأولى النهى (١) »

بيان قرآنى حكيم . وانذار الهى عميق ، فيه الكفاية للمكتفى ،
والرشاد الموصل الى الله لمن اهتدى ، ولكن أصحاب القلوب الميتة ،
التي لا ينبثق منها الايمان ، يؤثرون حب الشهوات أرضاء لقرائزهم ،
ويحبون التشدد بالمفتريات والخزعبلات التي طالما اختلقوها
اختلاقا ، لم يراعوا فيه لله حرمة ، ولا للاسلام شعيرة ، ولا للأحلاق
الفاضلة قانونا ، حتى كادوا أن يقضوا على الفئة القليلة التي
لا زال الايمان متغلغلا في قلوبها ، ويجرى مع الدم حيث جرى في
عروقها .

بذلك عظم الجرم ، واصبح مجتمعنا الاسلامى اليوم في اشكال
مشكل . بذر بذرته الخبيثة الاستعمار الغربى ، ودس في أبنائه
يده الصفراء ، التي لوث بها الكثير من الأعراض ، وأفسد بها
الأكثر من الأخلاق ، منذ أن صدق الشباب والفتيات زعمه ،
ودانوا بمبادئه ، واستجابوا لدعوته ، دون تأمل ، أو بحث في مبادئ
حضارته التي ألحها عليهم ، بصورته الابليسية الخادعة ، فأخذتهم
الى الانقياد له ، والاعجاب .

العمل الحتمى الجاد لتوجيه الفتيات والشباب :

اننا اليوم وقد استباننا حقائق انحراف افراد المجتمع : أصبح
لزاما علينا أن نعمل بكل ما نملك من جهد و طاقة ، حتى نوقظ هذا

المجتمع من سباته الطويل ، وناخذ بيده إلى التمسك بسياج الدين الاسلامى المنيع .

ونضرع الى الله أولا ، ان يمدنا بعونه ، وان يرزقنا رشده ، وان يمنحنا القوة التى نستطيع معها القضاء على تيار هذا الانحراف ، الذى وصل زحفه بالشباب الى مواطن الخسة ، والذى أصبح عندهم ، وكأنه المحور الأساسى الذى يرتكز عليه كل من رغب التطور الارتقاءى المزعوم .

ولأجل أن نستطيع العمل ضد هذا الانحراف ، فلا أقل من أن نهب أنفسنا للجهاد الطويل ضده : حتى تتهيا لنا الفرصة الكاملة ، التى نحب أن نمتلكها لاستغلال طاقاتنا ، وبذل جهودنا فى توجيه هذه الأفكار التى أخطأت تماما فى فهم الحضارة ، وان الاسلام يتنافى مع الحضارة والمدنية .

إذا ما فعلنا ذلك : فانا نستطيع القضاء على هذه الأفكار ، وما أنتجته ضد مبادئ هذا الدين القويم .

والعمل الجاد المتواصل ، الذى نريد أن نقوم به تجاه هذا المجتمع ينحصر فيما يلى :

١ - أن هذه الأفكار الاستعمارية الحولاء ، ليس سبيلنا أن نبحث عن مصدرها فحسب ، وانما يجب علينا تماما ، أن نوجه المجتمع توجيهها سليما يتفق وتنفيذ قوانين الشارع الحكيم .

والتوجيه السليم الذى يتفق وتنفيذ قوانين الشارع الحكيم ، انما هو التوجيه الى تقوى الله سبحانه وتعالى .

ذلك : ان تقوى الله سبحانه ، هى التقويم الكافى للعلاج الواقع ، الذى رسم الله طريقه بقوله :

« وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذالكم وصاكم به لعلكم تتقون (١) » .

بل أن تقوى الله سبحانه ، رأس الأمر كله ، وذروة سنامه .
وصراط الله المستقيم الذى أمرنا الله باتباعه ، طريق ميسور
لكل مسلم ، شاق وعمر على كل من عصى الله ، وكفر بأنعمه حتى
أذاقه الله لباس الجوع والخوف بما صنع .

انه ميسور لكل مسلم اطاع الله سبحانه ، فيما أمر به ، وانتهى
عن كل ما نهى عنه .

شاق وعمر على كل من عصى الله فيما أمر به : أو نهى عنه كذلك
فما على كل من رضى بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد
صلى الله عليه وسلم ، نبياً ورسولاً ، إلا أن يجد فى سلوكه هذا
الطريق ، حتى يتغلغل الإيمان فى قلبه ، وتتأسس عوامل التقوى فى
فؤاده ، فينجو من كل هلكة ، ويسلم من كل فتنة .

ذلك : ان تقوى الله تعالى ، مفتاح السداد ، وذخيرة المعاد ،
بل بتقوى الله سبحانه ، تكثر الأرزاق ، وتفيض الخيرات ، وتنزل
الرحمات ، وتأتى البركات من قبل الأرض والسماء .

يقول سبحانه مبيناً أن التقوى سبب ذلك كله :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من
السماء والأرض » (١) .

ويبين سبحانه ، أن التقوى كفارة للسيئات ، ومغفرة للذنوب
فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ، ويكفر
عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم » (٢) .

ويزيد الله تعالى شأن التقوى سمواً ، حتى يؤتى الله صاحبها
كفليين من رحمته ، ويجعل له نوراً يمشى به ، ويغفر له ما سلف
منه ، فيقول سبحانه :

(١) الاعراف آية : ٩٦ .

(٢) الانفال آية : ٢٩ .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ، يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نورا تمشون به ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم (١) » .

ويجعل الله تعالى ، التقوى مخرجا من كل مازق ، وسعة في الرزق من حيث لا يحتسب الإنسان ولا يدرى ، فيقول تعالى :

«ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، أن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا (٢) »

ولما في تقوى الله سبحانه من جمل هذه الفوائد ، كان الناس في حاجة ماسة إليها ، وضرورة ضرورية لها ، ولهذا كان التوجيه السليم الوحيد ، هو التوجيه الذي يوجه إليها .

٢ - ولأجل أن توجه المجتمع التوجيه السليم المطلوب الذي أشرنا إليه ، يجب علينا أن نتحسس سيره ، ونتابع خطواته ، حتى ندرك على يقين ، علة ما به من مرض ، ثم تقدم له الدواء الذي يتناسب وقطع هذا الداء الخبيث ، دون أن يكون هناك لبس ، أو خفاء .

٣ - إذا أردنا أن نحقق ذلك في سهولة ويسر - بعون الله تعالى - كان لا بد لنا من شرط ثالث ، وهو أن نكون على ثقة تامة ، ويقين صادق ، في صحة ما تقدمه من علاج ، فلا يصح أن نطلب من أحد الإيمان بهذا الدين قبل أن يؤمن به نحن أولا ، فإن الإيمان بالشئ فرع عن تصوره ، وفاقد الشئ لا يعطيه ، كما هو المعروف دائما .

وصدق الله العظيم اذ يقول :

« أأأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون (٣) » .

(١) الحديد آية : ٢٨ .

(٢) الطلاق آية : ٢ ، ٣ .

(٣) البقرة آية : ٤٤ .

ولن يتحقق الايمان في الغير ، الا اذا تحقق اولاً في الداعي المرشد ، اللهم الا اذا لاحظت الغير عناية الله سبحانه وتعالى .

والله سبحانه ، أطلق اسم المنافقين في القرآن الكريم ، على الذين يقولون ما لا يفعلون ، وصرح بالقت الكبير عنده على ذلك فقال :
« يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله ، ان تقولوا ما لا تفعلون (١) » .

ثم زاد القرآن بيان سوء حال المنافقين تصويراً ، فبين أنهم استحقوا هذه التسمية بسبب ما انطوت عليه قلوبهم ، من مرض ودهاء ، واعتقاد أنهم يخادعون الله ورسوله ، والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون .

بين القرآن حالهم ، وهم على ذلك كله فقال :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون .

واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ، قالوا انما نحن مصلحون ، الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون .

واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا انؤمن كما آمن السفهاء ، الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون .

واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم : انما نحن مستهزون .

الله يستهزيء بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون .

اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين (٢) » .

(١) الصف آية : ٢ ، ٣

(٢) البقرة : آية ٨ - ١٦

ثم يعقب الله سبحانه وتعالى ، بضرب المثل بعد أن ذكر حقيقة حالهم ، زيادة في التوضيح والتقرير ، وبيانا لاستحقاق عقوبتهم ، وسوء مجازاتهم في الدنيا فقال :

« مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما اضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون أصم ، بكم ، عمى ، فهم لا يرجعون .

أو كصيب من السماء ، فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، ان الله على كل شئ قدير (١) » .

وحتى لا تقع فيما وقع فيه المنافقون ، شرطنا فى الداعى المسلم : الايمان الصادق بكل ما يقول ، والاخلاص المخلص لكل ما يدعو اليه ، ليكون قدوة سالحة ، كما نحب أن نقدمها ، وعمله عملا يرضى الله ورسوله ، « انما يتقبل الله من المتقين » .

فاذا ما تحقق ذلك : كانت كلمته نافذة ، ودعوته مؤثرة ، ورسالته موفقة ، لأخذ مكانها فى توجيه المجتمع ، وقيادة الانسانية .

واذا فعلنا ذلك : اخذ الايمان القوى ، مأخذه الراسخ فى قلوبنا ، وكان نصيبنا من هذا الجهاد ، النجاح فى كل خطوة تقدم عليها ، وعمل نقوم به ، ثم يظهر أثر ذلك واضحا ، فيما نقول ونعمل .

وكما ان شرطنا الايمان فى الداعى على نحو ما ذكرنا ، فان من شرط الداعى كذلك ، أنه لا يخشى فى الحق لومة لائم : فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

ويلى ذلك من شروط الداعى ايضا ، معرفة الحياة نفسها ، والتمرن على دروبها ، وفهم أسرارها .

فان المؤمن الطيب القلب ، لن يستطيع أن يقوم بوظيفته في الحياة ، التي يعيش فيها ، إلا اذا عرف الحياة نفسها ، واتسعت احاطته بدروبها ومتاهاتها ، وأسرارها .

فاذا كان ساذجا ، أو قاصر النظر ، فسوف يغلب على أمره ، بل وربما يقف مكانه مقهورا .

وهذا أمر خطير ، لا يوصل الى غاية ، وربما يلقي بصاحبه في مواطن الزلل ، ويطرحة في مطارح لا يتوقعها .

أما المؤمن القوى ، الذي يعرف الحياة ، ويفهم أسرارها ، فهو وهى ، على طرفي نقيض .

ذلك : انه لم يخلق لأجل أن يندفع مع التيار في الضلال والالهام ، أو يسير الركب البشرى الزاحف ، حيث اتجه وسار .

وانما خلقه الله سبحانه ، وجعله حر الفكر والعقيدة ، قوى العزم والارادة ، لأجل أن يوجه المجتمع نحو عبادة الله وحده ، وينتشله من اوضاع الحضارة ، وترهات المدنية ، ثم يفرض على المجتمع ارادته ، بصفته انه صاحب الرسالة في الخلق ، والخلافة في الارض ، والتوجيه في المجتمع .

فهو المسئول عن هذا العالم ، حتى يسود اتجاهه ، ويكون مقامه مقام الارشاد والتوجيه ، والمسئولية العظمى ، فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين مجتمع عاش فيه .

فاذا ما تنكر له الزمان ، وعصاه المجتمع ، وضاعت الحياة به ذرعا ، لم يكن له أن يخضع ويستسلم ، ويضع أوزاره ، بل عليه أن يجد في ارشاده ، ويكثر من وسائل التوجيه له ، وأن يظل في صراع دائم معه ، وعراك طويل من أجل تقويمه ، حتى يفى لنصحه ، أو يقضى الله فيه أمره .

أما الخضوع والذل ، فان ذلك للأحوال القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر - قبل النفاذ - من شأن الضعفاء الأذلاء .

أما المؤمن القوى ، فهو بنفسه قضاء الله الغالب ، وقدره الذي لا يرد .

ولأجل أن نكون أوفياء ، لا بد وأن نكون على أهبة الاستعداد والوقوف بالمرصاد أمام هذا الزحف الجارف ، زحف الشباب المنعكس ، زحف الفتيات المتبرجات ، زحف الحضارة المتملقة ، زحف المدنية الخادعة .

خاصة ، ونحن اليوم في عهد أخذ الوعي الفكرى فيه ارتقاؤه العلمى الى الامام الطويل ، خطوات فخطوات .

فمنا المؤمن النابه المتدين ، ومنا المسلم الفطن المتيقظ ، ومنا الدارس الواعى المثبت ، ومنا العالم العبقري المنتج ، ومنا المستقيم الاجتماعى المتحضر ، ... ومنا الحافظ لكتاب الله الكريم المتفقه ، ومنا المتمكن الامين على سنة النبى صلى الله عليه وسلم .

ولو ان هذه الفضائل ، أخذت بيد بعضها البعض متماسكة متعاونة ، لاستطاعت لا محالة ؛ النهوض بالامة الاسلامية ، والسمو بأفرادها الى ذروة الكمال المنشود ، ولاستطاعت أن تخلص الشباب والفتيات كذلك من كل باطل مشوب ، ولكتب الله سبحانه وتعالى ، للامة القلبية ، على من سواها ، على ممر السنين والايام ، ومحقق الدل والهوان كل من عاداها من أهل الانحراف والزيغ والأهواء . وكان لها فى النهاية الفوز والنجاة ، والقيادة الرشيدة التى تأخذ بيد أبناء الاسلام الى الفضائل المرجوة ، والمثل العليا الاسلامية ، والا لما كان لشيء من ذلك معنى ، فان قيمة الشيء فيما يصدر عنه من نتائج .

وبعد : فيقول الله تعالى :

« فلولاً كان من القرون من قبلكم اولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ، الا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أتروا فيه ، وكانوا مجرمين ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم أهلها مصلحون » (١)

(١) مود آية : ١٦ .

الفصل الثاني

شبهات مردودة

يقول الله تعالى :

« ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ، ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين » (١)

نشا الاسلام في بلاد مستقلة - كما سبق ان ذكرنا - لا سلطان لاحد عليها ، من بنى الانسان .

نشا في مجتمع لم يتكامل بعد ، فما كان عليه الا ان يتولى تنظيم هذا المجتمع ويأخذ بيده - بالتوجيه ، والنصح ، والارشاد - الى عوامل التنمية والتقدم والارتقاء ، ايا كان نوع هذه التنمية ، وايا كان نوع هذا التقدم والارتقاء ايضا ، ما دام ذلك منوطا بالشرف ، محصنا بالكرامة ، متسما بالسمو الاخلاقي ، الذي يرقى به الى فضائل المثل ، وذرورة الاخلاق الكريمة .

لذلك وضع الاسلام للمجتمع قوانينه ونظمه التي تدير حركته ، وتنظم شئونه ، وتأخذ بيده الى الكمال الذي يصبو اليه ، والامل الباسم الذي يجب ان يتوكأ عليه .

من اجل ذلك : اخذ الاسلام يتولى سلوك المجتمع ، ويتابع سيره ، وعمله ، حتى استطاع ان يوحد - بما لديه من نظم وقوانين - بين عالم الارض وعالم السماء ، في مجتمع واحد ، يعيش فيه الفرد كما تعيش فيه الجماعة ، لا ينفصل فيه النشاط العملي ، عن النشاط الديني .

(١) هود آية : ١٨ ، ١٩ .

قلم يكن من صالح الاسلام اذن أو من مصلحة أتباعه - وهو على نشأته الجديدة هذه ، ووظيفته الحادثة تلك - أن يجعل أتباعه في عزلة عن الحياة العملية الواقعة ، كما ظن ذلك قوم لا خلاق لهم .

فالاسلام لم يكن مضطرا أن يضيق دائرة عمله ، خشية سلطان عليه ، فهو سيد نفسه ، وميدان عمله هو الحياة البشرية ؛ كما أراد الله له ؛

فلو كان الاسلام في عزلة عن الحياة بأصحابه وأتباعه ، كما يقولون : لما استقام هذا الدين الاسلامي ، ولا استقر له حال ، ولا نفذت له كلمة ، ولا استجيبت له دعوة ، ولا ارتفعت له راية ؛ وهذا مشاهد البطلان ، واضح الفساد ؛

اذ أنه ثبت يقينا ، استقامة الاسلام ، واستقرار حاله ، ونفاذ كلماته ، واستجابة دعوته ، وارتفاع رايته خفاقة عالية .

فلن يرتاب باحث مفكر اذن ، ولا يتأتى لناقد بصير ، أن يشك في قداسة هذا الدين ، وأن فكرة المجتمع كانت واضحة في شعائره ونظمه على السواء .

خاصة : وأن المجتمع كان في حاجة ماسة ، وضرورة ضرورية ؛ لهذا الدين ، وأن الفكرة القوية الشائعة في كيانه : الأخذ بيد أتباعه نحو الكمال المنشود .

هكذا كان الاسلام ، وكذلك يكون أبدا ، دون أن يكون ما نقول اليوم عنه كذبا نفثريه ، لأجل أن نكسبه صفات تسمو به ، وإنما هو الاسلام بعينه ، كما فهمه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفهمه الصحابة الأجلاء من بعده ، رضوان الله عليهم .

ولكن على الرغم من صدق هذه الشهادة ، ووضوح ادلتها القوية ، فإن من بدء الحياة حتى النهاية ، وهناك معركة قائمة بين الحق والباطل .

هذه المعركة : أوقد نار فتنتها قوم غرثهم الاماني ، وأعماهم الضلال ، فاشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فخسروا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

زعم باطل وافتراء مختلق :

هناك أقوام يرون - وقد طبع على قلوبهم ، وسمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة - أن الدين الاسلامى ، لا يصلح للحياة ، مادام حافلا بهذه المبادئ التى تعكر صفو حياتهم ، وتحرم عليهم الخبائث التى يأتونها ، والمنكر الذى يزاولونه دون أن يشرعه لهم . لهذا زعموا ، وافتروا ، واختلقوا ، وظلموا ، واتهموا الاسلام ، دون أن يكون لهم حجة صادقة تساندهم ، أو اثبات شرعى يقوى كلامهم .

انهم يقولون عنه مثلا :

« أن الدين مجرد صلة ما بين العبد وربّه » .

قالوا ذلك عن الاسلام : وهم على حالة لا بأس عليهم فيها أن يستروحوا نسماته ، وأن يواجهوا صراع الحياة فى المجتمع ؛ ونسبوا إليه هذا الافتراء ، ظنا منهم أن الاسلام فى عزلته الوجدانية ، وفى تأخره الرجمى ... على أن الحقيقة لم تكن كذلك .

بل ان الحقيقة التى تنطق بها طبائع الأشياء : أن جفوتهم الجافة ، وعنادهم الشاق ، وخروجهم عن طاعة الحق ، ومروقهم من الدين ، وانحرافهم المنحرف عن مبادئ الاسلام كل ذلك ، جعلهم لا يفكرون فيعبدوا ، ولا ينظرون فيتدبروا ، حتى ذهبت بهم المذاهب ، وتاهوا بأفكارهم فى الفياهب ، وحملوا على الاسلام ، ما ليس منه ، ورفعوا أسلحتهم فى وجه دعوته ، وسلطوا السننهم الحداد ليحطوا من شأنه ، وينالوا من اتباعه .

لهذا نرى كل يوم من المتهمين لهذا الدين أصنافا عدة :

نرى شيوعية حمراء ، ووجودية حمقاء ، والحادية عمياء ، بل اتنا نرى : فرقا متنازعة ، وأحزابا متباينة .

نرى ذلك كله : يكيد للاسلام كيذا ، حتى أنهم يودون أن لو كان الاسلام على شفا حفرة من النار ، لذهبوا اليه مسرعين ، لا لينقذوه منها ، بل ليقذفوا به فيها .

انظر لقول من قال عن الاسلام منهم :

« ان تخلف المسلمين اليوم : انما هو ثمرة من ثمار هذا الذين الذى يأمر اتباعه ومعتنقيه ، بالتواكل والكسل ، والاعتقادات فى الاختراعات والبدع ، والكرامات وعدم الاعتراضات » اهـ .

وغير هذا من اتهاماتهم المرة الكثيرة ، حتى أصبح اليوم امر مجتمعنا الاسلامى جد خطير ، خاصة وأن هذا الاختلاق المفرض ، تسرب الى مفاهيم الكثير من الناس ، الذين لا يجيدون النقد ، أو البحث ، حتى استطاع - من طرف خفى - مس دعامة عقيدتنا الاسلامية ، التى هى فى أصل حقيقتها صافية نقية .

لهذا وجب على من له مسكة من العقل ، ان يهب للزود عن هذه العقيدة ، ضد هذا الغزو الفكرى المدسوس ، وأن يقف امام طغيانه ، ويظل فى صراع طويل معه ، حتى يجعل الله تعالى كيد هؤلاء الطغاة فى نحورهم ، ونرد أسلحتهم فى صدورهم .

ان الغرب جند قادته ومفكره ، لغزو الاسلام ، قاصداً من وراء ذلك : ان يشكك على الأقل أبناء الاسلام فى عقيدتهم ، أو يوقظ نار الفتنة بينهم ؟

قصد الغرب ذلك ، لما وجد ان اتباع الاسلام يزدادون حرصاً عليه ، ويتعاونون على التمسك به ؛

لما رأى الغرب ذلك ، ضاق بالاسلام ذرعاً ، وسلك طريقه الابليسية المتلوية ، ظناً منه ان يصل بذلك الى مبلغ علمه ، ومنتهى أمله ، فأخذ يقول على الاسلام والمسلمين تارة ، ويلقى بأثوابه الخبيثة ، ليزين للناس القبائح والشُرور أخرى .

وعلى سبيل البيان ، نذكر نصاً آخر ، لأعوان الغرب ، وأنصار الاستعمار ، الذى قال عن الاسلام فيه :

« ان الاسلام فى حقيقته ، دين يبعث على الخمول ، ويؤيد الكسل » اهـ .

قال عن الاسلام هذا القول ، ارضاء لاهواء الاستعمار ، فوجد هذا القول مكانه من قلوب للشيطان عليها سبيل وسلطان .

أما الذين أحسنوا الظن بالإسلام ، وأخلصوا النية له ، فانهم لم يدعوا لهذا الافتراء مجالا في قلوبهم بل ولا في نفوسهم ، وانما جندوا أنفسهم للدفاع عن الإسلام ، والجهاد في سبيله ، حتى كتب الله لهم الغلبة على أعدائهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم ، والبسم حل السعادة ، وحلاهم بتاج العزة والكرامة .

ونص آخر لمستشرق فرنسى يقول :

« ان الديانة المحمدية ، جذام وبرص ، فشوا بين الناس ، وأخذوا يفتكان بهم فتكا ذريعا ، بل هى مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى ، يبعث الانسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما ، الا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقرة الخمر ، ويجمع فى القبائح (١) » اهـ .

وكذب المستشرق ، بل وكذب عدو الاسلام والمسلمين الذى ان دل كلامه ، فانما يدل على ما تكنه افئدة الذين أضلتهم السبل ، واستحوذتهم الشياطين ، حتى لم يكن فى قلوبهم للاسلام مجال . وما من شك : ان هذا الافتراء ، لن يتأتى ان وهب الغيرة على دينه ، ان يقف جامدا امام من تولى زعمه ، حتى يصل الى أغراضه ، ويحقق أهدافه ، وانما يجب ، ويجب ، على كل مؤمن ، ان يهب للدود عن هذه العقيدة ، ضد انصار الاستشراق ، وان يشنها حربا شعواء ، تصلى نارها ذات هذا الملحد ، وأمثاله ، من الذين أوقعهم الشيطان فى أراذل العصيان .

ان هذا المستشرق ، هو فى الحقيقة : لا يسمى انسانا ، ولا يصح ان يطلق عليه انه مفكر ، لانه منذ أن زعم هذا الزعم ، انحط الى سفساف الأمور ، بل انه انحط الى دركة الأقل من البهائم (٢) .

يقول سبحانه :

« ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون » (٣)

(١) انظر كتاب « مرض الاسلام » للمستشرق « كيمون » الفرنسى .

(٢) الانفال آية : ٥٥ .

ولقد كان من كرامات الاسلام الباهرة ، أن هذا المستشرق ، أراد أن يعبر عن الاسلام معترضا ، فجاء تعبيره رغم أنه شاهد للاسلام بالصدق وعليه بالكذب .

انه نطق في صراحة تامة ، أن ما جاء به محمد « ديانة محمدية » ، ثم جره خبثه الحاقده ، وسولت له نفسه السوء ، فقال عن هذه الديانة المحمدية : انها جذام وبرص .

ولا شك أن هذا تناقض عجيب ، وخط مريب ؟

اذ كيف يصح أن يكون ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ديانة ، وكيف يكون جذاما وبرصا ؟

انه يدل على ما أصيب به هذا المستشرق ، منذ أن عدل بانحرافه عن طريق الجادة ، حتى كان حظه من الدنيا ، خيبة الأمل ، والخزي المخزي في الدار الآخرة .

الاسلام يرد مطاعن المستشرقين :

ان القرآن الكريم ، المصدر الالهى الأول للاسلام ، والقائد الموجه الملهم ، والدليل الواضح الموصل لكل من سلك هديه ، واتبع طريقه ، يبطل زعم كل مستشرق تقول على الاسلام ، وينقض ادلة كل ما جاء به من مطاعن أو مفاصد .

انظر لقول الله سبحانه ، اذ يحث على العمل الدائب ويوجه الى الجهاد المتواصل في سبيله ، فيقول :

« وقل اعملوا فسمي الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (١) » .

ويقول عز وجل ، موجها الى السعى على الرزق ، ومرغبا في البحث عنه :

(١) التوبة آية : ١٠٥ .

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه واليه النشور » (١) •

ويزداد حث القرآن الكريم توجيهها ، الى الانتشار فى الأرض بعد أداء الصلاة ، سعيا للرزق وطلباً للكسب فيقول :

« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله » (٢) •

وغير هذا الكثير من الآيات فى القرآن الكريم .
اما الأحاديث الشريفة ، فان ما ورد فى هذا الشأن ، فهو أكثر من أن يحصى ، وأعظم من أن يعد .

خاصة : وان الاسلام بلغ أمر عنايته بالعمل والحث عليه ، أن اعتبر ، أن العمل مع العبادة أفضل من التخلي لها وحدها .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قدم قوم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا

ان فلانا يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويكثر الذكر ، فقال :

ايكم يفيه طعامه وشرابه ؟

فقالوا : كلنا يارسول الله !

فقال : كلكم خير منه « اهـ •

ولم يترك الاسلام العذر ، لقوم يتكفون الناس ، ولم يرض لهم ذلك ، وهم على استطاعة من العمل الجاد ، والكسب الحلال ، والسعى فى أرض الله الواسعة الفضاء .

وقد ذلل الله الأرض لبنى الانسان ، ليمشوا فى مناكبها ، ويأكلوا من رزقه ، وينتشروا فى رحبها الرحيب الواسع ، سعيا على الرزق ، وتمغفا عن المسألة التى تأتى نكتة سوداء فى وجه صاحبها يوم القيامة ؛

(١) الملك آية : ١٥ •

(٢) الجمعة آية : ١٠ •

واننا لنرى كيف دفع الرسول صلى الله عليه وسلم ، بفطنته
الفطنة ، وعمق ذكائه ، أحد هؤلاء الصحابة ، الى الكسب الحلال ،
والجد في سبيله ، وكيف حذره أيضا من السؤال ، ووجهه الى العمل
الثمر الذي يحفظ كرامته ، ويصون عرضة ، ويحمي عزته ،
ويكف يده عن المسألة .

عن انس رضى الله عنه قال : اتى رجل من الانصار ، يسأل
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

أما فى بيتك شئ ؟ قال : بلى .

جلس نلبس بعضه ، ونيسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء ؛
فقال :

اثنى بهما ؛

فأتاه بهما ، فأخذهما صلى الله عليه وسلم ، بيده ، وقال :

من يشتري هذين ؟ قال رجل

أنا أخذهما بدرهم ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

من يزيد على درهم مرتين ، أو ثلاثة ؟ قال رجل :

أنا أخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، فأخذ الدرهمين ،

وأعطاهما الأنصارى وقال :

اشتر يا أحدهما طعاما ، فانبذه الى أهلك ، واشتر بالآخر

قدوما ، فأتنى به .

فأتاه به ، فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عودا بيده ،

ثم قال له :

اذهب واحتطب وبع ، ولا أرينك خمسة عشر يوما ، ففعل ، ثم

رجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوبا ، وببعضها

طعاما ، فقال له صلى الله عليه وسلم :

هذا خير لك من أن تبجى المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة .

ان المسألة لا تصلح : الا لذي فقر مدقع ، او لذي غرم مظفع ،
او لذي دم موجه « أه .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم ، انه كان جالسا مع أصحابه
ذات يوم ، فنظروا الى شاب ذى جلد وقوة ، قد بكر يسعى ،
فقالوا :

ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله ؟ فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم :

لا تقولوا هذا : فانه ان كان خرج يسعى على ولده صفا ، فهو
في سبيل الله .
وان كان خرج يسعى على ابوين شيخين كبيرين ، فهو في
سبيل الله .

وان كان خرج يسعى على نفسه ليغفها ، فهو في سبيل الله .
وان كان خرج رياء ومفاخرة ، فهو في سبيل الشيطان (١) .
وعن ابي عبد الله الزبير بن العوام ، رضى الله عنه قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم :

لان يأخذ احدكم احبله ثم يأتى الجبل بخزمة من حطب على
ظهره فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس
أعطوه أو منعه (٢) .

ولقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمل اليد ، وأكثر
من الثناء الحسن عليه ، حتى عبر عنه ، انه من أحب أنواع العبادة
الى الله عز وجل ، وأفضلها ، فقال صلوات الله وسلامه عليه ، فيما
رواه المقداد بن معد يكرب ، رضى الله عنه :

« ما أكل أحد طعاما قط ، خير من أن يأكل من عمل يديه ، وان
نبى الله داود ، صلى الله عليه وسلم ، كان يأكل من عمل يده (٣) » .

(١) رواه الطبراني .

(٢) رواه الامام البخارى .

(٣) رواه الامام البخارى .

واشتد حرص الاسلام على العمل ، وكثر حثه على الجهد المتواصل في السعى على الرزق ، هنا وهناك ، حتى انه لن يقبل من الأعمال الا ما كان طيبا ، خالصا لوجه الله سبحانه ، لا سيما وانه دين عمل متواصل ، وكفاح دائم ، وجهاد وافر ، وسعى جاد ، ونضال مستمر ، لا مجرد شريعة من السماء ، تهمل الأرض ، وما فيها من خيرات دفينه لا ينتفع بها الناس ، وتدع اتباعها هملا لا يصلحون .

فالاسلام شريعة الله القوية ، التي توجه البشر الى العمل ، طلبا للرزق ، واحتسابا للأجر ، واحتفاظا بكرامة الانسانية ، وصونا للأیدی عن المسألة التي يأتي صاحبها يوم القيامة ، وهي نكتة سوداء في وجهه .

بل ان الاسلام شريعة الله التي تأمر الانسان ، وتفتح له المجال للهجرة في سبيل الله تعالى .

يقول سبحانه :

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة (١) » .

والناظر في سيرة من اختاره الله للعالمين رحمة ، يجد انه - صلوات الله وسلامه عليه ، منذ نشأته - أسوة حسنة للعمل الصالح الذي يرضى الله سبحانه .

فقد كان صلى الله عليه وسلم ، نموذجا حيا ، ومثلا كريما ، في مزاوله الكثير من انواع العمل ؛

كان صلوات الله وسلامه عليه ، يخطط نعله ، ويرقع ثوبه ، . . . وكان يتاجر في مال السيدة خديجة رضى الله عنها ، ويمشي في الأسواق ، وسار الصحابة الاعلام على نهجه ، رضوان الله عليهم . . . انه مارس الكثير من انواع العمل ، حتى ضرب أروع النماذج الكريمة ، التي تبنى عليها الأمة الاسلامية حياتها الانسانية الكريمة ؛

(١) النساء آية : ١٠٠ .

فقد روي انه اجتمع يوما وبعض أصحابه ، وارادوا الغذاء ، فقال بعضهم :

على ذبح الشاة ؛ وقال الثانى : على سلخها ، وقال الآخر: انا على طبخها ، ويفيض خلق الرسول العظيم ، تواضعا ، فيقول :

« وانا على جمع الخطب » .

موقف نبيل ، وشعور كريم ، امتاز الرسول به وحده ، وسمت نفسه ، صلوات الله وسلامه عليه ، عن أن يكون عالة على أصحابه ، أو أن يكون عظيما فى نفسه عنهم ، رغم أن الصحابة يودون احترامه وتعظيمه ، عن طيب خاطر ، وانشراح صدر ، وهذا من كريم سجاياه ، وعظيم أخلاقه ، التى ضرب بها أروع المثل ، تطبيقا للحياة العملية ، على نفسه وعلى أصحابه ، حتى كان قدوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

احترف صلوات الله وسلامه عليه ، العمل الذى كان يقوم به معظم الناس على عهده ، فضلا عما زاوله من الأعمال الأخرى ، التى زاولها اخوانه الأنبياء من قبله .

فقد كانوا صلوات الله وسلامه عليهم ، على نشاط جاد ، وجهاد موفق ، وجد ملحوظ فى مختلف ميادين الحياة ، والكسب المشروع .

فمنهم من كان نجارا ؛ ومنهم من كان حدادا ؛ ومنهم من كان بناء ، ومنهم من كان راعيا ، بل ما بعث نبى ، الا وكان للغنم راعيا . الى غير ذلك من شريف الحرف والمهن الكثيرة التى زاولوها صلوات الله عليهم .

ها هو دور النبى صلى الله عليه وسلم ، ودور الانبياء والرسل فى الحياة العملية ، وكان كذلك دور الصحابة الأعلام الذين ساروا عليه ، وسار الاتباع الأتقياء عليه من بعدهم ، حتى بلغ الجميع رسالة الاسلام ، وحافظوا على العهود والمواثيق ، وادوا الأمانة التى أسندت اليهم فى سبيل الحياة الانسانية الشريفة .

يقول سيدنا عمر رضى الله عنه :

« انى لارى الرجل فيعجبني ، فاسأل ؛ اله حرفة ؟ فان قيل :
لا . سقط من عينى » اه .

ومر رضى الله عنه ، برجل يجلس على قارعة الطريق ، ويقول :
اللهم ارزقنى ، فضربه بدرته ، وقال :

لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، وهو يقول :

« اللهم ارزقنى ، وقد علم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ،
وانما يرزق الله الناس بعضهم من بعض » اه .

اذن فالاسلام فى عموميه الشامل ، وفى خصوصه الخاص ، اشاد
بالعمل فى دعوته ، ونهى عن التواكل : وسفه احلام الذين ينتسبون
الى الاسلام ، وهم على ضعفهم المخزى ، وخمولهم المؤذى ، وتوانيتهم
المذل للمفقر .

يقول سبحانه وتعالى :

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟
قالوا :

كنا مستضعفين فى الأرض ! قالوا :

الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فاولئك ماواهم
جهنم وساءت مصيرا » (١) .

نص القرآن الكريم على حال المستضعفين فى الأرض ، وخوفهم
سوء المصير ، وتوعدهم بالعذاب الاليم ، ثم انكر عليهم استضعافهم
ولم يسمع لقولهم :

« كنا مستضعفين فى الأرض » .

وعاتبهم على ظهور توانيتهم ، واتخاذهم المعاذير ، التى لم تكن
منهم من الله شيئا ، فقال لهم على لسان ملائكته :

(١) النساء آية : ٩٧ .

« ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فاولئك ماواهم
جهنم وساءت مصيرا » .

و شاء الله سبحانه ، أن يحملنا صنوفا كثيرة ، من تكاليف
الخدمة الاجتماعية في سبيل الحياة السعيدة ، التي نقدمها
الى العالم البشرى ، لكي نتمثل بحق عقيدة التوحيد الخالص ،
حينما نعرض للناس مبدا الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ،
واليوم الآخر .

ولعل من البدهى بعد هذا البيان ، أن الاسلام لا يمكن له بحال
أن يقبل فارغ النفس من العمل ، دون معذره ، ولا يرضى أن تدين
به أمة مغلوبه على أمرها ، وهو صاحب الرسالة الضخمة التي
لا يطيقها الا الأقوياء ، ولا يحملها الا العالمون .

هذا ولم يكن ذلك فحسب ، بل انه لا يقبل كذلك أن تأتي الدنيا
لإنسان من غير طريقها الالهى المشروع ، أو تأتي له عن طريقها
المشروع ثم يسخرها فيما لا يرضى الله ورسوله .

ذلك هو الاسلام كما جاء لنا به معلم الانسانية صلى الله عليه
وسلم ، وتلك هى رسالته الخالدة ، وتوجيهه العام ازاء العمل
المشعر ، والكفاح الدائب فى خدمة الانسانية التى يود لها أن تعيش
حياة كريمة عزيزة .

فكيف يتصور أن يكون الاسلام ، وهو بهذه المثابة ، دينا يبعث
على الخمول والكسل كما زعم المستشرق المأجور ؟

أم كيف يتصور أن يبقى افك مؤتفك بعد هذا البيان الواضح ؟
ان من قذف الله الايمان فى قلبه ، وسار على هدى من كتاب
ربه ، واقتدى بالنبي صلى الله عليه وسلم ، لن يسهه الا الاتيان
لهذه النصوص الاسلامية ، خاشعا متصدعا من خشية الله تعالى ،
مسلميا لأول وهلة بصحتها .

أما الذين لم يأن لهم أن تخشع قلوبهم لشيء من الحق ، ولم
تطمئن أفئدتهم لهذه العقيدة الإسلامية ، فانهم يمرقون من الدين
الإسلامي كما يمرق السهم من الرمية .

من هؤلاء الأشقياء مستشرق يقول عن الاسلام :

« ان الاسلام يسفك الدماء ، ويقتل الأبناء ، ويهدم البنيان
الإنساني » .

والقرآن الكريم يرد هذا الزعم ويبطله فيقول :

« ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب
الله عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما » (١) .

توعد الله سبحانه في هذه الآية بأن من يقتل مؤمنا متعمدا
فجزاؤه جهنم ، فضلا عما يحل عليه من غضب الله ، وما ينزل به
من لعنة .

يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« الآدمي بنيان الرب ملعون من هدمه » .

والنصوص الواردة في هذا الشأن ، والتي ترد هذا الزعم
وأمثاله كثيرة ، فكيف يتصور أن الاسلام يسفك الدماء ، ويقتل
الأبناء ويهدم البنيان الإنساني ؟

أم كيف يتصور أن الاسلام : دين يدمن على الخمر ، كما قال
المستشرق الذي لم يراقب الله في قوله ؟

ان الله سبحانه وتعالى يقول :

« انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، رجس من عمل
الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (١) .

(١) النساء آية : ٩٣ .

(٢) المائدة آية : ٩٠ .

بين الله في هذه الآية ، أن الخمر ، والميسر ، والانصاب ، والأزلام من عمل الشيطان ، الذى نهانا الله سبحانه عن اتباع سبيله ، وعمل الشيطان ، لا سبيل للعاقل الى اتباعه ، بل لا سبيل لمؤمن الا البعد عن سبيل الشيطان المتفرقة .

وكما بين الله تعالى أن الخمر من عمل الشيطان : فقد بين كذلك ، أن علة تحريمها ، ما فيها من ذهاب العقل الذى هو من أهم النعم التى أسبغها الله على عباده ، والذى فضل الله به الانسان على كثير من خلقه ، فضلا عن أن الخمر تثير الفتن ، وتوقع العداوة والبغضاء ، وتصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، فتحقق أملا للشيطان يجرى من أجله في ابن آدم مجرى الدم في العروق .

« انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » (١) .

يقول ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر البيضاوى (٢) ، رضى الله عنه ، عن هذه الآية :

« اعلم أنه سبحانه وتعالى ، أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية ، بأن صدر الجملة بأنما ، وقرنها بالأصنام والأزلام ، وسماهما رجسا ، وجعلهما من عمل الشيطان : تنبيها على أن الاشتغال بهما شر بحت ، أو غالب ، وأمر بالاجتناب عن عينيهما وجعله سببا يرجى منه الفلاح .

ثم قرر ذلك بأن بين ما فيهما من المفاصد الدينية والدنيوية المقتضية للتحريم . فقال :

« انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة .. » (٣) .

وخصهما باعادة الذكر ، وشرح ما فيهما من الوبال ، تنبيها على أنهما المقصود بالبيان .

(١) المائدة آية : ٩١ .

(٢) هو صاحب التفسير المشهور بالبيضاوى .

وذكر الانصاب ، والأزلام ، للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

« شارب الخمر كعابد الوثن » (١) اهـ

وبعد : فيقول المستشرق « كيمون » عن الاسلام :

« ان الاسلام يجمع في القبائح » .

ويرد القرآن الكريم على ذلك : بما يتضمن للاسلام سلامته وحفظه ، ويحقق براءته وتقديسه فيقول :

« واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله امرنا بها »
قل ان الله لا يأمر بالفحشاء ، اتقولون على الله ما لا تعلمون » (٢) .

ثم يؤكد الله تعالى تحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، في نفس السورة فيقول :

« قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا : وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » (٣) .

وجميع الشرور والقبائح ، وكل ما ظهر من الفواحش وما بطن منها ، نهى الله سبحانه وتعالى عنه ، وانزل فيه من الآيات ما لا يعدا قليلا .

فمن أراد الهداية ، وجد في طلبها ، وجد ما يكفيه ويزيد ، ومن اراد ان يتحقق من ذلك فليرجع لكتاب الله سبحانه ، فانه حين يتلوه صادقا ، ويتدبره متفهما : يصدق بما جاء به ، ويعتقد اعتقادا جازما انه المصدر الالهي الوحيد ، والبلسم الشافي لكل من حز به أمر ، او شغله شغل .

وعلى طريق البيان نذكر من النماذج القرآنية ، ما وجه الله به

(١) انظر تفسير البضاوى ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) الاعراف آية : ٢٨ .

(٣) الامراف آية : ٣٣ .

عباده الى الطيب من القول والعمل ، وما نهاهم عنه من الفواحش
ما ظهر منها وما بطن .

يقول الله تعالى ، ناهيا عن أكل الربا وعن التعامل به .

« الذين يأكلون الربا ، لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه
الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل
الله البيع وحرم الربا : فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف
وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .
يمحق الله الربا ويربى الصدقات، والله لا يحب كل كفار أثيم » (١) .

ثم عقب الله سبحانه بالحث على ترك الربا وما بقى منه ، وجعل
ذلك من التقوى ، وإعلان الحرب على من لم يستجب لأمره سبحانه
وتعالى فقال :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم
مؤمنين .

فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلکم
رءوس أموالکم ، لا تظلمون ولا تظلمون (٢) » .

ومن المعلوم عادة : أن الحرب لا تعلن الا على معتد آثم أو لعداء
مستحکم ، وأكل الربا من غير شك كذلك .

انه بخروجه عن طاعة الله ، وجشعه المادى : عدو الله ولرسوله
صلى الله عليه وسلم .

ولهذا أعلن الله الحرب عليه ، وشتان بين حرب قائمة بين جماعتين
من الناس ، وبين حرب قائمة بين الله ورسوله ، وبين المعادى لله
تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

اذ أن الأولى يتصور فيها الظفر والفوز لجماعة على الأخرى
وبالعكس ، ولا كذلك فى الثانية .

(١) البقرة آية : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) البقرة آية : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وكما نهى الله عن الربا وأعلن الحرب على فاعله ، فانه سبحانه نهى كذلك عن اكل اموال الناس بالباطل فقال :

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام ، لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » (١) .

اما عن اكل اموال اليتامى ظلما ، فيقول سبحانه وتعالى :

« ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » (٢) .

والشارع الحكيم : لم يجعل وسائل التقويم الاجتماعى السليم وقفا على توجيه الأوامر والنواهي فحسب ، وانما أعد لذلك حدودا لا بد أن تنفذ على كل من خالف أوامر الله ونواهيهِ ، صونا لكرامة الانسانية ، واحتفاظا بحقوقها ، وتحقيقا لسلامتها ، لكى يسود النظام فى المجتمع ، ويأمن الفرد فى حياته ، كما تأمن الجماعة .

من أجل ذلك : أوجب الله سبحانه مثلاً ، القتل ، أو الصلب : أو النفى ، لمن يسعون فى الأرض فسادا ، كما أوجب سبحانه ، قطع يد السارق ، وجلد الزانى (٣) أو الشارب ..

يقول سبحانه مبينا جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويفسدون فى الأرض :

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ، ان يقتلوا ، أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض : ذلك لهم خزي فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (٤) .

اما عن السارق والسارقة فانه تعالى يقول :

(١) البقرة آية : ١٨٨ .

(٢) النساء آية : ١٠ .

(٣) الرجم للزانى المحصن ، والجلد للزانى غير المحصن .

(٤) المائدة آية : ٣٣ .

« والسارق والسارقة ، فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » (١) •

ولقد كتب الله القصاص على من قتل نفسا بغير ذنب ، او اتلف مضوا كذلك ، لتكون لنا في القصاص حياة فقال :

« يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى » (٢) •

وقال سبحانه في السورة نفسها :

« ولكم في القصاص حياة يا اولي الألباب لعلمكم تفلحون » (٣) •

ويقول عز وجل :

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن : والسن بالسن ، والجروح قصاص » (٤) •

اما عن جريمة الزنا ، والجزاء الواجب فيها ، فان الله تعالى يقول :

« الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » (٥) •

وغير ذلك كثير من الآيات القرآنية التي لم تدع مجالا ، لانتهاك حرمة أو ضياع شعيرة من شعائر الاسلام ، حتى كانت الغاية من هذا الاطار الالهى التربوى ، قوله سبحانه :

« تلك حدود الله : ومن يطع الله ورسوله ، يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم » •

(١) المائدة آية : ٢٨ ع

(٢) البقرة آية : ١٧٨ •

(٣) البقرة آية : ١٧٩ ع

(٤) المائدة آية : ٤٥ •

(٥) النور آية : ٢ ع

ومن يعص الله ورسوله ، ويتعد حدوده ، يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين » (١) .

ها هو دور الاسلام العملى ، وتوجيهه الموجه الى البحث الدائب والعمل المستمر ، ولكن على الرغم من وضوح الحق ، فان عجلة الاستشراق لم تقف برجالها عند هذا الحد من الطعن فى الاسلام ، فها هو : « جولد تسهير » الذى يقول عن الاسلام كذبا وافتراء :

« ان هذا الدين ، يدل تابعيه : ويفريهم بالتواكل والخمول ، لانه يرجع الى معنى من الطاعة والخضوع ، غير الارادى .

وهذه الكلمة « اسلام » اوفى من كلمة غيرها فى تعبير المنزلة التى جمعها محمد للمؤمنين فى علاقته لمعبوده ، عليها طابع ظاهر من الشعور بالتبعية والقدرة ، لا تحيط بها حدوده ، ويجب على الانسان الاستسلام المطلق متبرئا من كل حول وقوة » اهـ

وكذب هذا المستشرق الذى سقمت عقيدته حتى اصبحت لا يثأتى منها الخير ، ولا تنبت الا ما خبث ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا .

كذلك كان هذا المستشرق ، وكذلك اراد اصحاب هذه الآراء الفاسدة : الذين تراكمت على افئدتهم ظلمات بعضها فوق بعض ، كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيادوا فيها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

ولا عجب : بل ان العجب كل العجب ، ان يترك هذا المستشرق وامثاله ، يروحون ويسرحون ، دون تصد لهم ، فيعم خطرهم ، ويتحقق لهم المقصد .

ولقد كان من آلاء الله تعالى على الاسلام والمسلمين ، ان كان فى كل عصر زعماء اصلاح ، وعلماء اماناء : وقادة اتقياء ، جندوا انفسهم للدفاع عن شريعة السماء ، والدود عن هذا الدين ابتقاء لوجه الحق سبحانه ، فكلل مساعهم ، وطيب الرب ثراهم .

من بين هؤلاء : ابن القيم ، الذى ضرب بسهم وافر فى الرد على الطاعنين فى الاسلام ، ورد شبههم وابطل ادلتهم .

انظر اليه يقول عن الاسلام .

« ليس في استعمال كلمة « اسلام » لغة أو شرعا ، ما يدل على معنى الانقياد والخمول والخضوع : المتضمن لمعنى الجبر ، كما يفرضه عادة اكثر الباحثين ، من الغربيين ، ولكن المعنى الصحيح لكلمة الاسلام ، كما يظهر واضحا من الآيات ، هو الكد في تحرى الرشd ، والتماس الفلاح ، بتزكية النفس ، ويدل على ذلك : ما يؤخذ من الآيات الآتية ، فقد قال تعالى :

« وانا من المسلمين : ومنا القاسطون ، فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا » (١) .

وقال تعالى :

« ونفس وما سواها ، فآلهمها فجورها وتقواها ، قد افلح من زكّاها ، وقد خاب من دساها » (٢) .

وذلك يستلزم معنى الطاعة الارادية ، ظاهرا وباطنا .

والرشd هو الهدى والفلاح ، وهو الذى يهdy اليه القرآن من تصديق خبر الله ، وامثال أمره « اهـ .

وصدق ابن القيم : فان تحرى الرشd ، والتماس الفلاح ، وتزكية النفوس ، من الأمور التى يهدف الاسلام الى تحقيقها فى قلب كل مسلم : وصدق الله العظيم اذ يقول :

« فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا » .

وكما جند ابن القيم نفسه فى هذا الميدان الفسيح الرجب للدفاع عن الاسلام ، والدود عنه ، فهناك من العلماء من صدع فى الناس - حفاظا على الدعوة الاسلامية ، وصونا لها من خوض الخائضين - باذلا ما فى وسعه من جهد وطاقة ، حتى قاد حركة الاصلاح الدينى ، وبعث فى الناس روح التحاب لهذا الدين .

(١) الجن آية : ١٤

(٢) الشمس آية : ٧ - ١٠

من هؤلاء الزعماء : السيد جمال الدين الأفغانى ، الذى دافع
مستبسلا عن الديانة الاسلامية ، والذى اشاد بذكرها فى كثير من
أحاديثه ، ووضح بجلاء ما بنيت عليه من أسس قوية : ودعائم متينة ،
وما سيكون لها من الغلبة على غيرها ان شاء الله تعالى .

انظر اليه يقول :

« ان الديانة الاسلامية ، وضع أساسها على طلب الغلب
والشوكة ، والافتتاح والعزة ، ورفض كل قانون يخالف شريعتها » .

فالنظر فى أصول هذه الديانة ، ومن يقرأ سورة من كتابها
المنزل ، يحكم حكما لا ريب فيه ، بأن المعتقدين بها ، لا بد ان يكونوا
أول ملة حربية فى العالم ، وأن يسبقوا جميع الملل : الى اختراع
الآلات القتالة ، واتقان العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من
الفنون ، كالطبيعة والكيمياء ، وجر الأثقال ، والهندسة وغيرها .

ومن تأمل فى آية :

« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون
به عدو الله وعدوكم » (١) .

أيقن أن من صبغ بهذا الدين ، فقد صبغ بحب الغلبة : وطلب
كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها ، والسعى اليها ، بقدر الطاقة
البشرية ، فضلا عن الاعتصام بالمتعة والاقتناع من تغلب غيره عليه .
ومن لاحظ أن الشرع الاسلامى ، حرم المراهنة ، الا فى السباق
والرماية ، انكشف له مقدار رغبة الشارع فى معرفة العلوم
العسكرية : والتمرن عليها « (٢) ١ هـ .

ولا شك أن هذا حق واضح ، تفردت به الديانة الاسلامية ،
منذ أن وجه رسولها صلى الله عليه وسلم الناس الى العمل الجاد ،
والجهاد المتواصل ، الذى يؤدى بأبناء الأمة الى الحياة الكريمة ،

(١) الانفال آية : ٦٠

(٢) انظر : الاسلام دين العلم والمدنية للامام محمد عبده .

واعتبار الخمول والكسل ، شر أنواع البطالة الذي يؤدي الى ضعف الأمة ، وتأخر انتاجها ، وتقليل ثرواتها ، وتفكك أو اصرارها .

انه لحق واضح تفردت به الديانة الاسلامية : منذ ان اعلّم الرسول صلى الله عليه وسلم الناس ، ان

« أشد الناس عذابا يوم القيامة المكفي الفارغ » (١) .

بل انه لحق واضح تفردت به الديانة الاسلامية ، منذ أن حدث الرسول صلى الله عليه وسلم من المسألة قائلا :

« من سأل الناس أموالهم تكثرا ، يسأل جعرا ، فليستقل أو ليستكثر » .

واذا كان هذا حق واضح تفردت به الديانة الاسلامية على نحو ما ذكرنا ، فقد ثبت بالتالي ، كذب رجال الاستشراق في كل ما قالوا . وبعد : فيقول الامام على كرم الله وجهه :

« ان من احب عباد الله اليه ، عبدا أعانه الله على نفسه ، فاستشعر الحزن ، وتجلبب الخوف : فزهر مصباح الهدى في قلبه وأعد القرى ليومه النازل به ، فقرب على نفسه البعيد ، وهون الشديد .

نظر فأبصر ، وذكر فاستكثر ، وارتوى من عذب قرأت سهلته له موارده ، فشرب نهلا ، وسلك سبيلا جددا ، قد خلع سراويل الشهوات وتخلّى عن الهموم الا هما واحدا ، انفرد به فخرج من صفة العمى : ومشاركة أهل الهوى ، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ، ومفاتيح أبواب الردى .

قد أبصر طريقه ، وسلك سبيله ، وعرف مناره ، وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها ، ومن الجبال بأمتنها .

فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس ، قد نصيب نفسه الله

(١) هذا حديث رواه الديلمي

سبحانه ، في أرفع الأمور ، من أصدار كل وارد عليه : وتصير كل
أفرع الى أصله .

مصباح ظلمات ، كشاف عشوات ، مفتاح مبهمات ، دفاع
معضلات ، دليل فلوات ، يقول فيفهم ، ويسكت فيسلم : قد اخلص
لله فاستخلصه ، فهو من معادن دينه ، واوتاد أرضه ، قد ألزم
نفسه العدل ، فكان أول عدله ، نفى الهوى من نفسه : يصف الحق
ويعمل به ، لا يدع للخير غاية الا أمها ، ولا مظنة الا قصدها ، قد
أمكن الكتاب من زمامه ، فهو قائده وامامه ، يحل حيث حل ثقله
وينزل حيث كان منزله .

وأخر قد تسمى عالما وليس به : فاقتبس جهائل من جهال ؟
واضاليل من ضلال ، ونصب للناس شركا من جهائل غرور ، وقول
زور . قد حمل الكتاب على آرائه ، وعطف الحق على أهوائه ، يؤمن
من العظائم ويهون من الجرائم ، يقول أقف عند الشبهات وفيها
واقع ، واعتزل البدع وبينها اضطجع ، فالصورة : صورة انسان ؛
والقلب قلب حيوان .

لا يعرف باب الهدى فيتبعه ، ولا باب العمى فيصد عنه ، فذلك
مينت الأحياء .

فأين تذهبون ؟ وأين تؤفكون ؟ والأعلام قائمة ، والآيات واضحة
والمنازل منصوبة ، فأين يتاه بكم ؟ وكيف تعمهون وبينكم عثرة نبيكم
وهم أزمة الحق ، وأعلام الدين ، والسنة الصديق .

فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن ، وردوهم ورود الهيم
المطاشي . .

انه يموت من مات منا وليس بميت ، ويبلى من بلى وليس ببالي
فلا تقولوا بما لا تعرفون ، فإن أكثر الحق فيما تنكرون « ١ هـ

الفصل الثالث

الاسلام يسائر العقل وينسجم مع واقع الحياة

توجيه قرآنى :

يقول الله تعالى :

« ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما انزل الله من السماء من ماء ، فاحيا به الارض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون (١) » .

هذه آية من آيات الله الكريمة ، تشعرنا تماما ، بالعظمة والاعتبار ، وتوجهنا دائما الى محراب الهداية ، وتقودنا كافة المؤمنين بالله ورسوله ، الى اليقين الصادق والتسليم المطلق ، ان كل من ينعم بالنظر ، ويجهل الفكر ، فى كتاب الله تعالى ، راغبا التدبر به ، والاخذ منه ، لا شك : انه يصل حتما الى بر السلامة ، والطمأنينة ، ويفوز بالايمان الدائم الذى يحبه الله تعالى ، ويوجه اليه رسوله صلى الله عليه وسلم .

أما الذين شقوا باعراضهم عن التدبر ، وشغلهم تغافلهم عن آيات الله الكثيرة ، فان الله سبحانه ، يحشرهم عميا يوم القيامة ، فضلا عن ان معيشتهم ضنكا فى الحياة الدنيا .

وشتان بين من عرف الحق فالتزم بابه وسلك طريقه ، واقبل فأقبل الله عليه ورضى فرضى الله عنه ؛

وبين من شقى باعراضه عن آيات الله ، واعرض الله عنه ، وغضب عليه ولعنه .

(١) البقرة آية : ١٦٤

ولكن على الرغم من وضوح الفرق القائم بين الاثنين ، والذي أخبر الله عنه بقوله :

« ليجزى الذين اساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين احسنوا بالحسنى » (١) .

على الرغم من ذلك : فهناك اقوام آثروا الاعراض عن آيات الله ، بما فيه من قبح ، على التدبر بما فيه من جمال وخير ، ف خسروا وهم مساكين لا يدرون أنهم يوم أن زرعهـم الشيطان فى الاعراض ، كانت لعنة الله عليهم فى طور السنايل .

حول مطاعن الاستشراق :

يقول « رينان » عن الاسلام :

« ان الاسلام لا يشجع على الجهود العلمية ، بل هو عائق لها بما فيه من اعتقاد للغيبيات ، وخوارق العادات ، وايمان تام بالقضاء والقدر » اهـ .

ويقول أيضا عن العقل العربى :

« ان العقل العربى ، لا يصلح للدراسة والبحث ، لان العقلية السامية مجدبة ، كالصحراء التى نبتت فيها ، وهى لا تقوى على التحليل والتعمق ، كما هى الحال بالنسبة الى العقلية الآرية » اهـ ولم يشف غليل « رينان » ما قال ، وانما جره غيظه من الاسلام ان قال مختلقا :

« ان الدين الاسلامى لا يناهض العقل ، ولا يشجع على البحث النظرى فى الأقل ، لان عقائده تحتوى على أمور غيبية » اهـ .

ولم يكن « رينان » هو وحده الذى افترى على الاسلام الكذب ، بل هناك من هو على شاكلته ، وعلى الاخص المستشرق الفرنسى الذى كان من الد خصوم الاسلام ، والذي يقول عن القرآن :

(١) النجم آية : ٢١ .

« القارئون للقرآن من الأوربيين ، لا تعوذهم الدهشة من اضطرابه ، وعدم تماسكه في معالجة الكبار العضلات ، على أن هذه لم تكن حجر عثرة في سبيل الصحابة ، الذين تقبل إيمانهم ، لساذج هذا القرآن ، على أنه من عند الله ، ولكن الصدع من هنا وجد ، وسرعان ما أظهر نتائج بعيدة الآثار » اهـ .

وكذب أعداء الله ، وجعل الله بأسهم بينهم شديدا .

انهم سجلوا ذلك افتراء على الاسلام ، حينما غلبتهم شقوتهم ، وأذلتهم مطامعهم ، واستهوتهم أغراضهم ، وأعقبهم النفاق في قلوبهم ، حتى باءوا بغضب على غضب ، ولهم عذاب أليم .

وما من شك : أن قصة هؤلاء الدين ضل سعيهم ، لا يخلو الحكم فيها من أمرين :

١ - أن هؤلاء وصلوا بزعمهم الفاسد ، واعتقادهم الباطل ، الى درجة الدواب التي لا تفكر ولا تعقل ، بل انهم بكفرهم وعنادهم ، انحطوا الى درجة الاضل من البهائم .

والقرآن الكريم يشهد عليهم بذلك ، فيقول :

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون . »

ومثل الذين كفروا ، كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم ، بكم ، عمى ، فهم لا يعقلون (١) . »

ويقول سبحانه :

« ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (٢) .

(١) البقرة آية : ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) الاعراف آية : ١٧٦ .

ويقول جل ذكره :

« ان شر الدواب عند الله الصم ، البكم ، الذين لا يعقلون (١) » .

ويقول في نفس السورة ايضا :

« ان شر الدواب عند الله ، الذين كفروا ، فهم لا يؤمنون » (٢) .

واذا كان القرآن الكريم ، ابان لنا عن خسة ادراكهم ، وسوء تصرفهم ، فان الامر يستلزم ضرورة ما جرى عليه العرف ؛ وهو أن الحكم عادة لا يكون الا على من سما بعقله عن سائر الحيوانات .

٢ - ان هؤلاء الأقوام ، نظرا لما اصابوا به من عمى ، وما جبلوا عليه من قسوة وغلظة ، فانهم لم يكونوا على استعداد عقلى ، يتأتى معه الادراك الذى يتفق والتدبر الذى يتأتى معه الخشوع عند تلاوة القرآن وسماعه ، والتفهم لمعانيه ، والتصديق من خشية الله تعالى .

واقوام شأنهم كذلك ، فماذا نقول لهم ؟ وماذا نفعل بهم اذن ؟

ان الشيء الوحيد الذى نأخذ به تجاه هؤلاء الأقوام هو أن :
نقول لهم ، وللعالم اجمع ، وخاصة من كان على شاكلتهم :

ان الاسلام ليس بحاجة - بعد توجيهه وارشاده - الى من
أقفلت قلوبهم ، وصمت آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا
واستكبروا استكبارا ، بل انه ليس بحاجة كذلك الا أن نقول لهم :
لم يبق لكم بعد الحق الا الضلال .

أما من حيث الارشاد والتوجيه : فان الاسلام - بما وهبه الله
من سماحة ويسر ، ورهبة وعزة - لم يقف عثرة في طريق ارتقاء
البشرية ، خاصة : وانه الدين الذى اختاره الله لخراج الناس من
الظلمات الى النور .

(١) الانفال آية : ٢٢ .

(٢) الانفال آية : ٥٥ .

ذلك : أنه حينما وضع القوانين ، وأصدر الأحكام ، فإنه قصد من وراء ذلك ، فرض النظام الاجتماعى ، الذى يهدف الى المحافظة التامة ، على حياة البشرية ، والحرص الحريص على ضمان بقائها ، والذود عن حياضها ، والنضال المستمر من أجل كرامتها ، وتحقيق سلامتها ، والتمتع بكل حق من حقوقها .

وحينما نشر دعوته ، ووجد العقيدة ، وفرض الفرائض ، ونظم المعاملات ، فإنه كذلك قصد سعادة الانسانية ، بالتقرب الى خالقها ، بأنواع الطاعات ، والتمتع بالنعيم المقيم فى دار البقاء .

بهذا أو بذاك أفتح الاسلام المجال ، ووسع الرحاب ، وأفسح الدائرة ، لعل الكافر يسلم ، والمذنب يستغفر ، والبعيد يدنو ، والتقى يزداد تقوى وقربى .

ودين شأنه كذلك : فلا جدال أنه يساير العقل ، وينسجم مع واقع الحياة ، رغم أنف كل معاند .

بيد أننا لو فرضنا جدلا ، أن رجال الاستشراق ، أصحاب ادراك وعقيدة ، فان القرآن ينقض كلامهم الذى يدل على قصر فهمهم وسوء ادراكهم لحقيقة الاسلام .

ينقض القرآن كلامهم ، بما هو غاص به من آيات معجزة ، نزلت موجهة للعقل ، وقائدة للفكر ، وحائة للنظر ، فى آيات الله الكونية ، التى تشهد بوحدانية الله تعالى .

يقول سبحانه :

« ان فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار :
آيات لأولى الأبواب (١) » .

ويقول جل ذكره :

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من

(١) آل عمران آية : ١٩٠

شيء ، وان عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون » (١) .

ويقول تعالى :

« قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (٢) .

ليس هذا هو التوجيه الإلهي للعقل ، والارشاد له ، والحث التام للنظر ، الى آيات الكون ؟

أم ليس من التوجيه القرآني للعقل الانساني قول الحق سبحانه :

« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ... ؟ » (٣) .

أو ليس من القرآن قوله تعالى :

« وهو الذي يحيى ويميت ، وله اختلاف الليل والنهار ، أفلا يعقلون ؟ » (٤) .

أم لم يكن من التوجيه القرآني للعقل البشرى قوله سبحانه :

« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون ؟ » (٥) .

أوليس من القرآن قوله تعالى :

« ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها ، جعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف السنتكم واللوانكم ، ان

(١) الامراف آية : ١٨٥ .

(٢) يونس آية : ١٠١ .

(٣) الحج آية : ٤٦ .

(٤) المؤمنون آية : ٨٠ .

(٥) المنكوب آية : ٤٣ .

في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار ، وابتفاؤكم من فضله ، ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينزل من السماء ماء ، فيحيي به الأرض بعد موتها ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (١) .

أم لم يكن من التوجيه القرآني للعقل الانساني قول الله سبحانه :

((أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه من شيء . في السموات ولا في الأرض ، انه كان عليهما قديرا ؟)) (٢) .

أو ليس من القرآن الكريم قول الله تعالى :

((أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم ، وأشد قوة ، وعائارا في الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ؟)) (٣) .

أم لم يكن من التوجيه القرآني للعقل الانساني قول الله سبحانه :

((أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج ، والأرض مددناها والقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ؟)) (٤) .

أو ليس من القرآن الكريم قوله سبحانه :

((أفلا ينظروا الى الأبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ؟)) (٥)

هذه جملة من آيات قرآنية كريمة ، تتضمن في عمومها الأمن الإلهي لخلقه ، بالتدبر ، والاعتبار .

وعلى الرغم من هذه الآيات الكثيرة ، ووضوح ارشادها ، فان

(١) الروم آية : ٢١ - ٢٤ .

(٢) فاطر آية : ٤٤ .

(٣) غافر آية : ٨٢ .

(٤) ق آية : ٥ - ٨ .

(٥) الفاشية آية : ١٧ - ٢٠ .

القرآن غاص بآيات كثيرة أخرى ، تحت على النظر في الآفاق ،
وتثبت أن الله سبحانه :

هو الذى ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده .
وأنه الذى خلق السموات والأرض بالحق .

وأنه الذى خلق الإنسان من نقطة .

وأنه الذى خلق الانعام لنا فيها دفع ومنافع .

وأنه الذى أنزل لنا من السماء ماء ، منه شراب ، ومنه شجر .

وأنه الذى أنبت الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل
الثمار .

وأنه الذى سخر لنا الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم
مسخرات بأمره .

وأنه الذى سخر لنا البحر لناكل منه لحما طريا ، ونستخرج
منه حلية نلبسها ، ونرى الفلك مواخر فيه ، ولنبتقى من فضله ،
ونقدم له الحمد والشكر ، والثناء الحسن الجميل .

وأنه الذى ألقى فى الأرض رواسى حتى لا تميد بنا ، وجعل لنا
فيها أنهارا ، وسبلا نهتدى بها .

وأنه الذى خلق الموت والحياة ، لكل ما هو سابح فى مناهات
الكون ، وضارب فى دورب الحياة ، ليبلونا أينما أحسن عملا .

وأنه سبحانه وتعالى خلق كل شيء مما نعلمه ، ومما لا نعلمه .

وأنه سبحانه وتعالى ، أحسن كل شيء خلقه ، فتبارك الله
أحسن الخالقين .

كل ذلك جاء به القرآن ، ودلنا عليه الاسلام ، ووجهنا اليه
الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فكيف يتصور أذن ، بعد هذا
البيان ، أن يكون الاسلام فى تخلف باتباعه ، عن مسابقة العقل ،
والانسجام مع واقع الحياة ؟

يقول الامام محمد عبده ، مصوراً تماماً ، مسابقة الاسلام للعقل ، والانسجام مع واقع الحياة :

« صاح الاسلام بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه ، فطر على أن يهتدي بالعام ، واعلام الكون ، ودلائل الحوادث ، فأطلق بهذا سلطان العقل ، من كل ما قيده ، وخاصة من كل تقييد كان قد استعبد ، وردّه الى مملكته ، يقضى فيها بحكمه وحكمته » اهـ

وصدق : فان الاسلام حينما امر الناس بأحكام الشريعة أصولها وفروعها ، قرن هذا الأمر ، بوجود العقل المميز ، فاذا ما وجد العقل المميز في شخص ، خوطب بأحكام الشريعة ، على قدر الطاقة البشرية ، التي أوجدها الله فيه ، ومصداق ذلك ، قول الله تعالى :

« لا يكلف الله نفساً الا وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت (١) »

وقوله سبحانه :

« لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا (٢) »

فالامر بالتكليف منوط بوجود العقل ، والا لكان في هذا الامر اجحاف ، وتكليف بما لا يطاق ، وهذا واضح البطلان ، إذ انه يتنافى وما جاء به القرآن .

ويشهد لهذا ، ما حدثنا به روح بن القاسم ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

« لما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وان تبكوا ما في أنفسكم أو تخفوه ، يحاسبكم به الله . . الآية » اشتمد ذلك

(١) البقرة آية : ٢٨٦

(٢) الطلاق آية : ٤

على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا :

« كلفنا من الأعمال ما نطبق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ، ولا نطبقها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم ؟ قالوا : سمعنا وعصينا ، قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » .

فلما اقترأها القوم ، وجرت بها السنتهم ، أنزل الله تعالى في أثرها :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون .. الآية ، ونسخها الله تعالى ، فأنزل الله :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت الآية .. الى آخرها (١) » اهـ

وكما أن الاسلام قرر ذلك كله ، واثبت يقينا انه لا عمل على المجنون حتى يصح ، وكذلك السكران حتى يفيق ، والصبي حتى يميز ، فانه اهتم كذلك بالعقل ، حتى اثبت بالدليل ، أن ليس للانسان الا ما عقل .

فكيف يتصور اذن أن يكون في عزلة بأصحابه عن مساهرة العقل ، وواقع الحياة ؟

فهل يصح أن يوجه الخطاب لقوم حرّموا نعمة العقل ؟ أم هل يصح أن الاسلام يأمر بالشئ ، وينهى عنه في آن واحد ؟ تناقض عجيب ، وانعكاس مريب .

ان الأمر بالنظر ، والحث على التأمل ، فيما في الكون من آيات ، فيها دلالة قاطعة ، بأن العبد في حاجة ماسة لاستمطار الخير من ربه ، والزيادة من فضله ، فكيف يحول الاسلام بين المرء ، وبين ما هو في حاجة اليه ، وهو الذي يقول في كتابه :

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ؟ »

هذا تناقض أعجب ، إذ أن النقيضين لا يجتمعان .

اذن لم يبق أمام المعاندين الا التسليم بأن الاسلام حق وماعداه

باطل .

وبعد : فحسب القرآن الكريم ارشادا للعقل ، وتوجيها له ،

قول الله سبحانه :

**« ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ،
والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما انزل الله من
السماء من ماء ، فاحيا به الارض بعد موتها ، وبث فيها من كل
دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض ،
آيات لقوم يعقلون »** (١) .

القرآن يرشد العقل ويوجهه الى الخير :

كرم الله بنى آدم ، وحملهم في البر والبحر ، ورزقهم من
الطيبات ، وفضلهم على كثير ممن خلق .

وازداد شأن الاسلام حرصا وتكريما لبنى آدم ، حتى منح
الانسان حرية تفكيره ، واستعمال عقله ، كيفما شاء ما دام في حدود
الشريعة التي اتى بها الله ورسوله .

ثم قوى حرص الاسلام على العقل البشرى فأخذ بيده الى
ذروة المثل ، يرشده ويوجهه ، ويقوده الى النظر والبحث ، ومنحه
الحرية المطلقة في ذلك كله .

منحه حريته في النظر ليعتبر ، ومنحه حريته في البحث
ليبتدى الى أن لهذه الآيات الها ؛ بل انه أوجب عليه ذلك وجوبا
لا انصراف عنه ، حتى لا يكون الانسان بعقله سابحا في بحار من
الجهل والغرور ، غارقا في ظلام الجحد والتقليد لما كانت عليه الآباء
من الحاد وكفر ، وشرك وفساد .

وما وهب الله تعالى الانسان عقله ليكون شاردا ضالا ،
لا يعرف قدر نفسه ، ولا أهمية وجوده ، ولا خطورة رسالته ؛

(١) البقرة آية : ١٦٤

وانما وهبه العقل ليكون له بمثابة الميزان المحكم لتصرفاته ، حتى لا يطفى على حق الله لمرضاة الناس ، ولا يطفى على صنف من الناس لمرضاة الآخرين .

ولم يترك الله تعالى الانسان سدى في هذه الحياة ، يرتع بعقله كما ترتع البهائم ، أو يلعب كما تلعب الصبية ، بل انه سبحانه ، رسم له الطريق الشرعى الواضح ، ومهد له السبل على لسان رسوله ، واعطى كل انسان من التكليف ما يتناسب وطاقته البشرية المحدودة .

وحتى لا يضل الانسان بعقله ، لابد وان يكون في كافة تصرفاته ، خاضعا للدين الاسلامى ، مسلما لاحكامه التى شرعها الله تعالى ، وسنها رسوله صلى الله عليه وسلم .

فاذا ما حدث هذا الخضوع ، وتحقق ذلك التسليم ، كان الدين للعقل هاديا وموجها ، وقائدا ومرشدا ؛ وفي ذلك سلامة للأوضاع ، وتحقيق للحقائق ، التى ترضى الله ورسوله .

وكما ان من شرط العدالة العقلية واستقامتها ، ان يكون العقل للدين خاضعا ومسلما ، فان من شرط العدالة العقلية ايضا : ان يستقل الانسان بنفسه في اتجاهه الاعتقادى والبحث فيما يوصله الى الهداية والرشاد ، من آيات ؛ مستحفظا حق الله عنده . فلا يجوز له باى حال التقليد ، ولا يجوز له كذلك الاقتداء بما كانت عليه الآباء والاجداد من كفر وفساد .

ذلك : ان التقليد والاقتداء على هذا النحو ، انكره القرآن الكريم ، ونهى على حال من كانت هذه اوصافهم فقال :

« واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله ، قالوا : بل نتبع ما افينا عليه آباءنا ، او لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتمون (١) »

وقال سبحانه وتعالى في آية أخرى :

« وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا :
حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا
ولا يهتدون (١) »

وفي سورة أخرى من سور القرآن الكريم يقول سبحانه :
« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما وجدنا
عليه آباءنا ، أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير (٢) »
ويصور القرآن الكريم ، انكار الله سبحانه وتعالى على المشركين ،
عبادتهم لغير الله بلا دليل ولا برهان ، وتقليدهم لما كانت عليه الآباء
فيقول :

« أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ؟ » .

والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى ، لم يأت لهم بكتاب قبل
شركهم ، يتمسكون به في شركهم ، أو يجوز لهم عبادتهم لغير الله ؟
كلا .

بل إن منطقهم الباطل ، ودليلهم الكاذب :

« أنا وجدنا آباءنا على أمة ، وأنا على آثارهم مهتدون » .

والله تعالى ، تنزه عن أن يقبل زعمهم ، أو يصدق دليلهم ؟
ولذلك أفحهم ، وأبطل قولهم ، وجعلهم مثلاً لغيرهم ، بالانتقام
منهم فقال :

« أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ؟ »

بل قالوا : أنا وجدنا آباءنا على أمة ، وأنا على آثارهم مهتدون .
وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها :
إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وأنا على آثارهم مقتدون .

(١) الثالثة آية ١٠٤

(٢) لقمان آية : ٢١

قال : او لو جئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا : انا بما ارسلتم به كافرين . فانتقمنا منهم ، فانظر كيف كان عاقبة الكذابين (١) »

ذلك هو شأن الذين انساهم الشيطان حظهم من الاستبصار ، ومنعهم تقليدهم الأعمى من التمسك بأسباب الهداية ؛

وها هو موقف الاسلام ودوره الفعال في توجيه الانسان لكل ما يصبو اليه : من فضيلة منشودة ، وسعادة مرجوة .
فهل بقي بعد هذا البيان ، زعم لزاعم ؟ أم ان هذا هو الافتراء الكاذب ، الذي صنعه قوم وأعانهم عليه آخرون ؟

وهل كان حقا ان الاسلام هو العامل الاساسي في تخلف المسلمين عن ركب الحضارة ، حتى قعد باتباعه عن مسابقة التقدم والنهوض ؟
أم ان هذا قول سفهاء قوم مرقوا عن الدين ، وانتظموا في سلك الشيطان فكانوا من الاخسرين ؟

وهل كان حقا : ان الاسلام هو الذي حطم مجموعة من الناس ، وجعلهم يعيشون خلف أسوار الحياة ؟ أم ان هذا كلام قوم سئلوا الفتنه فأتوها ، وما تلبثوا بها الا يسيرا ؟

ان القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، والسيرة العطرة ، كل هذا يدل :

ان الاسلام حقيقة مباركة ، لا يشوبها باطل ، ولا يعوقها عن التقديس افك مختلق .

ولكن أعداء الاسلام في كل عصر وزمان ، يرون - ولم يروا حقا - أن ازدهار الاسلام وانتشار دعوته ، يعكر صفوهم ، ويزايل أركان عقائدهم .

لذلك قامت دولة باطلهم ، وارتفعت شوكة حقدهم ، ثم أعلنوا نتائج خبثهم : الطعن في الاسلام والتقول عليه بما ليس فيه .
ولست أدري ، ماذا عليهم لو انصفوا الحق ، واحسنوا الظن ، وآمنوا بالله وما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ؟

ماذا عليهم لو حدث ذلك منهم ؟؟

انهم لو فعلوا ذلك : لغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ولكن كذبوا ، فأخذهم الله بما كانوا يكذبون .

هذه سنة الله في الذين اظلمت قلوبهم ، وضعفت نفوسهم ، ويمموا وجوههم شطر الافك المخلوق ، فلا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر اليهم ، ولهم عذاب اليم .

اما الذين راقبوا الله ، واتبعوا سبيله ، وآمنوا بما نزل على رسوله ، فليس هناك أجمل مما أثنى به القرآن عليهم ا

((ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، تنزل عليهم الملائكة ، لا تخافوا ولا تحزنوا ، وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون .

نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون .

نزلا من غفور رحيم .

ومن احسن قولا ممن دعا الى الله ، وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين .

ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي احسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم .

وما يلقاها الا الذين صبروا ، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم (١)))

ويعقد القرآن الكريم المقارنة بين الذين كذبوا بالاسلام وكفروا به ، وبين الذين آمنوا واتقوا ربهم فيقول :

((ونسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا ، حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا : بلى . ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين .

قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين .

وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين .

وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننسوا من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين .

وترى الملائكة حافين من حول العرش ، يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين (١)

فستان بين من كذب بالاسلام وكفر به ، وبين من خاف الله واتقاه وعمل حسابه .

فالمكذب أذل نفسه وركب الشيطان رأسه ، وباع آخرته بدنياه ، واتبع هواه وكان أمره فرطا .

وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى .

ومهما يكن من شئ : فإن الاسلام لا بد من بقاء طهارته ، واستمرار قداسته ، مهما اشتدت وطأة الحاقدين ، أو اعتكرت صفائن المعاندين .

خاصة : وأنه دين واف بحاجات الناس على الرغم من تباين أوصافهم ، واختلاف أوطانهم .

ماذا على المسلم تجاه مزاعم رجال الاستشراق ؟ :

ان كل من يؤمن بالله ربا ، ويرضى بالاسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولاً ، مدين لدينه الاسلامى شرعاً ؛

ودين المسلم ، أو المؤمن ، لهذا الدين ، انما يظهر اثره واضحاً ؛

(١) الزمر آية : ٧١ - ٧٥

في فهم قواعد هذا الدين وأحكامه ، والسير المستقيم على منواله ،
والتبصر في سيره وسلوكه .

انه مدين له بالدود عنه ، والدفاع ضد كل قضية باطلة ،
فتوجه اليه للظعن فيه ، والتشهير المزيف بمبادئه .

ولكى يكون المسلم على طاقة لا تقهر ، وقوة لا تغلب - حينما
يقوم بالدود عن دينه - يجب عليه :

١ - أن يدرك أولا ، الفكرة الاسلامية الكلية ، عن الكون ،
والحياة ، والانسان .

فاذا ما كان على يقين من ادراك هذه الفكرة الشاملة ، استطاع
أن يسوق من الأدلة ما يتمشى وواقع هذا الادراك .

واذا ما استطاع أن يسوق من الأدلة ما يتمشى وواقع هذا
الادراك لهذه الفكرة الشاملة ، فانه يستطيع بالتالي أن يقنع خصم
هذا الدين ، أو يرده عن موقفه أن لم يقدر له الاقتناع .

ذلك : أن الانسان في عجز/عن أن يملك ما يقدمه لاقتناع خصمه
دفعة واحدة الا بادراك الفكرة الاسلامية الكلية ؛ وليس أدل على
ذلك من أن الاسلام حينما تولى تنظيم الحياة الانسانية ، فانه لم
يعالج نواحي الحياة الانسانية المختلفة جزافا ، وانما عالج هذه
النواحي حسبما كان له من فكرة كلية متكاملة ، عن هذا الكون ،
وعن هذه الحياة ، وعن هذا الانسان .

كان يرد الى فكرته الكلية جميع الفروع ، ثم يربط اليها
نظرياته ، وتشريعاته ، وحدوده ، وعباداته : ومعاملاته ، ثم يصدر
حكمه فيها بناء على ما اشتملت عليه فكرته المتكاملة ، دون ارتجال
لحالة من الحالات .

فادراك الفكرة الاسلامية الكلية ، من اهم الامور التي تيسر
للباحث فهم الاسلام ، أصوله وفروعه ، كما أنها تيسر للمسلم
قوة الحجة التي يقدمها لخصمه .

اذا فهمنا هذا : فاننا نستطيع أن نبين قيمة ما عندنا مما
نحب أن نقدمه ونعطيه لهؤلاء الذين دفعتهم حضارتهم المادية ،

أن يعبروا عن الاسلام أنه في انفصال دائم عن الحياة ، وفي تأخر
بأتباعه عن ركب الحضارة ، والحقيقة أنه لم يكن كذلك .

بل انه ينظر دائما الى الانسان على انه وحدة لا تنفصل اشواقه
الروحية من نزعاته الجسدية ، ولا تنفك حاجاته المعنوية ، عن
حاجاته المادية ، والحياة كلها في نظره بالنسبة للانسان ، حياة
تراحم ، وتعاطف ، وتعاون :

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ولا يخذله » .

و « مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحيمهم ، وتعاطفهم ، كمثل
الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء
بالسهر والحمى » .

٢ - التمسك بالقرآن الكريم ، وسنة النبي صلى الله عليه
وسلم ، والأخذ منهما ، والاستدلال بهما :

« تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا ، كتاب
الله وسنتي » .

التمسك بالقرآن ، والسنة ، لا ضلال معه ، والأخذ بالقرآن
والاستدلال به ، الدواء النافع لزوال هذه العلل المستعصية ،
والمقوم القوى للأهواء الشاردة الملتوية .

ذلك أن القرآن هو : المهيمن الصافي ، الذي ينهل منه كل وارد ،
والبلسم الشافي الذي يقصد اليه كل قاصد ؛ كذلك كان القرآن
وكذلك يكون أبدا .

فمن أخذته العزة بالإثم ، وأعرض صفحا عنه ، اكتفاء
بالاستدلال بالعقل ، فهو لا شك ضال مضل ، مغير نعمة أنعمها الله
على خلقه ، موقظ فتنة لعن الله من أيقظها .

أسند عن الحارث عن علي رضي الله عنه ، فيما أخرجه الترمذي ،
قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ستكون فتنة كقطع الليل المظلم » . قلت : يا رسول الله !
وما المخرج منها ؟ قال :

« كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبا من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ،
وحكم ما بينكم .

هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن
ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ،
والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به
الاهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا تشيع
منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي
عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن اذ سمعته ان قالوا :

« انا سمعنا قرآنا عجبا » .

من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ،
ومن عمل به اجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم » (١) اهـ

ويقول ابن عوف ، فيما رواه البخارى ، رضى الله عنه :

« ثلاث أحبهن لنفسى واخوانى ؛

هذه السنة أن يتعلموها ، ويسألوا عنها »

والقرآن أن يفهموه ويسألوا عنه .

ويدعو الناس الا من خير » (٢)

ويقول سيدنا على رضوان الله تعالى عليه في كلام طويل له :

« اعلموا ان هذا القرآن هو الناصح الذى لا يغش ، والهادى
الذى لا يضل ، والمحدث الذى لا يكذب ، وما جالس هذا القرآن
احد الا قام عنه بزيادة او نقصان ؛ زيادة فى هدى ، ونقصان
من عمى ؛

واعلموا : انه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ، ولا لاحد
اقبل القرآن من غنى .

فاستشفوه من ادوائكم ، واستعينوا به على لاوائكم ، فان فيه الشفاء من اكبر الداء ... » اهـ

وعن مرة الهمداني يقول : قال عبد الله ا

« ان احسن الحديث كتاب الله ، واحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وان ما توعدون لآت وما انتم بمعجزين » (١)

وكما ان الله سبحانه ، خص القرآن بذلك ، فانه تعالى ، وعد بحفظه ، وكان وعده حقا ، لم تمتد يد غاشة اليه ، ولم تغير آية من آياته ، آراء تريد تحريفه أو تبديله ؛

يقول الامام محمد عبده عن هذا القرآن :

« هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه في حنادس الظلم ، لافراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهدون به اليه ، ويحمدون سراجهم بما عرفوا من نجاح مسعاهم ؛ ولكن الذين اطبقت عليهم ظلم البدع ، وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ، وطمست بصائرهم ، وفسدت عقولهم بما حشوها من الاباطيل ؛ وبما عطلوها عن النظر في الدليل .

هؤلاء في عمى عن نوره ، وقلوبهم في اكنة لا يفقهوه ، وفي آذانهم وقر ، يصيحون بانهم عمى صم ، فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الايمان به ، ولبئس ما رضوا لانفسهم من السفه ، وطيش الحلم ، وهم يعلمون .

هذه حال الجمهور الاعظم ، ممن يوصفون بانهم مسلمون ؛ ويجلبون العار على الاسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقولون حجج اعدائه في حربه ، بزعمهم الاجتماعي تحت لوائه ، وما هم منه في شيء .»

(١) رواه الامام البخاري

هؤلاء لا بد أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم ، فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، وضيقوا على أنفسهم بدخولهم في حجر الضب الذي دخلوه .

ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، فلن يخلص مما قضى الله في عذابهم ؛

فقد قص عليهم سير الأولين ، وبين لهم ما أنزل بهم عندما انحرفوا عن سنته ، وحادوا عن شرعه ، ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا ، أحل بهم الذل ، وضربت عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم ، فهل ينتظر المتبعون سننهم ، السائرون على أثرهم ، أن يصنع الله بهم غير الذي صنع بسابقيهم ؟ وقد قضى بأن تلك سنته ، ولن تجد لسنة الله تبديل « (١) » .

بهذه الخواطر المليئة بالإيمان والحكمة ، عبر الإمام عن عظمة القرآن الكريم ، وموقفه من الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة .

ثم بين كذلك : أن الاسلام لن يقف عثرة في سبيل الحضارة والمدنية ، بل على العكس من ذلك : إذ أن هدفه الأسمى - بعد تحرير العقيدة - أنه يعمل جاهدا ليهذب الحضارة ، وينقى المدنية ، من أوضارها ، حتى تكون هذه أو تلك من أقوى أنصاره ، وأعز أعوانه متى عرفته ، والا فان أجل الحضارة ، عن قريب ينتهى ويزول .

وقد أشار الإمام الى ما يطمئن النفوس ، وهو : أن الجمود العقلى الذى نشأ عليه أعداء الاسلام ، لا بد وأنه سيزول . وأقوى الأدلة على ذلك ، بقاء هذا الكتاب الكريم ، بين أيدي المسلمين يقودهم ويرشدهم ويحثهم ويوجههم .

بل أن من أقوى الأدلة على زوال هذا الجمود : لطف العليم الخبير سبحانه ، واصطفاء الكثير من الرجال الذين يتعاونون في نصرته ، ويجندون أنفسهم للقيام بخدمته ، وأن هذه الحوادث

(١) انظر : الاسلام دين العلم والمدنية .

المتوالية ، تسعدهم ، وسوط العذاب النازل من الله بالجامدين
ينصرهم .

وما قصده الامام حق ، فالقرآن لا بد وان يعود نوره الى
الظهور ، وسيمزق بقوته وجبروته حجب هذه الضلالات ، ويرجع
ان شاء الله الى موطنه الاول من قلوب المسلمين . لان الله وعد ان
يتم نوره ، ويظهره على الدين كله ؛ فلن ينقضى هذا العالم حتى يتم
وعد الله سبحانه ، وبأخذ الاسلام بيد ابنائه واتباعه .

الباب الثالث

من المثل الاسلامية العليا

- مثل الرسول صلى الله عليه وسلم
- في رحاب الجليس والصحبة
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ضوء القرآن والسنة



الفصل الأول

مثل الرسول صلى الله عليه وسلم

في رحاب النور الإلهي :

يقول الله تعالى :

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم » (١)

ويقول سبحانه واصفا نبيه :

« وانك لعلى خلق عظيم » (٢)

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

« انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وبعد : فان أجل ما يذكر ، وأعظم ما ينبغي أن يتبع - لكي يسمو الانسان الى ذروة ما ينبغي الوصول اليه من مثل اسلامية عليا - انما هو الاقتداء الحسن بصاحب الخلق الحسن صلى الله عليه وسلم .

والاقتداء الحسن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، انما يكون : بالتأسي بأفعاله ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بأدابه ، واستغراق القلب في حبه ، وإيثار حبه صلى الله عليه وسلم ، عما سوى الحق سبحانه .

عن انس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) المائدة آية : ١٥

(٢) القلم آية : ٤

**« لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ، ووالده ،
والناس اجمعين » (١) .**

ويحدد القرآن الكريم ، المعنى الجليل للاقتداء برسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فى سهولة ويسر فيقول :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » (٢) .

والجملة الجليلة الاولى من هذه الآية الكريمة : **« وما آتاكم
الرسول فخذوه »** تشعرا فى وضوح واضح ، بوجوب التزام طاعة
الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى كل ما أتى وأمر به ، حتى يصل
الانسان بطاعته صلوات الله وسلامه عليه ، الى محبة الله له
سبحانه : ومغفرة ذنوبه أيضا .

ذلك : أن محبة الله سبحانه وتعالى للانسان ، ومغفرة ذنوبه ،
انما يكون ذلك : بالتزام ما أتى به ، الرسول ، صلى الله عليه
وسلم ، من أمر ، والانتفاء التام عن كل ما نهى عنه أيضا .

وفى التزام ما أتى به الرسول امتثالا لأمر الحق سبحانه ، وفى
الانتفاء عن كل ما نهى عنه ، تعالى السعادة التامة ، والفضيلة
الكاملة ، والأس الجامع لخيرى الدنيا والآخرة .

يقول الله تعالى :

**« قل ان كنتم تحبون الله ، فاتبعونى يحببكم الله ، ويغفر لكم
ذنوبكم » (٣) .**

ويقول سبحانه :

« من يطع الرسول فقد اطاع الله » (٤) .

(١) رواه الامام مسلم ؑ

(٢) الحشر آية : ٧

(٣) آل عمران آية : ٣١ .

(٤) النساء آية : ٨٠ .

فطاعة الله هي رأس الأمر كله ، ومحبته سبحانه التي هي
بلسم الصالحين من عباده ، لن يتحققا الا بمتابعة الرسول صلى الله
عليه وسلم ، فيما أمر به ، أو نهى عنه .

أما الجملة الباقية من الآية الكريمة وهي : « وما نهاكم عنه
فانتهاوا » فهي توجب كذلك أن يبتعد الانسان عن كل ما يخالف

أمر الله سبحانه ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم .
عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

« لعن الله الواشمات ، والمستوشمات ، والمتنمصات والمتفلجات
للحسن ، المغيرات خلق الله عز وجل .

قال : فبلغ امرأة من بنى الأسد في البيت ، يقال لها : أم يعقوب ،
فجاءت اليه فقالت :

بلغنى أنك قلت : كيت ، وكيت ؟ قال :

مالى لا لعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو
في كتاب الله تعالى ؟ فقالت :

انى لأقرأ ما بين لوحيه ، فما وجدته . فقال :

ان كنت قرأتيه ، فقد وجدتيه ، أما قرأت :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ؟ »

فقالت : بلى . قال :

فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نهى عنه . قالت :

انى لأظن أهلك يفعلونه ؟ قال :

أذهبى فانظرى ، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئا ، فجاءت
فقالت :

ما رأيت شيئا . قال :

لو كان كذا لم تجامعنا (١) »

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان الثوري .

ويرسم القرآن الكريم طريقى الامتثال لما امر الله به ،
والاجتناب لما نهى عنه ، رسما واضحا صريحا فيقول :

« تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله ، يدخله جنات
تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم .

ومن يعصى الله ورسوله ، ويتعد حدوده ، يدخله نارا خالدا
فيها ، وله عذاب مهين (١) » .

وحُدود الله سبحانه ، انما يتحقق القيام عليها ، بطاعة الله
تعالى ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فاذا ما حصلت طاعة
المولى سبحانه ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، حصل
لا محالة الفوز العظيم ، بالجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ،
والخلد الدائم ، والنعيم المقيم فى الدار الآخرة .

اما الوقوع فى حدود الله - والعياذ بالله - فانما يكون بمعصية
الله ، ومعصية رسوله ، صلى الله عليه وسلم .

فاذا ما عصى الإنسان ربه ، ولم يستجب لدعوة الحق على
لسان نبيه ، استحق بلا شك ، ما أعدّه الله له ، من العقاب
الشديد الأليم ، والمكث الطويل فى نار جهنم .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، يضرب المثل للقائم فى حدود
الله ، والواقع فيها ، فى حديث رائع جميل ، فيقول فيما رواه
النعمان بن بشير ، رضى الله عنه :

« مثل القائم فى حدود الله ، والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا
على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين
فى أسفلها ، اذا استقوا من الماء ، مروا على من فوقهم ، فقالوا :

لو انا خرقنا فى نصيبنا خرقا ، ولم تؤذ من فوقنا ، فان
تركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعا ، وان أخذوا على ايديهم نجوا
ونجوا جميعا » (٢)

(١) النساء آية : ١٢ ، ١٤

فتقوى الله سبحانه اذن امر لا بد منه ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومتابعته ، لا ينبغي لمسلم ، الانفكاك عنها ، فان تقوى الله هى رأس الأمر كله ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومتابعته ، هى ذروة سنام التقوى .

وتقوى الله سبحانه ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لن يتأتى للانسان أن يتحقق بهما الا اذا أذن الله ولرسوله مسلما ، دون حرج فى النفس ، أو قلق فى القلب ، أو اشمئزاز فى الإدراك والفكر .

انه يسلم لله ولرسوله تسليما حتى فيما شجر بينه وبين غيره من خلاف ، بل انه يسلم لله ولرسوله فى كل ما حربه من أمر ، أو اتاه من قدر ، خيره وشره ، حلوه ومره .

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » .

يقول العارف بالله تعالى ، ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه ، فى قوله :

« فلا وربك لا يؤمنون .. الآية » .

فيه دلالة على أن الإيمان الحقيقى ، لا يحصل الا لمن حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، على نفسه ، قولا وفعلًا ، وأخذا وتركًا ، وحبا وبغضا ، ويشمل ذلك حكم التكليف وحكم التصريف ، والتسليم والانقياد واجب على كل مؤمن فى كليهما .

فأحكام التكليف : الأوامر والنواهي ، المتعلقة باكتساب العباد .

وأحكام التصريف : هو ما أورده عليك ، من قهر المراد .

فتبين من هذا أنه لا يحصل لك حقيقة الإيمان الا بأمرين :

بالامتثال لأمره : والاستسلام لقهره .

ثم انه سبحانه وتعالى ، لم يكتف بنفى الإيمان ، عن من لم يحكم ، أو حكم ووجد الحرج فى نفسه على ما قضى ، حتى أقسم

على ذلك بالربوبية الخاصة ، برسوله صلى الله عليه وسلم ، رافة وعناية ، وتخصيصا ورعاية ،

لانه لم يقل : « فلا والرب » وانما قال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » .

ففى ذلك : تأكيد بالقسم ، وتأكيد فى القسم عليه ، علما منه سبحانه : بما النفوس منطوية عليه من حب الغلبة ، ووجود النصره ، سواء كان الحق عليها ، أو لها ، وفى ذلك اظهار لعنايته برسوله صلى الله عليه وسلم ، اذ جعل حكمه حكمة ، وقضاءه قضاءه ، فاجب على العباد الاستسلام لحكمه ، والانقياد لامره ، ولم يقبل منهم الايمان بالاھيته ، حتى يدعوا لاحكام رسوله ، صلى الله عليه وسلم : لانه كما وصفه ربه :

« وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى »

فحكمه : حكم الله ، وقضاؤه قضاء الله ، كما قال :

« ان الذين يبايعونك ، انما يبايعون الله » . واكد ذلك بقوله :

« يد الله فوق ايديهم » .

وفى الآية اشارة اخرى لعظم قدره ، وتفخيم امره ، صلى الله عليه وسلم ، وهى قوله تعالى :

« فلا وربك »

فاضاف نفسه تعالى اليه ، كما قال فى الآية الأخرى :

« كهيعص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا »

فاضاف الحق سبحانه ، اسمه الى محمد صلى الله عليه وسلم : واضاف زكريا اليه ليعلم العباد ، فرق ما بين المنزلتين ، وتفاوت ما بين الرتبتين .

ثم انه تعالى : لم يكتف بالتحكيم الظاهر ، فيكونوا به مؤمنين ، بل اشترط فقدان الحرج ، وهو الضيق من نفوسهم ، فى احكامه ، صلى الله عليه وسلم ، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها ،

وانما تضيق النفوس ، لفقدان الأنوار ، ووجود الأغيار ، فعنه يكون الحرج : وهو الضيق ، والمؤمنون ليسوا كذلك .

اذ نور الايمان ملاً قلوبهم ، فانتسعت وانتشرت فكانت واسعة بنور الواسع العليم ، ممدودة بوجود فضله العظيم ، مهياة لواردات أحكامه ، مفوضة اليه في نقضه وابرامه (١) « اهـ

والقرآن الكريم الذى اوجب الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفى الايمان عن الذين لم يحكموا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما شجر بينهم من خلاف .

فان من شرط الايمان الصادق ، تحكيم الله ورسوله ، لا مجرد التحكيم فحسب ، بل انه يصحب التحكيم التفويض التام ، والتسليم المطلق : والاذعان لطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ثم لا يجسدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » .

(وجه الحاجة لتقديم مثل الرسول صلى الله عليه وسلم)

رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، لما كان شأنه كذلك ، وكذلك يكون ابدا ، كان من الضرورة الضرورية ، أن يكون الحديث عن مثله العليا ، فى مقدمة حديثنا عن المثل الاسلامية ، اذ أن مثله : هى الأصل الأصيل : والركن الركين ، الذى تسند اليه المثل الاسلامية العليا : وتنبع منه .

ومثل الرسول صلى الله عليه وسلم ، من حيث الاحاطة بها ، فان العقل البشرى ، مهما أوتى من فصاحة لسان ، وبلاغة حنان ، وحسن تبيان ، فهو عاجز ، بل انه بالعجز عن الاحاطة بها موصوف ، وبعدم الادراك الشامل لكنه حقيقتها معروف .

وحسب الباحث اقناعا ، ما مدح الله به نبيه ، وأثنى عليه بقوله سبحانه :

(١) انظر كتاب : « التنوير » لابن عطاء الله السكندرى ص ٣ ، ٤

« وانك لعلی خلق عظیم »

والناظر فی هذه الآية الکریمه ، التي مدح الله بها رسوله صلى الله علیه وسلم ، يجد أن الله تعالى قال له :

« وانك لعلی خلق » . ولم يقل له : « وان لك خلق » . أو لم يقل له : « وانك لدو خلق » .

وانما قال له : « وانك لعلی خلق عظیم » .

وفی هذا التعبير الالهی ، اشارة الى أن الاخلاق الکریمه كانت انت مجتمعة واستقرت ثابتة ، ثم اجلس الله تعالى : رسوله صلى الله علیه وسلم علیها ، وهذا من عظیم کرم الله تعالى علی نبيه ، وجلیل ادبه الذي ادبه به ، فأحسن تأديبه .

وهذا حق يؤيده ، قوله صلى الله علیه وسلم :

« انما بعثت لأتمم مکارم الاخلاق » .

بل انه حق يعضده قول الحق سبحانه :

« لقد کان لکم فی رسول الله اسوة حسنة لمن کان یرجو الله والیوم الآخر » .

لقد کان صلوات الله وسلامه علیه ، اسوة حسنة ، لكل مؤمن ، بنص القرآن .

بل لقد کان صلوات الله وسلامه علیه ، اسوة حسنة ، لمن کان یرجو الله والیوم الآخر ، بأقواله وأفعاله ، وحركاته وسکناته ، بل أنه صلوات الله وسلامه علیه ، الاسوة الحسنة ، بتوجيهاته الحکیمه ، وارشاداته النيرة .

انه الاسوة الحسنة ، والقدوة المباركة ، فی الأعمال الصالحة فی مختلف میادين الحياة .

ولا شک : أن مثله صلى الله علیه وسلم ، نبراس وضاء وشمس ساطع ، وقبس مضي ومرشد سلیم ، لمن رغب الهدایة وطلب السعادة ، وابتغی الله تعالى ، والدار الآخر .

لهذا أردت والأرادة لله وحده ، وقصدت ميمما وجهى شطر
مثل الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكى يكون حديثى عنها فى
مقدمة الحديث عن المثل الإسلامية العليا ، التى دعا الاسلام إليها .

فنحن أحوج ما نكون الى التزام الأدب مع حضرته صلى الله
عليه وسلم ، بل ونحن أحوج ما نكون كذلك ، الى معرفة أخلاقه ،
وأفعاله ، اذ الايمان بالشىء فرع عن تصويره .

ونحن نؤمن ايمانا كاملا ، بالرسول صلى الله عليه وسلم ،
فلا اقل من أن نكون فى حاجة ماسة ، الى معرفة أخلاقه : وأفعاله ،
حتى تقتدى به فى أعمالنا ، ونتأسى بأخلاقه فى حياتنا ، ونسعد بنفحة
طيبه التى نحب دائما أن نستنشق أريجها ، ونتمتع بعبرها
الخالد ، التى تحف مجالسه الملائكة .

من أجل ذلك : أردت أن أسرد بعض ما نعرفه عن خلق هذا
النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، لا كل ما نعرفه ، اذ الحديث
عن تمام ما نعرفه عن أخلاقه ، ومكارم صفاته ، يحتاج الى فصول
وأبواب ، يتعدد ذلك ، بتعدد مكارم الصفات ، وجليل الخصال ،
حسبما كان ، أو يكون فى مقدور البشر ، لا كما هو كائن فى علم
الله سبحانه ، مما أدبه به وجمله ، وزينه وحسنه .

أما ما هو كائن فى علم الله تعالى ، مما خلقه به وأدبه ، من
عظيم السجايا ، ومحاسن الشيم ، فانه لا يحيط علما بوصف ذلك
الا الله سبحانه ، اذ أنه لا يعرف الرسول كما هو الرسول ، الا
من اصطفاه للرسالة ، واختاره للعالمين رحمة .

مثاله صلوات الله عليه ، على ضوء القرآن والسنة :

أدب الله تعالى ، نبيه صلى الله عليه وسلم ، بالقرآن :
فأحسن تأديبه ، حتى كان يسبح مستغرقا فى عبادته له سبحانه ،
ثم يخفى ذلك على أصحابه ، لأنه بهم رؤف رحيم .

ثم خلقه بالقرآن أيضا حتى كان خلقه القرآن كما وصفته
السيدة عائشة بذلك حينما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فقالت :

« كان خلقه القرآن »

وازداد خلق النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى كان صلى الله عليه وسلم ، كثير التضرع والابتغال الى الله عز وجل ، دائم السؤال منه سبحانه ، أن يجعله ويزينه ، بمحاسن الأدب ، وعظيم الشائل ، حتى أصبح ديدنه ، وغذاء روحه ، وتضرعه الدائب في الابتغال الى ربه :

« اللهم حسن خلقى وخلقى »

روى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقول :

« اللهم جنبني منكرات الأخلاق (١) »

واستجاب الله تعالى دعاءه ، وأنزل عليه القرآن وأدبه به ، حتى كان خلقه القرآن نفسه .

روى الامام مسلم رضى الله عنه قال : قال سعد بن هشام :

« دخلت عائشة رضى الله عنها وعن أبيها ، فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت :

أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قلت :

كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، القرآن (٢) » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلقه القرآن بكل ما في القرآن من بلاغة حنان وحسن بيان ، وقيادة رشيدة ، وتوجيه موفق .

لقد كان خلقه القرآن بكل ما اشتمل عليه القرآن من معاني روحية سامية ، ومبادئ انسانية فائقة ، وقوانين اسلامية عادلة .

(١) رواه الترمذى وحسنه .

(٢) رواه مسلم في صحيحه رضى الله عنه .

لقد كان القرآن خلقه صلوات الله وسلامه عليه ، بما في القرآن من عصمة معصومة ، لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .
لقد كان القرآن الكريم خلقه حسبما اختاره الله ، وأنزله عليه ، ليتخلق به ، حتى كان مما تخلق به منه قوله :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فإذا عزم فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين (١) » .
وكان منه قوله سبحانه :

« خذ العفو وأمر بالعرف ، واعرض عن الجاهلين (٢) » .
وكان منه قوله تعالى :

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا ، انه بما تعملون بصير ، ولا تركنوا الى الذين ظلموا ، فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من اولياء ، ثم لا تنصرون .

واقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين .

واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين (٣) » .
وكان منه قوله سبحانه :

« فاصفح الصفح الجميل ، ان ربك هو الخلاق العظيم ، ولقد اتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ، لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ، ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين ، وقل : انى انذار المبين ، كما انزلنا على المقتسمين ،

(١) آل عمران آية : ١٥٩

(٢) الاعراف آية : ١٩٩

(٣) هود آية : ١١١ - ١١٥

الذين جعلوا القرآن عضين ، فوربك نستنزلهم اجمعين ، عما كانوا يعملون ، فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، انا كفييناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى ياتييك اليقين (١) »

وكان منه قوله تعالى :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي احسن ، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو اعلم بالمهتدين ، وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم ، لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك في ضيق مما يمكرون ، ان الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون (٢) »

وكان منه قوله سبحانه :

« اقم الصلاة لادولك الشمس الى غسق الليل ، وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا ، ومن الليل فتعبد به نافلة لك ، عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا ، وقبل رب ادخلني مدخل صدق ، واخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ، وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا (٣) »

وكان منه قوله تعالى :

« قل ادعوا الله ، او ادعوا الرحمن ، اياما تدعوا ، فانه الاسماء الحسنى ، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا ، وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من النل وكبره تكبره (٤) » .

(١) الحجرات آية : ٨٥ - ٩٩

(٢) النحل آية : ١٢٥ - ١٢٨

(٣) الاسراء آية : ٧٨ - ٨١

(٤) الاسراء آية : ١١٠ ، ١١١

وكان منه قوله سبحانه :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا (١) » .

وكان منه قوله تعالى :

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى ، إنما الهكم اله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا (٢) » .

وكان منه قوله سبحانه :

« فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى اليه وحيه ، وقل رب زدنى علما (٣) » .

وكان منه قوله تعالى :

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل ، فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ، ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ، زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى ، وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، لا نسالك رزها نحن نرزقك والصاقبة للثقوى (٤) » .

وكان منه قوله سبحانه :

« ادفع بالتي هي أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون (٥) » .

(١) الكهف آية : : ٢٨

(٢) الكهف آية : : ١١٠

(٣) طه آية : : ١١٤

(٤) طه آية : : ١٣٠ - ١٣٢

(٥) المؤمنون آية : : ٦٦

وكان منه قوله تعالى :

« وتوكل على الحي الذي لا يموت ، وسبح بحمده ، وكفى به
بذنوب عباده خيرا » (١) .

وكان منه قوله سبحانه :

« وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من
المؤمنين ، فإن عصوك فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ . وتوكل على
العزیز الرحيم ، الذي يراك حين تقوم ؛ وتقلبك في الساجدين ، انه
هو السميع العليم » (٢) .

وكان منه قوله تعالى :

« فتوكل على الله ، انك على الحق المبين ، انك لا تسمع الموتى
ولا تسمع الصم الدعاء ، اذا ولوا مدبرين ، وما انت بهادى العمى
عن ضلالتهم ، ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (٣) .

وكان منه قوله سبحانه :

« انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو اعلم
بالمهتدين » (٤)

وكان منه قوله تعالى :

« اتل ما اوحى اليك من الكتاب واقم الصلاة ، ان الصلاة
تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله اكبر ، والله يعلم
ما تصنعون » (٥) .

وكان منه قوله سبحانه :

(١) الفرقان آية : ٥٨

(٢) الشعراء آية : ٢١٤ - ٢٢٠

(٣) النمل آية : ٧٩ - ٨١

(٤) القصص آية : ٥٦

(٥) المنكوت آية : ٤٥

((فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرت الله التي فطر الناس عليها ، لا تبدل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) (١) •

وكان منه قوله تعالى :

((يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ، ان الله كان عليهما حكيمًا ؛ واتبع ما يوحى إليك من ربك ، ان الله كان بما تعملون خبيرًا ؛ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا)) (٢) •

وكان منه قوله سبحانه :

((ادفع بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)) (٣) •

وكان منه قوله تعالى :

((فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير)) (٤) •

وكان منه قوله سبحانه :

((فاستمسك بالذي أوحي إليك ، انك على صراط مستقيم ، وانه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسئلون)) (٥) •

وكان منه قوله تعالى :

((فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون)) (٦) •

(١) الروم آية : ٣٠

(٢) الاحزاب آية : ١ - ٣

(٣) فصلت آية : ٣٤

(٤) الشورى آية : ١٥

(٥) الزخرف آية : ٤٣ ، ٤٤

(٦) الزخرف آية : ٨٩

وكان منه قوله سبحانه :

« فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل ، ولا تستعجل
لهم ، كانهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار
بلاغ ، فهل يهلك الا القوم الفاسقون » (١) .

وكان منه قوله تعالى :

« فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس
وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ، واستمع يوم
يناد المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ، ذلك يوم
الخروج ، انا نحن نحيي ونميت والينا المصير ، يوم تشقق الأرض
عنهم سراعا ، ذلك حشر علينا يسير ، نحن أعلم بما يقولون ،
وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٢) .

وكان منه قوله سبحانه :

« واصبر لحكم ربك فانك باعيننا ، وسبح بحمد ربك حين
نقوم ، ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم » (٣) .

وكان منه قوله تعالى :

« فاعرض عن تولى عن ذكرنا ، ولم يرد الا الحياة الدنيا ،
ذلك مبلغهم من العلم ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو
أعلم بمن اهتدى » (٤) .

وكان منه قوله سبحانه :

« يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغي مرضات

(١) الاحقاف آية : ٢٥

(٢) ق آية : ٢٩ - ٤٥

(٣) الطور آية : ٤٩ ، ٤٦

(٤) النجم آية : ٢٩ ، ٣٠

ازواجك والله غفور رحيم ، قد فرض الله لكم تحلة ايهاانكم ، والله
مولاكم ، وهو العليم الحكيم « (١) •

وكان منه قوله تعالى :

« فاصبر صبرا جميلا » (٢) •

وكان منه قوله سبحانه :

« يا ايها المزمل ، قم الليل الا قليلا ، نصفه او انقص منه قليلا ،
او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، انا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، ان
ناشئة الليل هي اشد وطئا واقوم قيلا ، ان لك في النهار سبحا
طويلا ، واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب
لا اله الا هو فاتخذه وكيلا ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا
جميلا ، وذرنى والمكثنين اولى النعمة ومهلهم قليلا » (٣) •

وكان منه قوله تعالى :

« يا ايها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر

والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » (٤) •

وكان منه قوله تعالى :

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا

قرانه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه » (٥) •

(١) التحريم آية : ١ ، ٢

(٢) المعارج آية : ٥

(٣) المزمل آية : ١ - ١١

(٤) المدثر آية : ١ - ٧

(٥) القيامة آية : ١٦ - ١٨

وكان منه قوله تعالى :

« انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ، فاصبر لحكم ربك ولا تطف
منهم ءاثما أو كفوفا ، واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل
فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » (١) .

وكان منه قوله سبحانه :

« عيس وتولى ، ان جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ،
أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فانت له تصدى ،
وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى فانت عنه
تلهى » (٢) .

وكان منه قوله تعالى :

« فذكر انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » (٣) .

وكان منه قوله سبحانه :

« ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى انقض
ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، فان مع العسر يسرا ، ان مع العسر
يسرا ، فاذا فرغت فانصب ، والى ربك فارغب » (٤) .

والآيات الواردة لهذا المعنى ، فى القرآن الكريم كثيرة
مستفيضة ، وكلها تبين تماما ، أن الله تعالى ، أدب نبيه بالقرآن
وحلاه به ، حتى كان القرآن خلقه صلى الله عليه وسلم ، وحسب
الرسول صلى الله عليه وسلم ، شرفا بذلك ، بل وحسب الأمة
الاسلامية ، شرفا برسولها ، أن عبر القرآن الكريم عنه بقوله :
« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » .

(١) الانسان آية : ٢٣ - ٢٦ .

(٢) عيس آية : ١ - ١٠ .

(٣) الفاشية آية : ٢١ ، ٢٢ .

(٤) سورة الانشراح بأكملها

فالنور هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، والكتاب المبين ، هو القرآن الذي أنزله الله عليه ، ليخرج الناس من الظلمات الى النور .

فالرسول نور ، ورسالته نور ، وخلقته نور ، وفي الاقتداء به صلى الله عليه وسلم ، نور ، وفي التخلق بأخلاقه نور ، وفي اتباع طريقه نور ، فهو ، وبه ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء .
من جوامع أخلاقه وآدابه صلى الله عليه وسلم :

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو صاحب الخلق العظيم الحسن ، ذلك : انه أحلم الناس وأشجعهم ، وأعدل الخلق وأكملهم ، وأكثرهم عطفًا وأرحمهم ، وأحسنهم سخاء وأطيبهم ، وأعرفهم بربه وأوصلهم ، وأكرمهم وأعظمهم .

انه الرسول الكريم ، والنبي السخي الحليم ، الذى فاض كرمه واغدق سخاؤه ، وعظم حلمه وعم اثاره ، حتى كان لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، ولو فضل شيء عنده ، ولم يجد من يعطيه له ، تبرأ منه ، أو وهبه لمن يحتاج اليه ،

وما سئل عن شيء صلوات الله وسلامه عليه ، الا اعطاه لسائله .

ورد فى الصحيحين من حديث جابر رضى الله عنه :

« ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شيئاً قط ، فقال : لا » اهـ

اما حياؤه وتواضعه : فقد كان صلى الله عليه وسلم ، أشد الناس حياء ، حتى انه كان لا يثبت بصره فى وجه أحد ؛

وبلغ شأن تواضعه ، الى انه لا يعرف للكبر طريقا ، ولا للتكبر سبيلا ، بل انه صلوات الله وسلامه عليه ، كان سهلا سمحا ، ضاحكا مداعبا ، يمزح ولا يقول الا حقا .

يجيب دعوة الداعى ، عبدا كان أو حرا .

يوقر الكبير ، ويعطف على الصغير ، يرق على الحيوان ترحما ،
ويلبى حاجة المسكين والفقير تواضعا .

يغضب لله وفي الله ، لا لنفسه ولا لهواه ، ينفذ الحق مهما كان
فيه عليه أو على أصحابه من ضرر ، دون أن يهوله شيء من أمور
الدنيا ، ولا يخاف من شيء سوى المولى ؛

لا يهتم لشيء إلا وكان لله ، ولا يخشى الخلق دون أن يخشى الله ؛
يحب الطيب من الفعل والقول ، ويكره الخبيث منهما وينهى
عنه أيضا .

يرغب في الطيب من الرائحة ويحبه ، ويكره الرديء منها
ويمقته ،

يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ، ويكرم الضيف ويؤثره ،
ويحب أهل الفضل في أخلاقهم ، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم .

لا يجفو أحدا ، ولا يرضى بالجفوة على أحد .

يقبل العذرة ، ويأمر بقبولها من المعتذرين .

لا تمر له آونة في غير الله ، ولا ينقضى منه يوم إلا وفيه صلاح
نفسه وهواه .

وكان من جميل صفاته صلى الله عليه وسلم ، أنه عاف غير
أخذ ، كاظم غيظه غير فظ ، بل أنه كان رحيفا لا سبابا ولا لعانا ،
صفوح عن الزلات والهفوات ، ما لم يكن في ذلك معصية الله
سيئانه .

لم يلعن أحدا حتى ولو كان مشركا :

روى أبو هريرة رضى الله عنه ، أنه قيل له يوما ما ، وهو في
القتال ضد المشركين :

لو لعنتهم (١) يا رسول الله ؟ فقال :

« انما بعثت رحمة ، ولم ابعث لعنا » .

هكذا كان طابع الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى سما به وارتقى الى قمة المجد وذروة سنام الأدب ، حتى كانت المثل العليا ، قطرة من بحر ، أو كوكبا من كواكبه التى أضاء الكون بنورها وعم الأصقاع شعاها .

وها هو ذا وقد بلغت الرحمة فى قلبه مبلغ العموم الشامل لخلق الله سبحانه ، حتى أنه لو سئل الدعاء على قوم عدل عن ذلك شفقة بهم الى الدعاء لهم :

« اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » .

طلب الهداية لقومه ، ونفى العلم عنهم ، ولم يقل كما قال نبي الله نوح :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (٢) » .

بلغت به الرحمة مبلغها حتى كان بنفسه رحمة :

« انما أنا رحمة مهداة » .

وارسله الله للعالمين رحمة :

« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين (٣) »

فهو للعالمين رحمه ، وبالمؤمنين رءوف رحيم .

لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم (٤) »

(١) يعنى لو لعنت المشركين ودعوت عليهم .

(٢) نوح آية : ٢٦

(٣) الانبياء آية : ١٠٧

(٤) التوبة آية : ١٢٨

ولما كان صاوات الله وسلامه عليه رحمة مهداة ، وكان رحمة للعالمين ، وكان بالمؤمنين رءوفا رحيمًا ، كان من تمام طابعه الحمدي ، لين الجانب ، ورقة القلب في المعاملة ، لا مع المؤمنين فحسب ، بل ومع غير المؤمنين أيضا :

روى أبو هريرة رضى الله عنه ، أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، يتقاضاه فأغلظ له ، فهم به أصحابه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

دعوه ، فإن لصاحب الحق مقالا ، ثم قال : أعطوه سنا مثل سنه ، قالوا يا رسول الله ! لا نجد الا امثلا من سنه ؟ قال :

أعطوه ، فإن خيركم أحسنكم قضاء (١) »

خلق كريم ، وقلب رحيم ، ونفس تقيّة ، وعاطفة كريمة ، ومروءة نادرة فائقة ، تجلت في شخص نبي الرحمة ، ورسول السلام ، صلى الله عليه وسلم ، حتى ازداد بذلك سموا روحيا على سموه ، وعظما ربانيا على عطفه ، وارتقى وعلا ، حتى وصل الى ما وصل اليه من التسامح في بيعه وشرائه ، وأخذه وعطائه ، بل وفي حركاته وسكناته .

روى جابر رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« رحم الله رجلا سمحا اذا باع ، واذا اشترى ، واذا اقتضى (٢) »

وازداد شأن سمو التسامح عنده ، حتى أنه ترفع ترحما . فلم يضرب بيده أحدا قط ، اللهم الا للجهاد في سبيل الله ،

وما انتقم من شيء ، الا أن تنتهك حرمة الله تعالى ،

وما خير بين أمرين الا واختار الأيسر منهما الا أن يكون فيه اثم أو قطيعة رحم ، فيكون أبعد الناس من ذلك تركا ؛

(١) متفق عليه . -

(٢) رواه الامام البخارى

يقول انس رضى الله عنه ، واصفا اخلاق النبی صلى الله عليه وسلم :
 « والذي بعثه بالحق ، ما قال في شيء قط ، كرهه لم فعلته ، ولا ، لامنى من أهله ، الا قال :

دعوه ، انما كان هذا بكتاب وقدر (١) »

وعلا قدر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعظم تواضعه ، حتى وصل الى أن يبدأ صلوات الله وسلامه عليه ، من لقيه بالسلاام أولا ، ويصبر على من يجادله حتى ينصرف ؛ وما أخذ أحد بيده للمصافحة فيرسل يده ، حتى يرسلها الآخر ؛

وازداد تواضعه صلى الله عليه وسلم ، تواضعا ، حتى كان مجلسه لا يعرف من بين مجالس أصحابه ، اذ انه كان صلوات الله وسلامه عليه ، يجلس حيث ينتهى المجلس ، ولا يجلس ولا يقوم الا على ذكر الله دائما ، وكان يكرم من يدخل عليه ، وربما يؤثره بالوسادة التى من تحته على نفسه .

وما استضافة أحد الا وظن أنه أكرم الناس عليه ، اذ انه كان يعطى كل من كان حوله من الجالسين نصيبه من وجهه ؛ فضلا عن أن مجلسه كان مجلس حياء تام ، وتواضع كامل ، ومروءة كريمة ، وشعور فياض بالكرم والوفاء ، والتوقير والاحترام .

وفوق هذا كان صلى الله عليه وسلم ، أرف الناس بالناس ، وخير الناس للناس ، وأنفع الناس للناس ، بل انه صلى الله عليه وسلم ، كان احلامهم كلاما ، وافصحهم لسانا ، وأقواهم حجة وبرهانا ، لا يقول المنكر ، ولا ينطلق فى الرضا والغضب الا حقا ؛ يمزح ويداعب ، ويهش ويهش ، ولا يقول الا ما يرضى الله سبحانه وتعالى .

أمين عادل ، راغب فى العفو مع القدرة ، منصف للحق وان كان مرا .

عن جابر رضى الله عنه ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقبض للناس يوم خيبر ، من فضة فى ثوب بلال ، فقال له رجل :

(١) رواه الامام الشيخان .

يا رسول الله ! أعدل ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« ويحك فمن يعدل اذا لم أعدل ؟ فقد خبت اذن وخسرت ،
ان كنت لا أعدل » .
فقام عمر فقال :

الا اضرب عنقه ، فانه منافق ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم :

معاذ الله ، ان يتحدث الناس ، انى اقتل اصحابى (١) .
ومثل أعلى يضربه لنا رسول الرافة والحكمة صلى الله عليه
وسلم .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان في حرب ، فراوا
من المسلمين غرة ، فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، بالسيف ، فقال :
من يمنعك منى ؟
فقال : الله .

قال : فسقط السيف من يده ، فآخذ رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، السيف وقال :

من يمنعك منى ؟ فقال :

كن خير آخذ . قال :

قل : أشهد أن لا اله الا الله ، وأنى رسول الله ! فقال :

لا غير ، انى لا أقاتلك ، ولا أكون معك ، ولا أكون مع قوم
يقاتلونك .

فخلى سبيله ، فجاء أصحابه ، فقال :

« جئتم من عند خير الناس (١) » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قسمة ، فقال رجل
من الأنصار :

(١) رواه الامام مسلم .

(١) متفق عليه من حديث جابر

« هذه قسمة ما أريد بها وجه الله » .

فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فاحمر وجهه ، وقال :
رحم الله أخى موسى ، قد أودى بأكثر من هذا فصبر (١) .
ويصف الامام على كرم الله وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول :

« كان أجود الناس كفا ، وأوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس
لهجة ، وأوفاهم ذمة ، والينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة .
من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته :
« لم أر قبله ولا بعده مثله » اهـ .

ورضى الله عن سيدنا على ، وصلى الله وسلم على هذا النبي ،
الذى جملة الله تعالى بما يعجز الوصف عنه ، وتقف الأبواب دونه .

وحسبنا مما جملة الله تعالى به ، أن جعله صاحب السبق
بالأخبار الصادقة في الأولين والآخرين ، ومنحه الحظ الوافر من
السيرة الفاضلة ، والسياسة الرشيدة والحكم البالغة ، والقيادة
السليلة :

« وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » .

وما أجمل ما ترنم به البوصيري في مدح هذا النبي صلى الله عليه وسلم ، في بردة المديح ، الذى يقول فيها :

فهو الذى تم معناه وصورته
ثم اصطفاه جيبا بارىء النسم
منزه عن شريك فى محاسنه
فجوهـر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصارى فى نبهم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
وانسب الى ذاته ما شئت من شرف
وانسب الى قدره ما شئت من عظم
فان فضل رسول الله ليس له
حد فيعرب عنه ناطق بقم

(١) متفق عليه

لونا سبت قدره آياته عظيما
أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم
لم يمتحننا بما تعيا العقول به
حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم
أعيا الورى فهم معناه فليس يرى
للغرب والبعد فيه غير منفحم
كالشمس تظهر العينين من بعد
صغيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته
قوم نيام تسلاوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر
وأنه خير خلق الله كلهم
وكل آى اتى الرسل الكرام بها
فأنما اتصلت من نوره بهم
فأنه شمس فضل هم كواكبها
يظهرون أنوارها للناس فى الظلم
أكرم بخلق نبي زانه خلق
بالحسن مشتمل بالبشر متسم
كالزهر فى ترف والبدر فى شرف
والبحر فى كرم والدهر فى هم
كأنه وهو فرد من جلالته
فى عسكر حين تلقاه وفى حشم
كأنما اللؤلؤ المكنون فى صدف
من معدنى منطق منه ومبتسم
لاطيب يعدل توبا ضم أعظمه
طوبى لمن تشق منه وملثم

الى آخر هذه القصيدة المشهورة ، التى استفاد فيها البوصيرى
فى مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو على شوق مشوق ،
واخلاص مخلص ، وجب عميق للنبي صلى الله عليه وسلم .

وهكذا وضحت فضائل النبي صلى الله عليه وسلم ، للقاصي والداني ، وظهرت مكارم أخلاقه التي تفرد بها وحده ، من سماع الأخبار ، وفطنة السياسة ، وسلامة التوجيه ، لأصناف الخلق ، وضبطه للأشخاص ، وائتلافه للقلوب ، وقيادته الموفقة ، وأخذه للأمم والجماعات الى طاعة الحق وحدد سبحانه .

الافتداء به صلى الله عليه وسلم ، ولزوم طاعته ، والتأدب معه :
يقول الله تعالى :

((لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)) .

ان الذي ينعم النظر ، ويحسن التفكير ، فيما تحاكت به السير ، من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجد ما يثير العجب ، ويثبت الاعجاز .

ذلك : أنه صلوات الله وسلامه عليه ، على الرغم من أنه أمي ، لم يمارس التعلم ، ولم يطالع الكتب ، ولم يسافر لطلب العلم ، على الرغم من ذلك :

نجد أجوبته في مضائق الأسئلة ، ومختلفها ، ونشاهد بدائع تدبيراته في مصالح الخلق ومهامهم ، وإشاراته في تفصيل ظواهر الشرع وبواطنه ، مما عجزت العرب ، وتقاعدت العجم عن تفهم معانيه ، وإدراك أوائله .

ولا عجب في ذلك لمن اختاره الله لرسالته ، واجتباها لخلقه ، واصطفاه لنفسه ، وصنعه على عينه ، وعلمه مما لم يكن يعلم ، وكان فضل الله عليه عظيما .

ورسول هذا شأنه ، خليق بالتأدب معه ، والافتداء به ، ولزوم طاعته :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

والافتداء به ، ولزوم طاعته ، والتأدب معه ، لا يكون ذلك كله بفهم نماذج تتبع ، أو أحاديث تروى فحسب ، بل لابد وأن يكون مع ذلك كله ، حبه صلوات الله وسلامه عليه ، بل وإيثار حبه عن كل ماسوى الله سبحانه :

روى البخارى فى صحيحه ، ومسلم ، والنسائى ، عن انس بن مالك رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« لا يؤمن احدكم حتى اكون أحب اليه من والده ، وولده ،
والناس أجمعين (١) » .

ولا عجب أن كان حب النبى صلى الله عليه وسلم ، بهذه المثابة
اذ أن من آثار تعظيم الله تعالى له ، اقتران اسمه ، باسمه سبحانه ،
فى الشهادة ، وجعل ذلك مناط الاسلام ، وصدق الشهادة ، ومن
لا يقر ممن رغب الاسلام ديناً برسالته صلى الله عليه وسلم ، لن
يقبل اسلامه ، ومن لا يصدق بذلك قلبه لا يتحقق ايمانه كذلك .

ولا شك : أن هذا شأن عظيم ، أكرم الله به رسوله ، وخصه به
وحده ، دون من سبقه من الانبياء والرسل .

وليس أدل على ذلك من رعاية الله له ، وتقديره إياه ، أن جعل
دعائه صلى الله عليه وسلم بين أهله وأصحابه ، غير دعاء بعضهم
بعضاً ، وعظم الله شأنه صلوات الله عليه ، حتى حرم رفع الصوت
عنده .

يقول سبحانه :

« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ، كدعاء بعضكم بعضاً ، قد يعلم
الله الذين يتسللون منكم لواذاً ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ،
أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب اليم (٢) » .

ويقول تعالى آمراً عباده بالادب مع نبيه ، والاحترام التام
لرسوله :

« يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا
الله ، أن الله سميع عليم ، يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق
صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط
أعمالكم وأنتم لاتشعرون ؛

(١) أخرجه البخارى ومسلم ، والنسائى

(٢) النور آية : ٢٣

ان الذين يفضون اصواتهم عند رسول الله ، اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم (١) » .

بين الله تعالى ما يجب من المعاملة الحسنة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أرشد عباده المؤمنين الى الطريق القويم ، والأدب العالى الرفيع فى معاملة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما يتفق مع مكارمه الكريمة ، من الاجلال له ، والتوقير لحضرته ، والمواظبة على حسن معاشرته وصحبته صلى الله عليه وسلم .

والمعنى الجليل التى قصدت اليه الآيات السابقة ، وعنت به المؤمنين من عباد الله سبحانه :

لاتقيسوا دعاءه اياكم على دعاء بعضكم بعضا ، فى جواز الاعراض عنه ، والمساهلة فى آجابه ، والرجوع بغير اذنه ، فان المبادرة الى آجابه ، واجبة ، والمراجعة بدون اذنه محرمة .

ولا تجعلوا نداءه وتسميته ، كنداء بعضكم بعضا ، باسمه ورفع الصوت به ، والنداء وراء الحجرات ، ولكن بلقبه المعظم ، مثل يابى الله ، ويارسول الله (٢) مع التوقير والاحترام ، وخفض الصوت عنده .

وانكم ايها المؤمنون ، لاتتقدموا بين يدى امر الله ورسوله ، ولا بين يدى نهيهما ، ولا تقطعوا امرا قبل حكمهما ، بل كونوا تابعين لامرهما .

ولهذا نفت الآية ، وابطلت الاسراع ، فى الاشياء بين يدى الله ورسوله ، وعدم التحدث قبله ، ليكون الجميع تبعاً له .

(١) الحجرات آية ١ - ٢

(٢) يؤيد ذلك : ان الله سبحانه وتعالى ، لم يذكر اسمه صلى الله عليه وسلم الا مقرونا بالرسالة ، تعظيماً له يقول سبحانه : « وما محمد الا رسول » . ويقول : « ما كان محمد اباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم » ويقول : « محمد رسول الله والذين معه » ويقول على لسان نبيه عيسى : « ومبشرا برسول ياتى من بعدى اسمه احمد »

في مهام الأمور ، وحتى يدخل ذلك في الأدب الشرعى ، والتخلق بأخلاق اعظم نبي صلى الله عليه وسلم .

والناظر في حادثة سيدنا معاذ بن جبل ، حينما بعثه الرسول الى اليمن ، يلمح صورة طيبة عن أدب الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا عليه من الأدب المثالى بين يدى الله ، ورسوله ، وعدم التقدم بالقول والفعل ، على حكم الله تعالى ، وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين بعث معاذاً الى اليمن قال له : بم تحكم ؟ قال :

بكتاب الله تعالى .

قال صلى الله عليه وسلم :

فان لم تجد ؟ قال :

بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال صلى الله عليه وسلم :

فان لم تجد ؟ قال رضى الله عنه :

أجتهد رأى .

فضربه في صدره وقال :

الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ، لما يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهكذا ضرب الصحابى الجليل رضى الله عنه ، أروع ما سجله التاريخ ، لما كان عليه الصحابة ، من الاجلال والتعظيم لقول الله تعالى أولا .

والادب الكامل والتوقير الفائق لقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثانيا .

وتأخير الاجتهاد بالرأى انكارا لحب الذات ثالثا .

وفى ذلك : نبل الغاية ، وسلامة القصد ، وإيثار حب الله ورسوله ، وعدم التقديم - المنهى عنه - بين يدى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ولقد بلغ شأن استجابة الصحابة للأمر الإلهي في قول الحق سبحانه :

« لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » أن تعدد مفهوم ما ترشد إليه الآية بتعدد ما يتفق ومفهوم كل منهم .

يقول ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية :
« لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة » اهـ .

وقال مجاهد في معنى هذه الآية أيضا :

« لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشيء حتى يقضى الله تعالى على لسانه » اهـ .

ويقول الضحاك أيضا في معناها :

« لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله ، من شرائع دينكم » اهـ .

والمعنى الجامع الذي ترشد إليه الآية حسبما نرى :

لا تعجلوا أيها المؤمنون بقول ولا فعل ، قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو يفعل .

فان الأمة بأسرها مأمورة ، بل وجميع الأمم كذلك ، بعدم الخروج عن طاعة الرسول ، وعدم رفع الصوت عنده ، أو فوق صوته ، فان رفع الصوت سبب لاجباط الأعمال وبطلانها ؛ فلا أقل من أن يكون تقديم الآراء ، والعقول ، والأذواق ، باعثا لاجباط العمل ، ومبطلا له أيضا .

وكما اقتضت سنة العلي القدير ، عدم التقديم بين يدي الله ورسوله ، فقد شاءت ارادته سبحانه ، أن يكون النهي عن رفع الصوت عنده صلى الله عليه وسلم ، من الآداب الكريمة ، التي أمر الله المؤمنين وأدبهم بها .

يقول سبحانه :

((يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول ، كجهر بعضكم لبعض ، ان تحبط أعمالكم وانتم لاتشعرون)) .

ولم يجعل الله تعالى ، النهى عن رفع الأصوات فوق صوت النبي مجرد أدب فحسب ، وانما جعل ذلك امتحانا للقلوب ، لتظهر بالتقوى ، وتفوز بالمغفرة والجزاء العظيم الأوفى .

يقول سبحانه وتعالى :

((ان الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم)) .

لهذا كان هم الصحابة رضوان الله عليهم وشغلهم الشاغل : الحرص الدائم ، على توفير مرتبة النبوة ، وتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى أخذ هذا الأمر اهتمامه البالغ في قلوبهم ، والعناية به ، بل ان هذا الأمر أخذ مأخذه المثالي من قلوب الصحابة حتى كان أحدهم يتوقع الهلاك لمن ارتفع صوته عند النبي صلى الله عليه وسلم .

فعن نافع بن عمر ، عن ابن أبي مليكة قال :

« كاد الخيران أن يهلكا ، أبو بكر ، وعمر ، رضى الله عنهما :

رفعا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم ، حين قدم عليه وركب بنى تميم ، فأشار أحدهما :

بالأقرع بن حابس ، رضى الله عنه ، أخى بنى مجاشع ، وأشار الآخر ، برجل آخر .
قال نافع : لا أحفظ اسمه .

فقال أبو بكر لعمر ، رضى الله عنهما :

ما أردت الا خلافي ؟ قال : ما أردت خلافاك .

فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى !

(١) ليس المقصود هو النهى من الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لهم خطابه الا بالهمس والخافتة فيشق ذلك عليهم ، وانما المقصود : النهى عن الجهر بصفة مقيدة بمنعوتة بمماثلة ما اعتاده الناس فيما بينهم مما هو خالى من مراعاة الادب والتنظيم لحضرة النبي صلى الله عليه وسلم .

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول ، كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » .

قال ابن الزبير ، رضى الله عنهما :
فما كان عمر رضى الله عنه ، يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد هذه الآية ، حتى يستفهمه (١) .
وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية :

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » .

جلس ثابت (٢) رضى الله عنه ، فى بيته فقال :
أنا من أهل النار ، واحتبس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، لسعد بن معاذ :

يا أبا عمرو ، ما شأن ثابت اشتكى ؟ فقال سعد رضى الله عنه :
أنه لجارى ، وما علمت له بشكوى ؛ قال :

فأتاه سعد رضى الله عنه ، فذكر له ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ثابت رضى الله عنه :

أنزلت هذه الآية ، ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتا من أهل النار .

فذكر ذلك سعد رضى الله عنه ، للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« بل هو من أهل الجنة (٣) » .

وفى رواية أخرى عن محمد بن ثابت بن قيس ، بن شماس ، عن أبيه ، رضى الله عنه قال :

(١) رواه الإمام البخارى فى صحيحه .

(٢) هو ثابت بن قيس رضى الله عنه

(٣) رواه الإمام مسلم

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :
« أما ترضى أن تعيش حميدا ، وتقتل شهيدا ، وتدخل الجنة ؟
فقال :

رضيت ببشرى الله تعالى ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ،
ولا أرفع صوتي أبدا على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
قال : فأنزل الله تعالى :

« ان الذين يغيضون اصواتهم عند رسول الله ، اولئك الذين
امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم » ا ه .

ومن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه سمع صوت
رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، قد ارتفعت أصواتهما ،
فجاء فقال :

أتدريان اين انتما ؟ ثم قال : من اين انتما ؟ قالا :
من أهل الطائف ، فقال :

« لو كنتما من أهل المدينة ، لأوجعتكما ضربا » ا ه .

وهكذا خلع الله سبحانه على قلوب أصحاب رسوله ، خلع
أنعامه ، واختصهم بمحبته ، وأقامهم في خدمته ، ورفع عن قلوبهم
حجاب بعده ، فهم بذلك بين يديه ويدي رسوله متأدبون .

وطهر قلوبهم بمعرفته ، وجعلها أوعية طاهرة لتكون أهلا
للمغفرة ، ومحلا لنيل ثوبته ، فرضوان الله عليهم أجمعين .

أما الذين أساءوا الأدب في معاملة الرسول صلى الله عليه
وسلم ، ولم يراعوا احترامه وتقديره كأجلاف الأعراب الذين تطاولوا
في الطلب من وراء الحجرات وقت شدة الهاجرة وقسوة القيلولة ،
فقد نعى القرآن الكريم عليهم حالهم ، وذمهم على سوء صنيعهم
فقال :

« ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ،
ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم ، لكان خيرا لهم ، والله غفور
رحيم » .

عاب القرآن سوء تصرف هؤلاء الأجلاف ، وانكر عليهم أساءة

أدبهم ، ثم عاتبهم على معاملتهم الجافة ، التي لا تتناسب ومقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فبين لهم أنهم لو صبروا ، ولم يتجرؤا بنسبائهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم على هذه الصورة المستهجنة ، من وراء بيوت نسائه ؛ لكان خيرا لهم ؛ ولكن بنسبائهم الذي لم يتفق ومكارم الأخلاق ، والذي لا يتناسب وما ينبغي للرسول صلى الله عليه وسلم ، من حسن المعاملة ، وأدب الصحبة ، كان عليهم من الإثم والمعصية ، ما صرفهم عن الصواب ، وانزل الله فيه قرآنا يتلى .

عن أبي مسلم البجلي عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال :
اجتمع أناس من العرب ، فقالوا : انطلقوا بنا الى هذا الرجل ،
فإن بك نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكا نعش بجناحه ،
قال :

فاتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بما قالوا ،
فجاءوا الى حجرة النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو
في حجرته ، يا محمد ، يا محمد ، فأنزل الله تعالى :

« ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » .
قال :

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأذنى فمدها ، فجعل
يقول :

« لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد ، لقد صدق الله قولك
يا زيد » .

وذاث يوم أراد البعض أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم ،
وفق آرائهم في اتباع الحوادث ، دون أن يراعوا أن من رافة الله
سبحانه وتعالى بهم ، وحنانه عليهم ، أن كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فيهم وهو منهم ، يبصرهم ويرشدهم ، ويوجههم
ويأخذ بأيديهم نحو السعادة التامة والفضائل الكاملة . فقال الله
تعالى فيهم :

« واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم في كثير من الأمر
لعنتم ، ولكن الله حبيب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم ، وكره اليكم

الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمه والله عليهم حكيم » .

بين الله سبحانه في هذه الآية ، لأصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن رسول الله بين أظهركم ، فعظموه ، ووقروه ، وتأدبوا معه ، وانقادوا لأمره ، وسلموا لحكمه ، وأسلموا قيادكم لأمره ، واستجيبوا له فيما أمركم به ، واجتنبوا كل ما نهاكم عنه ، فانه أعلم بمصالحكم ، وأشفق بكم عنكم ، ورأيه فيكم أتم وأكمل من رأيكم أنتم لأنفسكم ، لأن رأيكم سخيّف بالنسبة الى مراعاة مصالحكم ، وتقدير ذاتكم ، وحب منفعتكم الدنيوية ؛ ولهذا قال سبحانه :

« لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » .

يقول البيضاوى في هذه الآية :

« المعنى : ان فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها وهى : انكم تريدون أن يتبع رأيكم في الحوادث ، ولو فعل ذلك لعنتم ، أى لو قعتم في العنت وهو الجهر والهلاك » اهـ .

فلو اطاعهم صلوات الله عليه ، في كل ما يرون ، لادى ذلك لا محالة الى عنتهم الشديد ، وفساد كثير من أحوالهم ، واضطراب الاكثر من شئون حياتهم .

ولكن شاءت ارادة الله سبحانه ، رعاية هذا الوجود ، وحفظ أناسه ، وانقاذهم من التخبط والضرب فى الأرض بالفساد ، فأوجب عليهم طاعة رسوله ، والانقياد لأوامره ، حتى حبب الله على لسانه صلوات الله وسلامه عليه ، الايمان فى نفوسهم ، وزينه فى قلوبهم ، وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان ، توطئة لاسباغ نعمه عليهم ، واستحقاقا لاتيان الرشد لهم من مانحه ، واستعدادا للثناء الجميل على مؤتى هذه الآلاء العظيمة ، فكانوا هم الراشدون ، الذين آتاهم الله رشدهم ، وألهمهم صوابهم ، وأصدقهم وعده ، فضلا منه ونعمة .

« ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة ، والله عليهم حكيم » .

وبعد : فهذه لمحات سريعة ، استعجلنا سردها شوقا لهذا
النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، ومراعاة للأدب المثالي معه ،
وتعظيما لحقه ، واستدلالا على حميد سيرته ، ومكارم أخلاقه ،
وعظيم سجاياه ، ونبل غاياته صلى الله عليه وسلم .

ونختتم فصلنا الذي نحن بصدده ، بهذا الحديث الرائع الذي
استفاض فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالثناء الجميل على ربه
عز وجل .

عن أبي رفاعة الزرقى ، عن أبيه قال :
لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون ، قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم :

« استووا حتى اثنى على ربي عز وجل » .
فصاروا خلفه صفوفا ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« اللهم لك الحمد كله » .

اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن
اضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما
أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت .

اللهم أبسط علينا من بركاتك ، ورحمتك ، وفضلك ، ورزقك .
اللهم انى أسألك النعيم المقيم ، الذى لا يحول ولا يزول .
اللهم انى أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف .
اللهم انى عائد بك من شر ما أعطيتنا ، ومن شر ما منعتنا .

اللهم حبيب الينا الايمان ، وزينه فى قلوبنا ، وكره الينا الكفر
والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين .

اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ،
غير خزايا ، ولا مفتونين .

اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ،
واجعل عليهم رجزك وعذابك ؛

« اللهم قاتل الكفرة ، الذين أوتوا الكتاب اله الحق » (١) اه .
صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

(١) رواه النسائى .

الفصل الثاني

في رحاب الجليس والصحية

من مشكاة الجليس والصحية :

يقول الله تعالى :

« ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من اولياء ، ثم لا تنصرون » (١) .

وعن ابي موسى الاشعري رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« انما مثل الجليس الصالح والجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك : اما ان يهديك ، واما ان تبتاع منه ، واما ان تجد منه ريحا طيبة ؛

ونافخ الكير : اما ان تحرق ثيابك ، واما ان تجد منه ريحا خبيثة » .

وفي رواية :

« مثل الجليس السوء ، كمثل صاحب الكير ، ان لم يصبك من سواده ، أصابك من دخانه » اهـ .

وقال علقمة العطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة :

« يا بني اذا عرضت لك الى صحبة الرجال حاجة ، فاصحب من اذا خدمته صانك ، وان صحبته زانك ، وان قعدت بك مؤونة مانك ؛

اصحب من اذا مددت يدك بخير مدها ، وان راى منك حسنة عدها ، وان راى سيئة سدها ؛

اصحب من اذا سألته أعطاك ، وان سكت ابتداك ، وان نزلت بك نازلة واسالك ،

اصحب من اذا قلت صدق قولك ، وان حاولتما أمرا امرك ، وان تنازعتما أترك « اهـ .

بهذه الوصايا الحكيمة : جمع علقمة من محاسن الشيم أعمها وأجملها ، ومن كرائم الأخلاق ، أكرمها وأفضلها ، وفي هذه الوصايا الرشيدة ، الإشارة المغنية الى حقوق الصحبة المطلوبة .

انه وجه لما ينبغى ان تقوم عليه الصحبة المخلصة ، والأخوة الحانية من الصفاء والتقدير ، والمودة والاخلاص .

ولم يكن علقمة هو الذى انفرد بذلك وحده ؛ فقد ذكر بعض الأدباء طرائف جميلة من حسن الخلق ، وما ينبغى أن يتحلى به الصديق ، فقال :

« لا تصحب من الناس الا من يكتم سرك ، ويستتر عيبك ، فيكون معك فى النوائب ، ويؤثرك بالرغائب ، وينشر حسناتك ، ويطوى سيئاتك ، فان لم تجده ، فلا تصحب الا نفسك » اهـ .
ولهذه الطرائف ، وتلكم الوصايا ، نظائر فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية ؛

اما نظيره فى القرآن الكريم ، فمعه قول الله تعالى :

« وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن ، وان هم الا يخرصون » (١) .
ومنه قوله سبحانه :

« ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » (٢) .
وقوله تعالى :

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا » (٣) .

(١) الأنعام آية : ١١٦

(٢) هود آية : ١١٣

(٣) الكهف آية : ٢٨

وقوله سبحانه :

« فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » (١) .
وقوله تعالى :

« واتبع سبيل من اناب الى ، ثم الى مرجعكم ، فانبئكم بما
كنتم تعملون » (٢) .
وقوله سبحانه :

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا » (٣) .
وقوله تعالى :

« ولا تتبع سبيل المفسدين » .

واما نظيره في السنة ، فمنه قوله صلى الله عليه وسلم -
فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه :-
« المرء على دين خليله فلينظر من يخال » (٤) .

وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول
الله ! متى الساعة ؟ قال :

وما اعددت لها ؟ قال :

لا شيء الا انى احب الله ورسوله ؛ قال :
انت مع من احببت ، ولك ما اكتسبت .
قال انس :

فما فرحنا بشيء فرحنا بقوله صلى الله عليه وسلم : « أنت مع
من احببت » (٥) .

وعن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال : كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول :

(١) طه آية : ٢٦

(٢) لقمان آية : ١٥

(٣) النجم آية : ٢٩

(٤) أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه الحاكم من حديث أبي هريرة ، وقال
صحيح ان شاء الله .

(٥) انظر كشف الغمة للامام الشعرانى ج ١ ص ٤٤٤

« انما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ، ونافخ الكير ، فحامل المسك : اما ان يهديك ، واما ان تبتاع منه ، واما ان تجد منه ريحا طيبة .

ونافخ الكير : اما ان يحرق ثيابك ، واما ان تجد منه ريحا خبيثة » اهـ

وفى ذلك : زجر ، وتحذير ، ونهى ، عن مصاحبة الفاسق ، ومن على شاكلته ، لما فى صحبة هؤلاء من خطر جسيم ، وبدع سارية وشؤم يتعدى .

فالفاسق ان لم تؤثر فيه النصيحة ، او لم تجد منه نفعا ، لا تصح صحبته ، فهو لا يستحق الا الهجر والقطيعة ، وعدم اتباع سبيله ، ما دام على حالة فسقه وفجوره ، اذ لا فائدة فى متابعتة ، فضلا عما يتوقع منه من ضرر بالغ ، وفحش فاحش ، نهى الله تعالى عنه ، وحذر منه رسوله صلى الله عليه وسلم .

فهو من غير شك : مصر على فسقه لا يخاف الله فى عصيانه ، ومن لا يخاف الله سبحانه ، لا تؤمن غائلته ، ولا يوثق بصداقته .

يقول سفيان الثورى ، رضى الله عنه ، فى وصية له ، لعلى بن الحسن السليمى :

« اياك وما يفسد عليك عملك وقلبك ، فانما يفسد عليك قلبك مجالسة اهل الدنيا ، واهل الحرص ، واخوان الشياطين ، الذين ينفقون اموالهم فى غير طاعة الله .

واياك وما يفسد عليك دينك ، فانما يفسد عليك دينك ، مجالسة ذوى الألسن الكثيرين للكلام .

واياك وما يفسد عليك معيشتك ، فانما يفسد عليك معيشتك اهل الحرص واهل الشهوات .

واياك ومجالسة اهل الجفاء ، ولا تصحب الا مؤمنا ، ولا ياكل طعامك الا تقى ، ولا تصحب الفاجر ولا تجالسسه ، ولا تجالس من يجالسسه ، ولا تؤاكله ، ولا تؤاكل من يؤاكله ، ولا تحب من يحبه ، ولا تفش اليه سر ، ولا تبتسم فى وجهه ، ولا توسع له فى مجلسه فان فعلت شيئا من ذلك فقد قطعت عرى الاسلام » اهـ

فعلى الانسان ان يتفقد نفسه ، عند شعوره بالميل الى
صحبة من يريد ، ثم ينظر الى من يميل الى صحبته ، ويزن احوال
من يميل اليه ، بميزان الشرع الذى لا يطفى على حق فرد لارضاء
الآخرين .

فان بدت محاسن اخلاقه ، ووضحت مكارم احواله مسددة ،
فما عليه الا ان يستبشر بحسن الحال ، ويطمئن على دوام الاستقامة
والاستقرار ، ويشكر الله سبحانه الذى ينبغى له الشكر فى كل
حال .

يشكره سبحانه ، ان جعل امراته مجلوة ، يلوح له فى مرآة أخيه
جمال الخلق ، وحسن الحال ، وعظيم الاستقامة ، ووافر الاستقرار .

وان رأى افعال من يريد صحبته على عكس ذلك ، فليأخذ
حذره ، ويتعد عن معاشرته ، ثم يرجع الى نفسه بالاتهام ، لأنه لاح
له فى مرآة أخيه ، سوء حاله ، وفساد أخلاقه ، وليس له من الأمر
الا الاجتناب عنه ، والا ازداد بصحبته ظلمة ووحشة ، واعوجاجا
وانحرافا .

يقول سيدنا عمر رضى الله عنه ، فيما رواه سعيد بن المسيب :
« عليك باخوان الصديق تعش فى اكنافهم ، فانهم زينة فى الرخاء
وعدة فى البلاء ، وضع امر أخيك على أحسنه ، حتى يجيئك ما يغلبك
منه ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك ، الا الامين من القوم ، ولا امين
الا من خشى الله .

فلا تصحب الفاجر ، فتتعلم من فجوره ، ولا تطلعه على سره ،
واستشر فى امرك الذين يخشون الله تعالى » ١ هـ

ويقول سيدنا جعفر الصادق رضى الله عنه :
لا تصحب خمسة :

الكذاب : فانك منه على غرور ، وهو مثل السراب ، يقرب
منك البعيد ، ويبعد منك القريب .

والاحمق : فانك لست منه على شيء يريد ان ينفعك فيضرك .
والبخيل : فانه يقطع بك احوج ما تكون اليه .

والجبان : فانه يسلمك ويفر عند الشدة .
والفاسق : فانه يبيعك بأكلة او اقل منها .
ف قيل وما اقل منها ؟ قال :
الطمع فيها ، ثم لا ينالها « اهـ

وغير ذلك من الاخبار التى توضح المعنى ، وتقوى الدليل ،
بالارشاد والتوجيه .

معاشرة الفاسق جهالة ، وصحبته ندامة :

على الرغم من خطورة الخمسة الذى حذر من صحبتهم سيدنا
جعفر ، الا أن خطر الفاسق اشد ، وشره اسوأ . لهذا نهى عن
صحبه ، وأمر بالتثبت من اخباره .
وحسبنا من الادلة التى تصدق هذا ، أن الله تعالى ، أعلم
وسوله خطورته ، فقال :

**« يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق نبأ فتبينوا ان تصيبوا
قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (١) .**

وعلى الرغم من أن الذى جاء بهذا النبأ صحابى من اصحاب
رسول الله فان صحبتته لم تفن عنه من الحق شيئاً ، فأطلق الله
سبحانه عليه ، اسم الفاسق ، كما اعربت عن ذلك الآية ، وحثت
على التثبت من اخباره حتى لا يكون وراء ذلك :

« ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

واذا كان القرآن الكريم ، صنع هذا الصنيع مع الفاسق ، فلا
تصير اذن فى البعد عن متابعة الفاسق بل انه يجب : البعد
عنه والتخلى عن صحبتته ، حتى لا يكتسب الانسان اثماً ومعضية
باتباعه ، فان الله تعالى نهى عن اتباع سبيل المفسدين .

ولكى نوضح بالدليل مدى خطر الفاسق ، نذكر ما حدث ذات
يوم للصحابة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى
الله عنهم .

فقد اوقد خبر الفاسق نار الفتنة بين الصحابة ، حتى وقع
الخرج الشديد بينهم ، ولولا أن من الله عليهم : لحصلت محنة

شديدة ، ونشبت فيهم المعارك الطاحنة ، ولكن الله شاء أن يدافع
عن الذين آمنوا ، وينجى المؤمنين من عباده « كذلك حقاً علينا
ننجى المؤمنين » .

وفيما يلي بيان ما حدث :

روى الامام احمد في مسنده ، أنه سمع الحارث بن أبي ضرار
الخراساني ، رضى الله عنه يقول :

قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاني الى
الاسلام ، فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعاني الى الزكاة فأقررت
بها ، وقلت :

يا رسول الله ! أرجع اليهم فادعهم الى الاسلام ، واداء الزكاة
فمن استجاب لى جمعت زكاته ، وترسل الى يا رسول الله أبان
كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة .

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الابان الذي
أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يبعث اليه ، احتبس عليه
الرسول ، ولم يأت ، وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطه من
الله تعالى ، ورسوله ، فدعا بسررات قومه ، فقال لهم :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان قد وقت وقتاً ، يرسل
الى رسوله ، ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، الخلف ، ولا أرى حبس رسوله الا من سخطه ،
فانطلقوا بنا نأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث رسول
الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة الى الحارث ، ليقبض ما كان
عنده ، مما جمع من الزكاة .

فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطرق فرق - أى خاف -
فرجع حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :
يا رسول الله :

ان الحارث قد منعنى الزكاة ، وأراد قتلى ، ففضب رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وبعث البعث الى الحارث ، رضى الله عنه ،
واقبل الحارث بأصحابه ، حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة
لقيهم الحارث ، فقالوا : هذا الحارث .

فلما غشيهم ، قال لهم : الى من بعثتم ؟
قالوا : اليك . قال : ولم ؟ قالوا :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث اليك الوليد بن عقبة
فزعم انك منعته الزكاة وأردت قتله ؟ قال رضى الله عنه :

لا والذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم ، بالحق ، ما رأيته
بثة ، ولا أتانى .

فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :
منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟ قال :

لا والذي بعثك بالحق ، ما رأيته ولا أتانى ، وما أقبلت الا حين
احتبس على رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خشيت أن
يكون كانت سخطه من الله تعالى ، ورسوله صلى الله عليه وسلم .
قال : فنزلت الآية :

« يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق فاصق بنبأ فتبينوا ، ان تصيبوا
قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

وهكذا كشف الله تعالى مكنون الفاسق ، وأبان كذب خبره ،
ونجى الله عباده الأطهار ، وأصحاب رسوله المختار ، وأنزل في ذلك
قرآنا يتلى .

فلا بد اذن وان يتحرى الانسان الرشد في سماع الأخبار ،
ويحرص على فهم طباع الرجال ، ففي ذلك الوقاية من خبث
الفاسق ، والسلامة من خطره المفاجيء ، والاطمئنان المطمئن الذى
تدوم به الصداقة ، وتستمر العشرة ، باستمرار بقائه .

ولكى تكون الصحبة فى ضمان الاستقرار والبراءة ، ينبغى
اقمين تؤثر صحبته ، أن يكون عاقلا ، كريم الخلق حميد السيرة ،
حسن الصلة بربه ، غير فاسق ولا مبتدع .

فمن تحلى بذلك ، فهو حرى بالصحبة ، خلى بالمعاشرة ، والا
فالترك له أولى .

لان الطباع مجبولة على التشبيه والاخذ ، بل ان الطبع يعدى
الطبع كما يقولون .

ومن لم يجد رفيقا يؤاخيه ويؤانسّه ويفيده في هذه المقاصد ،
فالوحدة له خير من جليس السوء ، الذي نهى الله ورسوله عنه .
يقول الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه :

« الوحدة خير من الجليس السوء ، والجليس الصالح خير من
الوحدة » .

وصدق رضي الله عنه ، فان مشاهدة الفساق ، تهون أمر
المعصية على القلب ، وتبطل نفرة القلب منها .
يقول سعيد بن المسيب رضي الله عنه :

« تنظروا الى الظلمة فتخبط أعمالكم الصالحة ، بل هؤلاء
لا سلامة في مخالطتهم ، وانما السلامة في الانقطاع عنهم . قال
الله تعالى :

« واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » (١) .

ركائز الصحة ودعائم الأخوة :

ان لدوام الصحة ، وضمان استقرارها ركائز لابد من وجودها
ودعائم لابد من تحققها .

من هذه الركائز ومن تلكم الدعائم :

١ - ان تكون حاجة أخيك مثل حاجتك ، فان المسلم لا يكون
مسلمًا الا اذا احب لأخيه ما يحب لنفسه ؛ والله تعالى مدح عباده
المخلصين في مودة بعضهم لبعض ، واثنى على الذين يؤثرون على
انفسهم فقال سبحانه :

« ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح
نفسه ، فأولئك هم المفلحون » (١) .

ولاجل ان يتصف الانسان بهذا الوصف الذي احبه الله سبحانه ،
ومدح به أصحابه ، لابد وان يكون متفقدا لآحوال أخيه التي ينبغي
ان تتفقد ، خاصة اوقات حاجته ، غير غافل عنها ، كما لا يففل عن
آحوال نفسه ، ويفنيه عن السؤال ، واطهار الاستعانة بمعاونته ،

(١) الفرقان آية : ٦٣

(١) الحشر آية : ٩

بل ويقوم بحاجته ، وكأنه لا يدري أنه قام بها ، ولا يرى لنفسه حقا بسبب قيامه بها ، فان من السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة تحت ظل عرشه :

« رجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وسلفنا الصالح رضوان الله عليهم ، كان منهم من يتفقد عيال أخيه بعد موته ، ويقوم لهم بحاجتهم ، ويتردد اليهم كل يوم ، ويمونهم من ماله ، كأنهم لا يفقدون من أبيهم إلا عينه ، بل انهم كانوا يرون منه ، ما لم يروا من أبيهم في حياته .

كان يفعل ذلك الكثير منهم سرا دون أن يشعر به أحد ، ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى .

ولنا في هؤلاء الصحابة أسوة حسنة ، نسير على منوالهم ، ونقتدى بفعالهم ، حتى يتحقق التعاون الذي يحبه الله ورسوله ، والا فلا خير في الصحبة ، ولا أمل في دوام العشرة .

يقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الطبراني :

« ألا وإن لله أواني في أرضه ، وهي القلوب .

فأحب الأواني إلى الله تعالى أصفأها وألينها .

وارقها أصفأها من الذنوب ، وأصلبها في الدين ، وارقها على الإخوان » (١) .

فرقة قلب الأخ على أخيه من أهم العوامل التي تكسب الإنسان محبة الله وطاعته ، عز وجل .

ومن البدهي : أن من حق الأخوة الكريمة ، مشاركة الإنسان لأخيه في السراء والضراء ، والسؤال عن عارض عرض له ، وسبب استبطاء العافية عنه ، والدعاء له بأحب أسمائه إليه ، وخير ما تمناه لنفسه في غيبته ، فان الدعاء بظهر الغيب مستجاب .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه مسلم من حديث أبي الدرداء :

(١) رواه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني بإسناد جيد .

« اذا دعا الرجل لآخيه في ظهر الغيب ، قال الملك : ولك مثل ذلك » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه !
« دعوة الرجل لآخيه في ظهر الغيب لا ترد » .
واذا كان الدعاء بظهر الغيب لا يرد ، فان ثناء الانسان على أخيه بما يعرف من محاسن أحواله من أعظم الأسباب التي تجلب المحبة ، وتقوى عناصر الألفة .

٢ - التشهير لحمايته والنود لنصرته :

من حق المسلم على المسلم ، الدفاع عنه ، والنود عن عرضه ، والمطالبة بحقوقه في غيبته ، مهما قصد الانسان بسوء ، أو اعتدى عليه في شأن من الشئون .

اللهم الا اذا أدى ذلك الى بفضه او النفور منه ، فما عليه الا ان يعلن الحق ، دون أن يخشى فيه لومة لائم .

فان السكوت على الحق موغر للصدر ، منفر للقلب ، بل انه تقصير مدموم في حق الاخوة ، والساكت على الحق شيطان أخرس .

ولقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أن يخذل مسلم مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة ، أو ينقص فيه من عرضه .

عن اسماعيل بن يسير ، قال : سمعت جابر بن عبد الله ، وأبا طلحة بن سهل الأنصاري رضي الله عنهما يقولان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مامن امرئ يخذل امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة ، وينتقص فيه من عرضه ، الا خذله الله تعالى في موطن ، يحب فيها نصرته » .

وما من امرئ ينصر امراً مسلماً ، في موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمة ، الا نصره الله عز وجل في موطن يحب فيها نصرته « (١) .

وروى ابو الدرداء رضى الله عنه ، أن رجلاً نال من رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد عنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« من رد عن عرض اخيه ، كان له حجابا من النار » (٢) .

ويوجه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، الامة الى التضامن والترابط ، ويحثهم على التناصر والتعاون ، فيقول في حديث نبوى .

« المسلم اخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، ولا يكذبه ، ولا يحقره .. » .

وما دام شأن المسلم كذلك : فان اهمال تمزيق العرض كاهمال تمزيق اللحم ؛ وحسبنا من ذلك ، أن الله تعالى شبه ذلك بمن يأكل لحم اخيه ميتا فقال :

« ولا يغتب بعضكم بعضاً ، ايحب احدهم أن يأكل لحم اخيه ميتاً ، فكرهتهموه » (٣) .

وحماية الأخوة ، بدفع ذم الأعداء ، ورد تعنت المتعنتين ، واجب على كل مسلم .

يقول سيدنا على كرم الله وجهه :

« أن الأمر ينزل من السماء الى الأرض ، كقطرات المطر ، الى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان ، فاذا رأى احدهم لأخيه غفيرة في أهل ، أو مال ، أو نفس ، فلا تكونن له فتنة ، فان المرء المسلم ، لم يغش دناءة تظهر فيخشه لها اذا ذكرت ، ويغرى بها لئام الناس كان كالفالج (٤) الذي ينتظر أول فوزه من قداحة توجب له المغنم ، ويرفع بها عنه المغرم ؛

(١) رواه أبو داود

(٢) رواه الترمذى وحسنه

(٣) الحجرات آية : ١٢

وكذلك المرء المسلم ، البريء من الخيانة ، ينتظر من الله احدى
الحسينين .

اما داعى الله ، فما عند الله خير له ، واما رزق الله ، فاذا هو
ذو اهل ومال ، ومعه دينه وحسبه « اهـ .

فلا يتأتى لمسلم أن يذكر أخاه في غيبته الا بما يحب ، ولا يترك
عرضه للآخرين ينهشون فيه ، دون أن يذود عنه ، فمن صدق
اسلام المرء ، أن لا يرى لأخيه الا ما يحب أن يراه لنفسه ؛

ومن وجد في نفسه غير ذلك فليس مخلصا ، فان الاخلاص هو :
استواء الغيب والشهادة ، واللسان والقلب ، والسر والعلانية ،
والجماعة والخلو ، في كل ما يحب لنفسه ، يحبه لغيره .
يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« احسن مجاورة من جاورك تكن مسلما ، واحسن مصاحبة
من صاحبك تكن مؤمنا » .

وفي رواية للترمذى قال :

« وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما .

علي هذا : فان الاختلال والتفاوت في شيء من ذلك ، انما يكون
مما ذاقه في المودة ، ودخلا في الدين ، ووليجة في طريق المؤمنين .

٣ - مواساة الانسان ونصحه وارشاده :

مواساة الانسان لأخيه ، حق ثابت حث الشارع عليه ، وأقامت
الصحبة عليه دعائمها .

ذلك : ان المواساة رباط قوى من روابط المحبة ، وكذا اسداء
النصح ، والتوجيه ، لكل ما ينفع في الدنيا ويسعد في الآخرة .

(١) الفالج : المغامر الفائز على مغامره

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

يقول صلوات الله وسلامه عليه ، فيما رواه أبو داود من حديث
أبي هريرة :

« المؤمن مرآة المؤمن » (١) .

فان ذكر الانسان أخاه بذلك ، ولم يعمل بمقتضى ما علم ، فلم
يبق لناصحه الا أن يذكر له آفات فعله ، مخوفا له ، ثم يعرفه
بفوائد تركه لصالح عمله ، مع تقييح القبيح له في عينه ، وتحسين
الحسن في وجهه ، سرا بينه وبينه ، حتى لا يكون في نصحه فضيحة
لا شفقة عليه فيها .

يقول صلوات الله وسلامه عليه ، ناهيا عن ذلك :

« النصيحة في المألأ فضيحة » .

ويقول الشافعي رضى الله عنه :

« من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد
فضحه وشانه » اهـ .

والشفقة بالمؤمنين ، واسداء النصيحة لهم ، أمر حث عليه
الشارع ، وحذر من خلافه .

والتنبيه على ما لا يعلم ، هو عنصر استمالة القلوب الواعية الى
كمال المحبة ؛ ولهذا كان التلطف في النصيح ، والاجمال في الطلب ،
أمرا ضروريا ، يقوم الشأن ، ويجمع الشمل ، ويعيد السيرة
الحميدة الى الصلاح والورع ، بل أن ذلك يعد من قمة المثل العليا
التي حرص الاسلام عليها .

٤ - العفو عنه والاحسان اليه :

يقول الله تعالى :

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات
والارض ، أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء ،
والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » (٢) .

(١) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد

(٢) آل عمران آية ١٣٣ ، ١٣٤ .

قصد المسلم من معاشرته أخيه ، اصلاح نفسه بمراعاته ، وقيامه بحقه - كما اوجب الاسلام ذلك - وهذا يتطلب ضرورة احتمالته عند تقصيره ، والعفو عند هفواته ، خاصة حينما يثبت لديه عذره ، أو يستبين له قهر امره ، والخروج عن ارادته .

ولهذا مكانة عند الله سبحانه ، مكانة محبة الله للمحسنين من عباده ، الذين يحبهم الله ويحبونه ، فيحتملون الاذى من أجله ، ويعفون عن الأخطاء ، التي مدحهم الله سبحانه بسبب عفوهم عنها ، وطالبهم بالاسراع الى مغفرته ، والدخول في جنته .

• - التيسير وترك التكليف :

يقول الله سبحانه :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها » .

اذا كان الاسلام في جملة توجيهاته ، وجه المسلمين ، الى تحرر الاسباب الجالبة لدوام الصحة ، فانه بالتالي وجههم الى ما يحقق ذلك ويربط عراد بين الاصدقاء ، برباط المحبة والوئام ، ذلك : هو التيسير وترك التكليف وصدق الله العظيم اذ يقول :

« وما انا من المتكفين » .

ويشرح لنا الامام الغزالي رضى الله عنه معنى التيسير وترك الكليف فيقول :

« لا يكلف اخاه ما يشق عليه ، بل يروح سره من مهماته وحاجاته ، ويرفقه عن أن يحمله شيئا من أعبائه ، فلا يستمد منه من جاه ومال ، ولا يكلفه التواضع له ، والتفقد لأحواله ، والقيام بحقوقه ، بل لا يقصد بمحبته الا الله تعالى ، تبركا بدعائه ، واستئناسا بلفائه ، واستعانة به ، على دينه ، وتقربا الى الله تعالى بالقيام بحقوقه ، وتحمل مؤونته » اهـ .

ويزيد بعض الحكماء ، هذا المعنى وضوحا فيقول :

« من اقتضى من اخوانه مالا يقتضونه ، فقد ظلمهم ، ومن

اقتضى منهم مثل ما يقتضونه ، فقد اتبعهم ، ومن لم يقتض ، فهو المتفضل عليهم « اهـ .

٦ - الحب في الله وادامته الى ما بعد الموت :

الحب في الله ، من الركائز القوية التي تشيد عليه الصداقة بنيانها ، وتؤسس قوائمها ، ولذا كان حق الصديق على صديقه : ثبات الحب في الله ، وادامته الى الموت معه ، والى ما بعد الموت مع اولاده واصدقائه ، فان الحب انما يراد للآخرة .

فاذا ما انقطع قبل الموت ، حبط العمل ، وضاع السعى ، وضل المشى ؛

واذا بقي بعد الموت ، كان مراده في الآخرة ، ان يظل الله المتحابين تحت ظل عرشه ؛

فان من السبعة الذين يظلمهم الله تحت ظل عرشه ، يوم لا ظل الا ظله :

« ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه ، وتفرقا عليه » .

اما مراعاة جميع اصدقاء الصديق وأقاربه ، والمتعلقين به بعد الموت ، فان ذلك من وفاء الاخوة .

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكرم عجوزا دخلت عليه ، فقبل له في ذلك ، فقال :

« انها كانت تأتينا أيام خديجة ، وان كرم العهد من الدين » (١) وفي رواية : « وان حسن العهد من الإيمان » .

فاذا امتنع الوفاء ، شمت الشيطان وفرح ، فان من لعنة الله عليه ، انه يجهد نفسه لأجل أن يفسد ما بين متحابين في الله تعالى . يقول سبحانه :

(١) رواه الحاكم من حديث عائشة ، وقال صحيح على شرط الشيخين

« وقل لعبادى يقولوا التى هى احسن ، ان الشيطان ينزغ بينهم » (١) .

ولاجل ان تكون المحبة فى الله ، ينبغى ان يحب المرء ، امثالاً لأمر الله تعالى ، وابتغاء لوجهه سبحانه ، لا لينال منه علماً أو عملاً ، أو يتوسل به الى امر وراء ذاته ، فان ثمرات الأخوة والمودة ، ان تكون المحبة فى الله لا لشيء غيره ، ولا لأحد سواه .

واذا كانت مراعاة اصديقاء الصديق بعد موته من وفاء الأخوة ، فان الحب لله سبحانه ، اسمى من ذلك وأعظم .

يقول صلوات الله وسلامه عليه - فيما رواه ابو امامة الباهلى رضى الله عنه : -

« من أحب الله ، وابغض الله ، وأعطى الله ، ومنع الله ، فقد استكمل الايمان » (٢) .

فاذا أحب الانسان انساناً ، وكان صادقاً فى حبه اياه ، كان محباً لله ، لانه لا يتصور أن يحب شيئاً الا لمناسبته لما هو محبوب عنده ، وهو رضا الله عز وجل عنه .

يقول الامام الغزالى ، رضى الله عنه :

« اذا اجتمع فى قلبه محبتان ، محبة الله ، ومحبة الدنيا ، واجتمع فى شخص واحد المعنيان جميعاً ، حتى صلح لأن يتوسل به الى الله ، والى الدنيا ، فاذا أحبه لصلاحه للأمرين : فهو من المحبين فى الله ، كمن يحب أستاذه الذى يعلمه الدين ، ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة فى المال ، فأحبه من حيث ان طبعه طلب الراحة فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، فهو وسيلة اليهما ، فهو محب فى الله » (١) اهـ .

(١) الاسراء آية : ٥٣

(٢) انظر كتاب : « احياء علوم الدين » لحجة الاسلام الغزالى ج ٥ طبعة دار التجميع

ومن المعروف بداهة ، بل ومن العلوم ضرورة أن من يحب الله ،
لا بد وأن يبغض الله أيضا ،

فإنك إن أحببت انسانا لأنه مطيع لله سبحانه ، ومحجوب عند
الله ، والله راض عنه ، فإنك كذلك تبغض الشخص حينما يعمل عملا
يبغض الله فيه ، ويبغض الله عليه بسببه .

فإن الله تعالى يبغضه لمعصيته ، وأنت تبغضه لبغض الله له ،
ولخروجه عن طاعة الحق ، لا لغرض شخصي ، ولا لعلة دنيوية .

فمن نظر في حبه رضا الله سبحانه ، ونظر في بغضه رضا الله
تعالى ، فقد استكمل إيمانه بالله سبحانه وتعالى .

ويشرح الامام الغزالي معنى الحب في الله ، والبغض في الله
فيقول :

« من أحب بسبب فبالضرورة يبغض لظده ، وهذان متلازمان
لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، وهو مطرد في الحب والبغض في
العادات ، ولكن كل واحد من الحب والبغض داء دفين في القلب ،
وانما يترشح عند الغلبة ، ويترشح بظهور أفعال المحبين ،
والمبغضين ، في المقاربة والمباعدة ، وفي المخالطة والموافقة .

فان قلت :

فكل مسلم فاسلامه طاعة منه ، فكيف ابغضه مع الاسلام ؟
فأقول : تحبه لاسلامه ، وتبغضه لمعصيته ، وتكون معه على
حالة لو قستها بحال كافر أو فاجر أدركت تفرقة بينهما ، وتلك
التفرقة حب الاسلام ، وقضاء لحقه » اهـ .

ولما للحب في الله من منزلة ترقى بأصحابها الى ذروة الفضائل ،
تناسب أن نذكر ما يوضح ذلك ويبينه .

روى أن الله تعالى أوحى الى موسى عليه السلام ، هل عملت
الى عملا قط ؟ فقال :

الهي ! اني صليت لك ، وصمت ، وتصدقت ، وزكيت ، فقال :

(١) انظر : روح المعاني للالوسي

ان الصلاة لك برهان ، والصوم جنة ، والصدقة ظل ، والزكاة نور ؛ فأى عمل عملت لى ؟

قال موسى :

الهى دلتى على عمل هو لك ؟ قال ياموسى :

هل واليت لى وليا قط ؟ وهل عاديت فى عدوا قط ؟

فعلم موسى أن افضل الأعمال ، الحب فى الله ، والبغض فى الله (١) « اهـ .

وقال عيسى عليه السلام :

« تحببوا الى الله ببغض اهل المعاصى ، وتقربوا الى الله ، بالتباعد منهم ، والتمسوا رضا الله بسخطهم ؛

قالوا : يارسول الله ، فمن نجالس ؟ قال :

جالسوا من تذكركم الله رؤيته ، ومن يزيد فى عملكم كلامه ، ومن يرغبكم فى الآخرة عمله « اهـ .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما :

« والله لو صمت النهار لا افطره ، وقمت الليل لا انامه ، وأنفقت مالى غلقا غلقا فى سبيل الله ، أموت يوم أموت ، وليس فى قلبى حب لأهل طاعة الله ، وبغض لأهل معصية الله ما نفعنى ذلك شيئا « اهـ

اما الحديث الذى يحرك القلوب ، ويهز المشاعر ، ويأخذ النفوس بالهيام والشوق ، فهو :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان حول العرش منابر من نور ، عليها قوم لباسهم نور ، ووجوههم نور ، ليسوا بأنبياء ، ولا شهداء ، يغطهم النبيون والشهداء ، فقالوا يارسول الله !

(١) انظر : روح المعانى للألوسى

صفهم لنا ؟ فقال :

هم المتحابون في الله ، والمتجالسون في الله ، والمتزاورون في الله (١) .

فالتحاب في الله ، والأخوة في دينه ، والقيام بحقوق ذلك مع مراعاة حق الله فيها ، يقرب الى الله زلفى ، والمحافظة على ذلك ، تحقق الدرجات العلى .

هذا هو مجمل ما رأيناه من حقوق الصحة ، على سبيل التوجيه والارشاد ، لا على طريق البحث والتفصيل .

أما واجب المسلم نحو المسلمين عامة ، وحقوقهم عليه ، فقد أوجب الاسلام كل ما سبق أن ذكرنا من حقوق الصحة ، مع الاضافة لأمور نذكر منها ما يلي :

١ - الاستئذان وافشاء السلام :

يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأثروا وتسلموا على أهلها ، ذلك خير لكم لعلكم تذكرون (١) » .

ويقول سبحانه :

« فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة (٢) » .

ويقول جل وعز :

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها (٣) » .

ويقول سبحانه وتعالى :

(١) رواه النسائي في سننه الكبرى ، وزجالة ثقات

(٢) النور آية : ٢٧

(٣) النور آية : ٢١

(٤) النساء آية : ٨٦

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام (١) » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما ، ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى الاسلام خير ؟ قال :

« تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف (٢) »

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

لما خلق الله آدم صلى الله عليه وسلم ، قال : اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك ، فانها تحيتك وتحية ذريتك ؛ فقال ا

السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله فزادوه ، ورحمة الله (٣) » .

آيات قرآنية كريمة ، وأحاديث نبوية شريفة ، كل ذلك فى همومه ، يشعرونا تمام الاشعار ، أن الاسلام وجه الناس الى الآداب الاجتماعية ، التى يستقر بها حال الأمم ، ويسود معها الأمان ، ويحصل التواد ، ويتحقق الوئام .

لهذا خليق بالمسلم ، أن يسلم على أخيه اذا لقيه ، ويجيبه فى دعوته ، ويشمته اذا عطس ، ويعوده اذا مرض ، ويشهد جنازته ويشيعها ، ويبر قسمه اذا أقسم .

عن البراء بن عازب رضى عنهما قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بسبع :

بعبادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العطس ، ونصر الضعيف ، وعون المظلوم ، وإفشاء السلام ، وإبرار القسم (٤) » .

(١) اللآيات آية : ٢٤ ، ٢٥

(٢) متفق عليه

(٣) متفق عليه

(٤) متفق عليه

ويجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، افشاء السلام سبباً ،
للتحاب الذي يقوى الايمان ، ويدخل الجنة ، فيقول فيما رواه
ابو هريرة رضى الله عنه :

« لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ؛ ولا تؤمنوا حتى تحابوا ؛

اولا ادلكم على شيء اذا فعلتموه تحاببتم ؟

افشوا السلام بينكم (١) .

فحق المسلم على المسلم ، أن يعامله كما أمر الله سبحانه ؟
ينصح له اذا استنصحه ، ويحفظه بظهر الغيب اذا غاب عنه ؛

يحفظه بالدعاء له ، والأمانة على ماله وعرضه ، كما يجب ذلك
لنفسه :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

أما حق المسلم على المسلم بالنسبة للاذن او الاستئذان فان
الله تعالى يقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا
وتسألوا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون .

فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن
قيل لكم أرجعوا فارجعوا ، هو أذكى لكم والله بما تعملون عليم (٢) .

وقد ثبت في الصحيح ، أن أبا موسى حين استأذن على عمر
ثلاثاً ، فلم يؤذن له ، انصرف ، ثم قال عمر :

الم اسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له ؟

فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال :
ما رجعت ؟ قال :

(١) رواه مسلم

(٢) النور آية : ٢٧ ، ٢٨

انى استأذنت ثلاثا ، فلم يؤذن لى ، وانى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول :

« اذا استأذن احدكم ثلاثا ، فلم يؤذن له ، فليصرف » فقال عمر :

لتأتينى على هذا بينة ، والا اوجعتك ضربا ، فذهب الى ملا من الأنصار ، فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا :

لا يشهد لك الا أصغرنا ، فقام معه أبو سعيد الخدرى ، فأخبر عمر بذلك ، فقال : الهانى عنه ، الصفق بالأسواق « اهـ وعن كلدة بن حنبل قال :

دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم أسلم ، ولم استأذن ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« ارجع فقل : السلام عليكم ، أدخل ؟ (١) »

فلاستأذان قبل السلام والكلام ، لابد منه ، اما المبادرة بالمصافحة ، فحسبها من الأفضلية والثوبة ، توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، اليها ، وحته العظيم عليها .

فعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان ، الا غفر لهما قبل أن يتفرقا (١) » .

٢ - الرفق واللين :

يقول الله تعالى ، مخاطبا رسوله وموجها عباده ، الى اللين فى القول ، والرفق فى المعاملة :

« فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب ، لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمتم فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين (٢) »

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه

(٢) آل عمران آية : ١٥٩

ويقول سبحانه :

« خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلین (١) » .

ويقول عز وجل :

« ولئن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور (٢) » .

خاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ممتنا عليه وعلى المؤمنين ، فيما الآن به قلبه على أمته المتبعين لأمره ، التاركين لزجره ، وأطاب لهم لفظه ، فقال له :

« فيما رحمة من الله لنت لهم » يعنى : بأى شئ جعلك الله لهم ليئا ، لولا رحمته سبحانه وتعالى بك وبهم .

« واو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » يعنى : لو كنت سىء الكلام قاسى القلب عليهم ، لا انفضوا عنك ، وتركوك وشأنك ، وانصرفوا عن دعوتك ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، جمعهم عليك ، والان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم ؛ يشهد لذلك ما قاله عبد الله بن عمرو ، اذ يقول :

« انى أرى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الكتب المتقدمة ، انه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيسة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح » اهـ

ولنا فى هذا احاديث رائعة لا تحصى ، نذكر منها ما يلى :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاشج عبد القيس :

« ان فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم ، والأتانة (٣) » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) الاعراف آية : ١٩٩ .

(٢) الشورى آية : ٤٣ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه

« أن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله (١) » .

وعنها رضى الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

ان الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق ، ما لا يعطى على العتق ، وما لا يعطى على ماسواه (٢) » .

ويمدح صلوات الله وسلامه عليه ، الرفق ، ويحث عليه ، فيقول فيما روى عن عائشة ، رضى الله عنها :

« ان الرفق لا يكون في شيء الا زانه ، ولا ينزع من شيء الا شانه (٣) » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، طبق الرفق تطبيقا عمليا مع أصحابه وعشيرته ، وقومه حتى غمر رفقہ صلوات الله عليه ، اكل فرد من افراد الانسانية .

عن عائشة رضى الله عنها ، انها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم :

هل ائى عليك يوم كان اشد من يوم احد ؟ قال :

لقد لقيت من قومك - وكان اشد ما لقيته منهم - يوم العقبة ، اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى الى ما اردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم استفق الا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، واذا أنا بسحابة قد اظلمتني ، فنظرت فاذا فيها جبريل صلى الله عليه وسلم ، فنادانى فقال :

ان الله تعالى قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث اليك ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم على ، ثم قال يا محمد :

(١) متفق عليه

(٢) رواه الامام مسلم

(٣) رواه مسلم

ان الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني
ربي اليك ، لتأمرني بأمرك ، فما شئت ؟ ان شئت أطيق عليهم
الأخشبين ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ،
لا يشرك به شيئا (١) » .

ويزداد رفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سموا على
سموه ، حتى تناول رفيقه اليهود الذين لم يعلنوها حربا شعواء (٢).
أيضا .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت :

ان رهطا من اليهود ، دخلوا على رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فقالوا :

السام عليك - ومعنى السام الموت - فقال النبي صلى الله
عليه وسلم ، عليكم .

فقال عائشة رضي الله عنها فقلت :

« بل عليكم السام واللعنة » . فقال عليه الصلاة والسلام :
يا عائشة !

ان الله يحب الرفق في كل شيء . قالت عائشة :

الم تسمع ما قالوا ؟ قال :

فقد قلت : عليكم (٣) » .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن غلاما شابا أتى النبي صلى
الله عليه وسلم ، فقال : يا نبي الله !

(١) متفق عليه

(٢) أما الرفق مع اليهود الذين يعلنونها حربا ساخنة ، ففيه الضياع الكامل
لأن يرفق بهم لأنهم لا يستحقون الرفق .

(٣) متفق عليه

أتأذن لي في الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

قربوه ، أدن .

فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم
أتحبه لامك ؟ فقال : لا جعلني الله فداك . قال :

كذلك الناس لا يحبونه لامهاتهم .

أتحبه لابنتك ؟ قال : لا جعلني الله فداك ، قال :

كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم .

أتحبه لاختك (١) ؟

وزاد ابن عوف : حتى ذكر العمة ، والخالة ، وهو يقول في كل

واحد ، لا ؛ جعلني الله فداك ، وهو صلى الله عليه وسلم ، يقول
كذلك الناس لا يحبونه .

وقالا ابن عوف ، وأبو أمامة :

فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يده على صدره وقال :

اللهم طهر قلبه ، وأغفر ذنبه ، وحصن فرجه « قال :

فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا » اهـ .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت :

استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو » .

فلما دخل ، ألان له القول ، حتى ظننت أن له عنده منزلة ؛

فلما خرج ، قلت له :

لما دخل قلت الذي قلت : ثم أنت له القول ؟ فقال يا عائشة :

(١) رواه أحمد بإسناد جيد

« ان شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة ، من تركه الناس اتقاء فحشه (١) » .

فصلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله ، يا من ارسلك الله للعالمين رحمة ، وأثنى عليك بقوله :
« وانك لعلى خلق عظيم » .

٣ - التوسعة في المجالس وتوقير علو المنزلة :

يقول الله سبحانه :

« يا ايها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ، فافسحوا يفسح الله لكم (٢) » .

زاد اهتمام الاسلام بتكريم الانسان ، حتى جعل من حقوق المسلم على أخيه ، أن يوسع له في المجالس ولا يقيم الانسان انسانا من مجلسه للجلوس مكانه ، مهما كان الجالس وضيعا والقادم رفيعا .

يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ، ثم يجلس فيه ، لكن توسعوا وتفسحوا (٢) » .

فاذا سلم الداخل ، ولم يجد مجلسا ، فلا ينصرف . بل يجلس حيث انتهى الصف ، خاصة في مجلس العلم وسماعه . فان الانصراف عن العلم منهي عنه .

يقول ابو واقد الليثي رضى الله عنه :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جالسا في المسجد ، اذا أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

(١) متفق عليه

(٢) المجادلة آية : ١١

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر

فأما أحدهما : فوجد فرجة فجلس فيها .

وأما الثانى : فجلس خلفهم .

وأما الثالث : فأدبر ذاهبا .

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

الا أخبركم عن النفر الثلاث ؟

أما أحدهم : فأوى الى الله ، فأواه الله ؛ وأما الثانى : فاستحيا ، فاستحيا الله منه ، وأما الثالث : فأعرض ، فأعرض الله عنه (١) «

أما توقير من تدل هيئته على علو منزلته ، فقد طبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك تطبيقا عمليا مع أصحابه .

روى الحاكم من حديث جابر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابه ، حتى غص المجلس ، وامتلا ، فجاء جرير بن عبد الله البجلي ، فلم يجد مكانا ، فقعده على الباب ، فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رداءه ، فالتقاء اليه ، وقال له :

« اجلس على هذا » .

فأخذه جرير ، ووضع على وجهه ، وجعل يقبله ويبكى ، ثم لفه ورمى به الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« ما كنت لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتنى » .

فنظر النبى صلى الله عليه وسلم ، يمينا وشمالا ، ثم قال :

« اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه (١) » .

خلق عظيم ، ومثل انسانية كريمة ، ضرب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المثل الأعلى فى معاملته لأصحابه ، بل وفى معاملته

(١) متفق عليه .

(١) رواه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد .

للناس أجمع ، وسار الصحابة الأجلاء ، على نهجه الحمدي القويم ،
سيرتهم الطويلة ، حتى مدحهم الله بقوله سبحانه :

« رحماء بينهم »

يقول ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى :
« رحماء بينهم » .

يدعو صالحهم لطالحهم ، وطالحهم لصالحهم ، فاذا نظر
الطالح الى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال
« اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير ، وثبتة عليه ،
وانفعنا به » .

واذا نظر الصالح الى الطالح قال :

« اللهم اهده ، وتب عليه ، واغفر له عشرته » اهـ

ومجمل القول : ان في المصافحة خير كثير ، وفي التوقير حب
العلی القدير ، وفي التوسعة في المجالس ، رحمة الله وبركاته على
العاملين .

فكم من نعم أنعمها الله على خلقه ، وبالشكر يحصل المزيد ،
وكم من الأمور ما هو ميسور ، والثواب عليه موفور جزيل .
فلك الحمد والشكر ، يا من له الحمد في الأولى والآخرة ، وله
الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

٤ - اصلاح ذات البين :

أوجب الله سبحانه ، الصلح بين المتخاصمين ، رافة بخلقه ،
وتكريما لأنسانيتهم ، وحث على ذلك القرآن ، وأرشد الرسول
عليه الصلاة والسلام .

يقول سبحانه وتعالى :

« وان امرأة خافت من بعلها نشوزا ، أو اعراضا ، فلا جناح
عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير (١) »

(١) النساء آية - ٣٨

وينقى الله تعالى ، الخيرية في كثير من النجوى ، الا من امر
بصدقة او معروف ، او اصلاح بين الناس فيقول :

« لا خير في كثير من نجواهم الا من امر بصدقة ، او معروف ،
او اصلاح بين الناس (١) » .

وقتل احدهما ان بغت على الأخرى حتى تفيء الى امر الله فيقول:

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت
احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله ،
فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، ان الله يحب
المقسطين (٢) » .

ثم يبين الله سبحانه ، ان المؤمنين اخوة ، وأن الصلح بين
الاخوين سبب التقوى والرحمة ، فيقول موضحا ذلك :

« انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم ، واتقوا الله لعلكم
ترحمون (٣) » .

ولما لاصلاح ذات البين من مكانة سامية ، وغاية منشودة ،
وجه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، اليه فقال :

« الا اخبركم بأفضل من درجة الصلاة ، والصيام ، والصدقة ؟
قالوا : بلى . قال :

اصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هي الحالقة (٤) » .

واصلاح ذات البين ، عام في الدماء ، والأموال ، والأعراض ،
وفي كل شيء يقع التداعى والاختلاف فيه بين المسلمين ؛

(١) النساء آية : ١٤٤

(٢) الحجرات آية : ٩

(٣) الحجرات آية : ١٠

(٤) رواه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء

وكل كلام يراد به وجه الله سبحانه وتعالى ، فهو لك ، وما عداه عليك . وفي الخبر :

« كلام ابن آدم كله عليه لا له ، الا ما كان من أمر بمعروف ، او نهى عن منكر ، او ذكر الله تعالى » اهـ

وعن انس بن مالك رضى الله عنه ، أنه قال :

« من أصلح بين اثنين أعطاه الله بكل كلمة عتق رقبة » اهـ

وقال النبی صلی الله علیه وسلم ، لأبى ایوب :

« الا ادلك على صدقة يحبها الله ورسوله ؟

تصلح بين اناس اذا تفاسدوا ، وتقرب بينهم اذا تباعدوا » اهـ

وقال الاوزاعی :

« ما خطوة أحب الى الله عز وجل ، من خطوة في اصلاح ذات

البین ، ومن أصلح بين اثنين ، كتب الله له براءة من النار » اهـ

وقال محمد بن المنکدر :

« تنازع رجلان في ناحية المسجد ، فملت اليهما فلم ازل بهما

حتى اصطلحا ، فقال أبو هريرة وهو يرانى :

سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم يقول :

« من أصلح بين اثنين استوجب ثواب شهيد (١) » .

هـ - المسلم أخو المسلم ، لا يخذله ، ولا يسلمه ، بل ينصره ويؤازره :

يقول الله تعالى :

« انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم ، واتقوا الله لعلمكم

ترحمون » .

(١) انظر : « الجامع لاحكام القرآن للقرطبي » ج ٥ ص ٣٨٥

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تناجشوا ، وكونوا عبا لله اخوانا » .

فالؤمنون بنص الكتاب والسنة ، اخوة في الدين والحرمة ، لا في النسب والقربة ، ولهذا قيل :

« اخوة الدين » أثبت من اخوة النسب ، فان اخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين ، واخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب » اهـ
وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله اخوانا » .

المسلم اخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه ولا يحقره .
التقوى ها هنا - ويشير الى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر ، ان يحقر اخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه ، وماله ، وعرضه » .

ويحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الظن السيئ ، وينهى عن التحاسد ، والتدابير ، والتباغض فيقول فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه :

« أياكم والظن ، فان الظن اكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا ، كما أمركم الله تعالى ؛

المسلم اخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ؛
بحسب امرئ من الشر ان يحقر اخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : ماله ، ودمه ، وعرضه » .

ان الله لا ينظر الى صوركم واجسادكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم واعمالكم .

التقوى ههنا ؛ التقوى ههنا ؛ التقوى ههنا - ويشير الى صدره - الا لا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله اخوانا ؛ ولا يحل لمسلم ان يهجر أخاه فوق ثلاث « (١) ا هـ .

والاحاديث في هذا الشأن اكثر من ان تحصى ، وهى فى مجموعها تحت على التعاون الاسلامى القوى ، الذى لا ينقسم حبسه ، ولا ينقطع سببه ، ولا تنحل عرى محبته .

وحسب الاخوة فى الدين أهمية ، ان جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم ، كالجسد الواحد ، عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحيمهم ، وتعاطفهم ، مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (٢) .

وعن أبى حازم قال :

سمعت سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه ، يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ان المؤمن من اهل الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، يالم المؤمن لأهل الايمان ، كما يالم الجسد لما فى الرأس » .

٦ - الكف عن السخرية والمنع عن الأذى :

يقول الله تعالى ناهيا عن السخرية والاستهزاء :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، عسى ان يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن » .

(١) أخرجه الستة الا النسائي . وهذا لفظ مسلم

(٢) متفق عليه

ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم
الفسوق ، بعد الإيمان ، ومن لم يتب ، فأولئك هم الظالمون » (١) .

حرم الله سبحانه ، السخرية ، لما فيها من احتقار الإنسان
لأخيه الإنسان والاستهزاء الذي يوغر الصدر ، ويحدث البغضاء ،
ويوقع ما هو مخالف لما أمر الله به ، من التسوادم والتراحم ،
والتعاطف ، وغير ذلك من ملاطفة العشرة .

وأفرد الله سبحانه ، النساء بالذكر بقوله : « ولا نساء من
نساء » ، لأن السخرية منهن أكثر .

وعلى الرغم من بيان سبب النهي الإلهي عن السخرية ، إلا أن
هناك حكمة إلهية جليلة يعلمها الله سبحانه ، نهى من أجلها عن
السخرية والاستهزاء أيضا .

ذلك : أن الإنسان تحت رهن إشارة القدر ، وهو في عجز دائما
من ادراك ما غيب عنه ، وما هو مقدور له .

فهو لا يدري : ماذا يكون له ؟ إصلاح الحال أم فسادها ؛ بل أنه
لا يدري حقيقة ما به ، وما هو عليه ، فعلم ذلك موكل إلى الله
وحده .

فربما سخر بإنسان أو استهزأ به ، وهو عند الله أفضل منه ،
وأعظم .

« رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » .

لذا نهى الله عن السخرية ، وحذر بنى الإنسان ، عن أن يقعوا
في حبال الشيطان ، فلا يكون لهم في الآخرة ، إلا الندم والخسران ؛
أعاذنا الله من ذلك .

ويكفى المسلم حجة ، ما رواه مسلم في صحيحه ، عن أبي
هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« أن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم
وأعمالكم » (١) .

(١) الحجرات آية : (١١)

(٢) رواه مسلم

يقول القرطبي في هذا الحديث :

« وهذا حديث عظيم ، يترتب عليه ، ألا يقطع بعيب أحد ، لا يرى عليه من صور وأعمال الطاعة ، أو المخالفة ، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة ، يعلم الله من قلبه وصفا مذموما ، لا تصح معه تلك الأعمال .

ولعل من رأينا عليه تفريطا ، أو معصية ، يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه .

فالأعمال أمارات ظنية لا أدله قطعية ؛ ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالا صالحة ، وعدم الاحتقار لمسلم ، رأينا عليه أفعالا سيئة ؛ بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة ، لا تلك الذات السيئة ؛

فتدبر هذا فانه نظر دقيق ، وبالله التوفيق « (٢) ١ هـ .

ويقول ابن زيد في هذا المعنى :

« لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ، ممن كشفه الله ، فلعل اظهار ذنوبه في الدنيا خير له في الآخرة » ١ هـ .

فلا ينبغي بحال ، أن يجترىء أحد على الاستهزاء بعد هذا البيان ، بمن يقتحمه بعينه اذا رآه رث الحال ، أو ذا عاهة في بدنه ، أو غير لبيق في محادثته ... أو ... فلعله أخلص ضميرا ، وأبقى قلبا ، وأصفى نفسا ، ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى .

ولقد بلغ شأن سلفنا الصالح رضوان الله عليهم ، من فرط توقيهم ، وتصونهم ، أن قال عمرو بن شرحبيل :

« لو رأيت رجلا يرضع عنزا ، فضحكت منه ، لخشيت أن اصنع مثل الذي صنع » .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٦ من ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

وعن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه :
« البلاء موكل بالقول ، لو سخرت من كلب ، لخشيت أن أحول
كلباً » .

أما الاستهزاء باللمز ، فإن الله تعالى نهى عنه قائلا :

« ولا تلمزوا أنفسكم » .

يقول الطبراني :

« اللمز » باليد ، والعين ، واللسان ، والأشارة « والهمز »
لا يكون إلا باللسان .

وهذه الآية : مثل قوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » . أى :
لا يقتل بعضكم بعضا ، لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فكأنه يقتل
أخيه قاتل نفسه .

وكقوله تعالى : « فسلموا على أنفسكم » . يعنى :

يسلم بعضكم على بعض ؛

والمعنى : لا يعيب بعضكم بعضا « (١) » .

ففى الآية تنبيه على أنه لا يصح أن يستصغر إنسان أخاه ، أو
يمقته ، أو يعيب عليه ، فيعيب على نفسه وهو لا يدري .

والعاقل لا يعيب نفسه ، ولا يعيب غيره ، لأن غيره كنفسه .
قال صلى الله عليه وسلم :

« المؤمنون كجسد واحد ، ان اشتكى عضو منه ، تداعى له
سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وقال أبو بكر بن عبد الله المزنى :

« كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة ، فيدعى ببعضها ،
فعسى أن يكره ، فنزلت الآية : « ولا تنازروا بالألقاب » (٢) » .

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن ج ١٦ ص ٢٢٨

(٢) قال : هذا حديث حسن

فمن لقب أخاه ، أو سخر منه ، كان ممن قال الله فيهم :
« بثس الاسم الفسوق بعد الايمان » .

ويحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من التنازع ، وينهى أصحابه رضوان الله عليهم نهيا حاسما عن ارتكاب هذا الاثم . فقد جاء أن أبا ذر رضي الله عنه ، كان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فنازعه رجل ، فقال له أبو ذر :

« يابن اليهودية » . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« ما ترى ها هنا احمر ، واسود ، ما أنت بأفضل منه » .
يعنى بالتقوى ؛ ونزلت :

« ولا تنازروا بالألقاب » (١) .

ويشرح ابن عباس رضي الله عنهما : معنى التنازع فيقول :

« التنازع بالألقاب ، أن يكون الرجل قد عمل السيئات ، ثم تاب ، فنهى الله أن يعبر بما سلف ، يدل عليه ، ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« من غير مؤمنا بذنب تاب منه ، كان حقا على الله أن يتليه به ، ويفضحه فيه في الدنيا والآخرة » (٢) .

ومجمل ما ترشدنا اليه الآية : يحدثنا عنه أبو عبد الله بن خوير منداد فيقول :

تضمنت الآية المنع من تلقيب الانسان بما يكره ، ويجوز تلقيبه بما يحب ، الا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لقب عمر بالفاروق ، وأبا بكر بالصدیق ، وعثمان بذي النورين ، وخزيمة بذي الشهادتين ، وأبا هريرة بذي الشمالين ، ويذى باليدين في أشياء ذلك « اهـ .

(١) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٢٩

(٢) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٢٩

أما الزمخشري فإنه يقول : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« من حق المؤمن على المؤمن ، أن يسميه بأحب أسمائه » .
لهذا كانت التكنية ، والتسمية بأحب الأسماء من السنة ،
والأدب الحسن .

قال عمر رضى الله عنه :

« أشيعوا الكنى فإنها منبهة » .

واقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة
بأسد الله ، وخالد بسيف الله .

وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام ، من ليس له لقب ، ولم
تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها - من العرب والعجم -
تجرى في مخاطباتهم ، ومكاتباتهم من غير نكير « اهـ » .

والضابط لهذا كله : أن كل ما يكرهه الإنسان إذا نودي به ،
فلا يجوز لأجل الأذية .

ويشهد لهذا قوله تعالى : « ومن لم يتب » . أى من لم يتب عن
هذه الألقاب التى يتأذى بها السامعون « فأولئك هم الظالمون »
لأنفسهم بارتكاب هذه المناهى .

٧ - اجتناب الظن السيئ :

يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، أن بعض
الظن اثم » .

والظن المنهى عنه في الآية : هو التهمة ، ومحل التحذير ،
والنهى : إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها ، كمن يتهم بالفاحشة ،
أو بشرب الخمر مثلا ، ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك ؛

ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله تعالى : « ولا تجسسوا »

وذلك انه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ، ويريد أن يتجسس
لخبر ذلك ، ويبحث عنه ، ويتبصر ويستمع لتحقيق ما وقع له من
تلك التهمة ، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم ، عن ذلك .

والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل
مالم يعرف له اشارة صحيحة ، وسبب ظاهر : كان حراما واجب
الاجتناب ؛ وذلك : اذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر
والصلاح وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظن الفساد به ،
والخيانة محرم .

بخلاف من اشتهر بين الناس بتعاطى الريب والمجاهرة
بالخبائث .

فمن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة ، فظن
الفساد به محرم ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم :

« ان الله حرم من المسلم : دمه ، وعرضه ، وان يظن به ظن
السوء .

فقد تبين من هذا ان الظن على قسمين :

أحدهما : تعرف وتقوى ، بوجه من وجوه الأدلة ، فيجوز الحكم
به .

والثانى : ان يقع فى النفس شىء من غير دلالة ، فلا يكون ذلك
أولى من ضده ، فهذا هو الشك ، فلا يجوز الحكم به ، وهو المنهى
عنه .

فالظن محمود ، ومذموم . فالمحمود منه : ما سلم معه دين
الظان والمظنون به عند بلوغه . والمذموم منه : هو ما قال الله فيه :
« ان بعض الظن اثم » .

٨ - النهى عن التجسس :

يقول الله سبحانه وتعالى ، ناهيا عن التجسس :

« ولا تجسسوا » .

نهى الله تعالى عن التجسس ، وحذر من اتيانه ، وجاء ذلك النهى فى القرآن الكريم بلفظ صريح ، وهو قوله : « ولا تجسسوا » .

غير ان النهى لم يكن عاما لأنواع التجسس ، فان التجسس اذا كان على الاعداء ، لم يدخل تحت هذا النهى ، ولم يكن محظورا بل انه مباح ومطلوب .

اما التجسس الذى عناه القرآن ونهى عنه ، فهو ما يترتب عليه تتبع عورات المسلمين ، وكشف أسرارهم ، والبحث عن عيوبهم وذلك هو النهى عنه بقوله ا « ولا تجسسوا » .

والمعنى : خذوا ما ظهر ، ولا تتبعوا عورات المسلمين ، اذ لا يصح ان يبحث أحدكم عن عيب أخيه ، حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله .

وفى كتاب أبى داود عن معاوية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« انك ان اتبعت عورات الناس افسدتهم ، او كدت ان تفسدهم » .

قال أبو الدرداء :

« كلمة سمعها معاوية من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، نفعه الله تعالى بها » .

وعن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه ، لا تفتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فان من اتبع عوراتهم ، يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته ، يفضحه فى بيته » .

وقال عبد الرحمن بن عوف :

حرسنا ليلة مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بالمدينة ، اذ تبين لنا سراج فى بيت بابنه ميجاف على قوم لهم اصوات مرتفعة ، ولفظ ! فقال عمر :

هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن شرب ، فما ترى ؟
قلت :

أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله تعالى :

« ولا تجسسوا » وقد تجسسنا ، فانصرف عمر وتركهم « (١) » .
وهالك قصة أخرى ، تبين بيانا لا لبس فيه ، الزجر الحاسم
عن التجسس :

قال عمرو بن دينار :

كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت ، فكان يعودها ،
فماتت فدفنها : فكان هو الذي نزل في قبرها ، فسقط من كفه
كيس فيه دنانير ، فاستعان ببعض أهله ، فنبشوا قبرها ، فأخذ
الكيس ثم قال :

لا كشفن حتى أنظر ما آل حال أختي إليه ، فكشف عنها ،
فاذا القبر مشتعل نارا ، فجاء إلى أمه فقال :

أخبريني ما كان عمل أختي ؟ فقالت :

قد ماتت أختك ، فما سؤالك عن عملها ؟ فلم يزل بها حتى
قالت له :

كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها ، وكانت
إذا نام الجيران ، قامت إلى بيوتهم فألقت أذنها أبوابهم ، فتجسس
عليهم ، وتخرج أسرارهم . فقال :

بهذا هلك (٢) » .

٩ - ولا يغترب بعضكم بعضا :

إذا كان الإسلام في عموم أوامره ، وفي شمول نواحيه ، اهتم
بآداب العشرة ، مراعاة لدوام الصحبة ، فإن حفظ عرض الإنسان

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٦ ص ٢٢٢

(٢) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٢٤

في غيبته ، والذود عن كرامته ، والدفاع عن حقوقه ، من باب أولى .
لهذا نهى الله تعالى عن الغيبة ، فقال

« ولا يغتب بعضكم بعضا ، ايحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتا »

والغيبة التي نهى الله عنها هي : ان تذكر الانسان في غيبته بما يكره ، فان كان فيه ما تذكره فقد اغتبته ، والا فقد بهته ، وكل منهما منهي عنه .

عن ابي هريرة - فيما رواه الامام مسلم في صحيحه - ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا :

الله ورسوله اعلم . قال :

ذكرك اخاك بما يكره ، قيل :

افرايت ان كان في اخي ما اقول ؟ قال :

ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »

ولقد ثبت في الصحاح ، والحسان ، والمسانيد ، من غير وجه ، انه صلى الله عليه وسلم قال في خطبة الوداع :

ان دماءكم ، واموالكم ، واعراضكم ، حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا »

وعن ابي صالح فيما رواه عن ابي هريرة رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« كل المسلم على المسلم حرام ، ماله ، وعرضه ، ودمه ،

حسب امرئ من الشر ان يحقر اخاه المسلم »

والاحاديث في هذا الموضوع لا يتأتى لنا حصرها ، فلنذكر ما يكفى للاستدلال ، حتى لا يكون هناك ريب لشاك ، ركب الشيطان

رأسه ، وأساء صنعه ، واتبع هواه وكان أمره فرطا .
عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال :

خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أسمع العواتق
في بيوتها - أو قال خدورها - فقال :

« يا معشر من آمن بلسانه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا
عوارثهم ، فانه من يتبع عورة أخيه ، يتبع الله عورته ، ومن يتبع
الله عورته ، يفضحه في جوف بيته »

وفي رواية ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال :

« يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يفض الايمان الى قلبه ،
لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من يتبع عورات
المسلمين ، يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته ، يفضحه ولو في
جوف رحله »

أما ما أعده الله تعالى من عذاب للذين يغتابون ، فذلك يوضحه
الحديث التالى :

عن وقاص بن ربيعة ، عن المسور ، أنه حدثه ، أن النبى صلى
الله عليه وسلم قال :

« من أكل برجل مسلم أكلة ، فإن الله يطعمه مثلها في جهنم .
ومن كسا ثوبا برجل مسلم ، فإن الله يكسوه مثله في جهنم .
ومن قام برجل مقام سمعة ورياء ، فإن الله تعالى ، يقوم به
مقام سمعة ورياء يوم القيامة (١) »

ويخبر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، عن أحوال الذين

(١) رواه أبو داود في سننه

يأكلون لحوم الناس ، وما هم عليه من قبح الصورة ، وبشاعة المنظر فيقول :

« لما عرج بي ، مررت بقوم لهم اظفار من نحاس ، يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال :

هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم (١) » .

ويبين صلوات الله وسلامه عليه ، شأن الذين يفتابون الناس ، من سوء الحال ، وشدة النكال ، فيصور ذلك في حديث هالك نصه :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله ، حدثنا ما رأيت ليلة أسرى بك ؟

قال : « ثم انطلق بي الى خلق من خلق الله كثير ، رجال ونساء ، موكل بهم رجال يعمدون الى عرض جنب أحدهم ، فيجذون منه الجذة مثل النعل ، ثم يضعونها في أحدهم . فقال له :

كل كما أكلت ، وهو يجد من أكله الموت يا محمد ، يجد الموت ، وهو يكره عليه ، فقلت :

يا جبرائيل ، من هؤلاء ؟ قال :

هؤلاء الهمازون ، أصحاب النيمة ، فيقال :

« ايجب احذكم ان يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » . وهو يكره على أكل لحمه »

شبه الله سبحانه ، الذي يفتاب الناس ، بمن يأكل لحم أخيه ميتا ،

يقول ابن عباس رضي الله عنهما :

« انما ضرب الله هذا المثل للغبية ، لان أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام في الدين ، وقبيح في النفوس » .

(١) رواه ابو داود في سننه

وقال قتادة رضى الله عنه :

« كما يمتنع احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا ، كذلك يجب ان

يمتنع من غيبته حيا »

ويقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« اياكم وذكر الناس ، فانه داء ، وعليكم بذكر الله ، فانه شفاء » .

اما رسول الله صلى الله عليه وسلم : فانه يقف من أجل ذلك مع اصحابه موقفا حاسما يصوره لنا الحديث التالى :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ان الأسلمى ماعزا ، جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فشهد على نفسه بالزنى ، فرجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسمع نبى الله صلى الله عليه وسلم ، رجلين من اصحابه ، يقول أحدهما للآخر :

« انظر الى هذا الذى ستر الله عليه ، فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب » .

فكست عنهما ، ثم سار ساعة ، حتى مر بجيفة حمار ، شائل برجله ، فقال :

« اين فلان ، وفلان ؟ » فقالا : نحن ذا يا رسول الله ! قال :

« انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار » فقالا : يا نبى الله !

ومن يأكل من هذا ؟ قال :

فما نلتما من عرض أخيكما ، أشد من الأكل منه ، والذى نفسى بيده ، انه الآن لفى أنهار الجنة ، ينغمس فيها (١) .

ودور نبوى آخر ، يضرب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اروع نماذج التوجيه لاصحابه :

(١) رواه أبو هريرة ، واسناده صحيح .

عن سليمان التيمي قال : سمعت رجلا يحدث في مجلس أبي عثمان النهدي ، عن عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ! ان ها هنا امرأتين صامتا ، وانهما كادتا تموتان من العطش ، أراه قال بالهاجرة .

فأعرض عنه ، أوسكت عنه ، فقال : يا نبي الله ! انهما والله قد ماتتا ، أو كادتا تموتان ، فقال : ادعهما ، فجاءتا . قال :

فجئىء بقدرح أوعس ، فقال لاحداهما : قئىء ، فقأئت من قيح ، ودم ، وصيد ، حتى قأئت نصف القدح ، ثم قال للأخرى : قئىء ، فقأئت قيحا ، ودماء ، وصيدا ، ولحما ، ودما عبيطا وغيره ، حتى ملأت القدح ، ثم قال :

ان هاتين صامتا عما أحل الله تعالى لهما ، وافطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست احداهما الى الأخرى ، فجعلتا تأكلان لحوم الناس (١) .

وحادثة أخرى تبين خبث الفيبة ، وقبح رائجتها .

روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال :

كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، في سفر ، فهاجت ريح منتنة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« ان نفرا من المنافقين ، اغتابوا ناسا من المسلمين ، فلذلك بعثت هذه الريح » .

وقال السدي في قوله تعالى :

« ايحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتا ؟ »

(١) رواه الامام احمد .

أن سلمان رضى الله عنه ، كان مع رجلين من أصحاب النبی صلی الله علیه وسلم ، فی سفر یخدمهما ویخف لهما ، ینال من طعامهما ، وأن سلمان رضى الله عنه ، لما سار الناس ذات یوم وبقی سلمان رضى الله عنه ، نائما ، لم یسر معهم ، فجعل صاحباه یكلمانه فلم یجدها ، فضربا الخباء فقالا :

ما یرید سلمان ، أو هذا العبد شیئا غیر هذا ، أن یجییء الی طعام مقدور ، وخباء مضروب .

فلما جاء سلمان : أرسلاه الی رسول الله صلی الله علیه وسلم ، یطلب لهما اداما .

فانطلق ، فأتی رسول الله صلی الله علیه وسلم ، ومعه قدح له ، فقال : یا رسول الله !

بعثنی أصحابی لتؤدبهم ، أن کان عندك ؛ قال صلی الله علیه وسلم :

« ما یصنع أصحابك بالادم ؟ قد اتدبوا » .

فرجع سلمان رضى الله عنه ، یخبرهما بقول رسول الله صلی الله علیه وسلم ، فانطلقا حتی أتیا رسول الله صلی الله علیه وسلم ، فقالا :

« والذي بعثك بالحق : ما أصبنا طعاما منذ نزلنا ؛ قال رسول الله صلی الله علیه وسلم :

« انكما قد اتدبتما بسلمان بقولكما » . قال : ونزلت :

« ایحب أحدکم أن یأکل لحم أخیه میتا » .

وفی رواية أخرى :

عن أنس بن مالک رضى الله عنه قال : كانت العرب تخدم بعضها بعضا فی الأسفار ، وكان مع أبی بکر وعمر رضى الله عنهما ، رجل یخدمهما ، فناما فاستیقظا ولم یهیء لهما طعاما . فقالا :

ان هذا لنؤوم ، فأیقظاه ، فقالا له :

« ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقل له : ان ابا بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، يقرنانك السلام ، ويسادمانك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

« انهما قد ائتما » .

فجاءا ، فقال : يا رسول الله !

بأى شئ ائتمنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

« بلحم أخيكما ؛ والذي نفسى بيده ، انى لأرى لحمه بين ثناياكما » فقالا رضى الله عنهما :

استغفر لنا يا رسول الله ! فقال صلى الله عليه وسلم :

« مرأه فليستغفر لكما (١) » .

وهكذا أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوجه أصحابه ، ويقرر للناس اجمع :

أنه لن يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولن يستقيم قلبه ، حتى يستقيم لسانه ، ولن يستقيم لسانه حتى يسلم المسلمون من لسانه ويده .

فمن استطاع ان يلقى الله سبحانه وهو بقى الراحة ، من دماء المسلمين ، وأموالهم ، سليم اللسان من أعراضهم ، فليفعل .

يقول الامام على كرم الله وجهه :

« اياكم وتهزيع الاخلاق وتصريفها ، واجعلوا اللسان واحدا ، وليخزن الرجل لسانه ، فان هذا اللسان جموح بصاحبه .

والله : ما أرى عبدا يتقى تقوى تنفعه ، حتى يخزن لسانه ، وان لسان المؤمن من وراء قلبه ، وان قلب المنافق من وراء لسانه ،

(١) رواه الحافظ الضياء المقدس في كتابه المختار من طريق حسان بن هلال ، عن حماد بن سلمه عن ثابت عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام ، تدبره في نفسه ، فإن كان خيرا ،
أبداه ، وإن كان شرا وأراه .

وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه ، لا يدري ماذا له ، وماذا
عليه « أهـ

فحفظ اللسان عن ذكر عيوب الناس في غيبتهم وحضورهم ،
من تقوى الله سبحانه .

وذكر مساوئ الإنسان ، والتشهير بعيوبه ، والتصريح
بأسراره ، والمواجهة له بشيء يكرهه ، من ضروب الغيبة التي حرمها
الله تعالى .

والإنسان خليق به أن يطالع أحوال نفسه ، فربما وجد فيها
من المذموم ما يهون عليه ما يراه من خصال ذميمة في غيره .

فمن ينتظر أن يجد منزها عن كل عيب ، فهو من الذين يجهدون
أنفسهم دون أمل ولا رجاء ، كالناقش على الماء ، أو كالراقم في
الهواء .

وما من شك : أن مقتضى الأمر من السكوت باللسان ، ليس هو
هدم ذكر المساوئ فحسب ، بل أن مقتضى الأمر من السكوت
باللسان ، أن يسكت القلب عن ذلك أيضا ، فإن القلب هو الأهم ،
وهو دائرة معارف الإنسان ، ولب حقيقته .

« ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا
فسدت ، فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

فستر عيوب الإنسان ، والتجاهل عنها ، وسكوت القلب عن
ذلك ، شيمة أهل الدين .

ومهما يكن من شيء :

فانه لن يتم إيمان المرء ، ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه ،
وأقل درجات الأخوة ، أن يعامل الإنسان أخاه بما يجب أن يعامل
به .

وكل انسان يحب دائما ستر عورته ، فلا اقل من ان يحافظ على ذلك في حق غيره ، فان منشأ التقصير ، في ستر العورة . او السعى في كشفها ، داء دفين في الباطن ، وخبث خبيث في الطوية ، وحقد قاتل في باطن صاحبه ، والله تعالى نهى عن ذلك كله .

جاء في الاثر ان عيسى عليه السلام ، قال للحواريين :
« كيف تصنعون اذا رأيتم اخاكم نائما ، وقد كشف الريح ثوبه عنه ؟ قالوا :

نستره ونفطيه . قال :

بل تكشفون عورته . قالوا :

سبحان الله ، من يفعل هذا ؟ فقال :

« أحذكم يسمع بالكلمة في اخيه ، فيزيد عليها ، وبشييعها بأعظم منها » .

ويقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه - فيما روى عن أبى برزة الأسلمى - :

« يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الايمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فان من اتبع عوراتهم ، يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته ، يفضحه في بيته » .

اما الحافظ الواعى لستر عورة الغير ، فان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه مطمئنا :

« لا يستر عبد عبدا ، الا ستره الله يوم القيامة (١) » .
وبعد : فيقول الامام على رضى الله عنه :

« انما ينفي لاهل العصمة والمصنوع اليهم في السلامة ، ان يرحموا اهل الذنوب والمعصية ، ويكون الشكر هو الغالب عليهم ، والحاجز لهم عنهم ؛ فكيف بالغائب الذى غاب اخاه ، وعيره يبلواه ؟

(١) رواه مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه ، مما هو أعظم من
الذنب الذي عابه ، به !!!

وكيف يذمه بذنوب قد ركب مثله ؟

فإن لم يكن ركب ذلك الذنب بعينه ، فقد عصى الله فيما سواه ؟
مما هو أعظم منه .

وايم الله ! لئن لم يكن عصاه في الكبير ، وعصاه في الصغير ،
فجراته على عيب الناس أكبر .

يا عبد الله : لا تعجل في عيب أحد بدينه ، فلعله مغفور له ؟
ولا تأمن على نفسك صغير معصية ، فلعلك معذب عليه ، فليكتف
من علم منكم عيب غيره ، لما يعلم من عيب نفسه ، وليكن الشكر
شاغلا له ، على معافاته ، عما ابتلى به غيره « اهـ

وحتى لا يكون الإنسان ممن يتبع الله عوراتهم ، بل ولاجل أن
يكون من الذين سترهم الله يوم القيامة ، لا بد وأن يتحلى بصفات
المؤمنين الواردة في القرآن ، والسنة ، وكتب العلماء وسيرة
الصالحين :

« قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني »
وسبحان الله ، وما أنا من المشركين « .

الفصل الثالث

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ضوء القرآن والسنة

يقول الله تعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تآمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله (١) » .

أعطى الشارع الحكيم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، الحظ الوافر من الرعاية الإلهية ، والنصيب الأوفر من الرسالة الخاتمة الإسلامية ، حتى كان شأنهما من الأهمية أن ابتعث الله سبحانه وتعالى الرسول بهما مبشرا ومنذرا ، وأنزل معه الكتاب الذي يحمل مشعل الهداية الرشيدة ، والسناء الحسن اللائق في سائر الخلق أجمعين .

والقرآن الكريم ، أشاد بهذين الأمرين ، ووجه عباد الله اليهما ، لما لهما من الأهمية الهامة ، والمكانة السامية ، عن سائر فروع الشريعة ، بعد العقيدة التي هي أصل التوحيد ، وأساس الشريعة الفراء .

ذلك أن الشريعة في عمومها : التزام ما شرع الله لعباده من أوامر ، أو نواهي ، وحدود وفرائض ، على لسان أكرم رسول وأعظم نبي صلى الله عليه وسلم .
يقول سبحانه :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

يقول تعالى :

« ثم جعلناك على شريعته من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون (٢) » .

(١) آل عمران آية : ١١

(٢) البقرة آية : ١٨

وما كانت الأمة الإسلامية في حقيقتها ، خير أمة أخرجت للناس ،
الا لأمرها بالمعروف ، ونهيها عن المنكر ، يقول مجاهد رضى الله
عنه :

« كنتم خير أمة : اذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .
وقيل

« انما صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، خير أمة ، لأن
المسلمين منهم أكثر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم
أشد (١) » .

ويقول القرطبي في معنى قوله تعالى : « تأمرون بالمعروف ،
وتنهون عن المنكر » :

« مدح لهذه الأمة ، ما أقاموا ذلك واتصفوا به ، فاذا تركوا
التغيير ، وتواطؤوا على المنكر ، زال عنهم اسم المدح ، ولحقهم اسم
الذم ، وكان ذلك سببا لهلاكهم » اهـ .

ويوجه الله سبحانه وتعالى ، عباده الى الخير والسعادة ،
ويحثهم على سبب فلاحهم ، حتى يكونوا صالحين في الدنيا ، فائزين
في الآخرة ، فيقول :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ،
وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » (٢) .

ولم يكن المؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ، الا لأمرهم
بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر .

يقول سبحانه :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ، يأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر (٣) » .

(١) انظر كتاب الجامع لاحكام القرآن للقرطبي ج ٤ ص ١٧١

(٢) آل عمران آية : ١٠٤ هـ

(٣) التوبة آية : ١٧١

وجعل الله تعالى ، الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، الفرق
القائم ، بين المؤمنين والمنافقين فقال مخبراً عن ذلك في هاتين
الآيتين :

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرُونَ بالمنكر ، وينهون
عن المعروف » .

« والمؤمنون والمؤمنات ، بعضهم أولياء بعض . يأمرُونَ
بالمعروف ، وينهون عن المنكر » .
يقول القرطبي :

« جعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين
والمنافقين ، فدل على أن أخص أوصاف المؤمن ، الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، ورأسها الدعاء إلى الإسلام ، والقتال عليه » اهـ
وبالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يكون الإنسان خليفة .
أندري خليفة لمن !

قال الحسن رضي الله عنه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« من أمر بالمعروف ، أو نهى عن المنكر ، فهو خليفة الله في أرضه ،
وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه » .

وإزداد شأن الذين يأمرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر ، سموا
وتكريماً ، حتى أخبر عنهم ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنهم خير
الناس عند الله سبحانه .

عن درة بنت أبي لهب قالت :
جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو على المنبر
فقال :

من خير الناس يا رسول الله ؟ قال :
أمرهم بالمعروف ، ونهاهم عن المنكر ، واتقاهم الله ، وأوصلهم
لرحمه » .

وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

إن وجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ثبت بالقرآن والسنة ، وقد وردت في ذلك آيات استفاض القرآن في ذكرها استفاضة تامة .

ولم يكن القرآن وحده هو الذي حث على ذلك ، بل إن السنة النبوية أشادت بذلك في أحاديث عدة . منها ما سبق أن ذكرنا ، ومنها ما يلي :

عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي ، إلا كان له من أمته حواريون ، وأصحاب يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره . »

ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل (١) . »

وروى الأئمة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع ، فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان (٢) . »

وعن أبي رقية تميم بن أوس الداري ، أن النبي صلى الله عليه

وسلم قال :

« الدين النصيحة . قيل : لمن يارسل الله ؟ قال :

الله ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم (٣) . »

(١) رواه الإمام مسلم .

(٢) رواه الإمام مسلم .

(٣) رواه الإمام مسلم .

وأخرج ابن أبي شيبة ونعيم ، عن ابن مسعود قال :
إذا رأيت المنكر فلم تستطع له تغييرا ، فحسبك ان يعلم الله
أنك تكره بقلبك » .

وعندهما أيضا عنه قال :

ان الرجل يشهد المعصية ، يعمل بها فيكرهها ، فيكون كمن غاب
عنها ، ويغيب عنها فيرضاه فيكون كمن شهدها « اهـ .

وما من شك : ان موضوعا مثل هذا ، عضدته الآيات القرآنية ،
وأشادت بذكره الأحاديث النبوية ، لو ترك شأنه ، وطوى بساطه ،
وأهمل علمه ، وانحرف العمل له ، لتعطلت دعوة النبوة ، ولتوقف
تبليغ الرسالة ، واضمحلت الديانة ، وفشت في الناس الضلالة ،
وعانت الجهالة في الأرض فسادا ، وكان وشيكا أن تتخرب البلاد ،
وأن يصبح شأن العباد قول : « انا لله وانا اليه راجعون » .

لو ترك هذا الأمر ووضع في الجوانب ، لاندرس عمله ، وجهل
الناس علمه ، وامحقت بالكلية حقيقته ، وانقشعت صورته ، وتغير
رسمه ، واستولت على القلوب مدهانة الخلق ، وامحت عنها مراقبة
الخالق ، واسترسل الناس في اتباع الهوى ، وتتبع الشهوات
استرسال البهائم ، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق ، لا تأخذه
في الله لومة لائم .

أخرج الطبراني عن طارق بن شهاب قال :

جاء عتريس بن عرقوب الشيباني ، الى عبد الله ، رضى الله
عنه ، فقال :

هلك من لم يأمر بالمعروف ، ولم ينه عن المنكر ، فقال :
بل هلك من لم يعرف المعروف ، وينكر المنكر (١) .
وعن على رضى الله عنه قال : الجهاد ثلاثة :
جهاد بيد ، وجهاد بلسان ، وجهاد بقلب .

(١) قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

فأول ما يغلب عليه من الجهاد ، جهاد اليد ، ثم جهاد اللسان ،
ثم جهاد القلب .

فإذا كان القلب لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا ، نكس وجعل
أعلاه أسفله (١) .

وعند ابن أبي شيبه ، وأبى نعيم ، ونصر في الحجة ، عن علي
قال :

أول ما تغلبون عليه من الجهاد ، الجهاد بأيديكم ، ثم الجهاد
بقلوبكم ؛

فأى قلب لم يعرف المعروف ، ولم ينكر المنكر ، نكس أعلاه
أسفله ، كما ينكس الجراب فينثر ما فيه .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

الناس ثلاثة ، فما سواهم فلا خير فيه :

رجل رأى فئة تقاتل في سبيل الله ، فجاهد بنفسه وماله ؛

ورجل جاهد بلسانه ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ؛

ورجل عرف الحق بقلبه (٢) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

يذهب الصالحون أسلافا ، ويبقى أهل الريب من لا يعرف
معروفا ، ولا ينكر منكرا (٣) .

وأخرج البيهقي عن أبي بكر رضى الله عنه قال :

« إذا عمل قوم بالمعاصي بين ظهرائي قوم هم أعز منهم ، فلم
يغيروه عليهم ، أنزل الله عليهم بلاء ، ثم لم ينزعه منهم » .

(١) أخرجه مسعود والبيهقي وصححه عن علي رضى الله عنه

(٢) أخرجه الطبراني

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية وأخرجه الطبراني نحوه ورجاله رجال الصحيح

وأخرج أبو نعيم في الحلية ، عن أبي الرقاد قال :
خرجت مع مولاى ، وأنا غلام ، فدفعت الى حذيفة رضى الله
عنه ، وهو يقول :

ان كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فيصير بها منافقا ، وانى لأسمعها من أحدكم فى المقعد
الواحد ، أربع مرات ؛

لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتحضن على الخير ،
أو ليسحكنكم الله جميعا بعدا به ، أو ليأمرن عليكم شراركم ، ثم يدعو
خياركم ، فلا يستجاب لكم (١) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

ستكون أمور ، فمن رضىها ممن غاب عنها ، كان كمن شهدها ،
ومن كرها ممن شهدها فهو كمن غاب عنها (٢) .

وأخرج البزار عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم :

انكم على بينة من ربكم ، ما لم تظهر فيكم سكرتان :

سكرة الجهل ، وسكرة حب العيش ، وانتم تأمرون بالمعروف ،
وتنهون عن المنكر ، وتجاهدون فى سبيل الله .

فاذا ظهر فيكم حب الدنيا ، فلا تأمرون بالمعروف ، ولا تنهون
عن المنكر ، ولا تجاهدون فى سبيل الله .

القائلون يومئذ بالكتاب والسنة ، كالسابقين الاولين من المهاجرين
والانصار .

وعن أبى نعيم عن أبى الرقاد قال :

لعن الله من ليس منا ۞

(١) أخرجه ابن أبى شيبه

(٢) رواه أبو نعيم وابن النجار عن ابن مسعود رضى الله عنه .

والله لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو لتقتلن بينكم ، فليظهرن شراركم على خياركم ، فليقتلنهم حتى لا يبقى أحد يأمر بالمعروف ، ولا ينهى عن المنكر ، ثم تدعون الله عز وجل ، فلا يجيبكم بمقتكم (١) .

منزلة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر :

لا شك أن من أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وسعى في تلافى هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة ، سواء أكان متكفلا بعملها ، أو متقلدا لتنفيذها ، فهو مجدد لهذه السنة الدائرة ، ويكون ناهضا بأعبائها ، مشمرا في أحيائها ، مستائرا من بين الخلق بأحياء سنة أفضى الزمان إلى إمامتها ، مستبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها .

عن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ألا أخبركم بأقوام ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم يوم القيامة الأنبياء والشهداء ، بمنازلهم من الله على منابر من نور يعرفون . قالوا :

من هم يا رسول الله ؟ قال :

الذين يحبون عباد الله إلى الله ، ويحبون الله إلى عباده ، ويمشون على الأرض نصحا .

فقلت : هذا يحب الله إلى عباده ، فكيف يحبون عباد الله إلى الله ؟ قال :

بأمرונهم بما يحب الله ، وينهونهم عما يكره الله ، فاز أطاعوهم أحبهم الله عز وجل (٢) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ج ١ ص ٢٧٩ .

(٢) أخرجه البيهقي

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا ابن مسعود !
فقلت :

لبيك يا رسول الله ! قالها ثلاثا . قال :

أتدرى أى الناس أفضل ؟ قلت :

الله ورسوله أعلم . قال :

فان أفضل الناس ، أفضلهم عملا اذا فقهوا فى دينهم .

ثم قال : يا ابن مسعود ! قلت :

لبيك يا رسول الله . قال :

أتدرى أى الناس أعلم ؟ قلت :

الله ورسوله أعلم . قال :

ان أعلم الناس أبصرهم بالحق اذا اختلف الناس ، وان كان
مقصرا فى العمل ، وان كان يزحف على استه زحفا ؛

واختلف من كان قبلى على اثنتين وسبعين فرقة ، نجا منها
ثلاثة ، وهلك سائرهن .

فرقة وازت الملوك وقتلوهم على دينهم ، ودين عيسى بن مريم ،
وأخذوهم وقتلوهم وقطعوهم بالمناشير .

وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك ، ولا بأن يقيموا بين
ظهرانهم ، فيدعوهم الى الله ، ودين عيسى بن مريم ، فساحوا فى
البلاد ، وترهبوا قال :

وهم الذين قال الله عز وجل :

« ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان
الله ... الآية » .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

من آمن بى وصدقنى واتبعنى ، فقد رعاها حق رعايتها ، ومن
لم يتبعنى فأولئك هم الهالكون (١) . « .

(١) أخرجه الطبرانى عن ابن مسعود رضى الله عنه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عثمان رضى الله عنه قال :
مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، قبل أن يسلط عليكم
شراركم ، ويدعو عليهم خياركم فلا يستجاب لهم » .
وعن الحارث ، عن على رضى الله عنه قال :

« لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن عليكم
شراركم ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .
توعد الله لمن تقاعس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

لما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شأن عظيم ، فإن
رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، توعد بالعقاب الشديد من
خالف الحق فيهما سبحانه ، أو تهاون في العمل بهما ؛
عن سيدنا على رضى الله عنه - فيما أخرجه ابن أبي شيبة -
قال :

لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتجدن في أمر الله ،
أو ليسوا منكم أقوام يعذبونكم ، ويعذبهم الله (١) .
وعند ابن أبي حاتم عن على رضى الله عنه أنه قال في خطبته :

أيها الناس ! إنما هلك من هلك قبلكم ، بركوبهم المعاصي ، ولم
تنههم الربانيون والأحبار ، كلما تمادوا في المعاصي ، ولم تنههم
الربانيون والأحبار ، أخذتهم العقوبات .
فمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، قبل أن ينزل بكم الذي نزل
بهم ، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يقطع رزقا ،
ولا يقرب أجلا » .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : قلت للنبي صلى الله عليه
وسلم ، يا رسول الله !

متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهما سيدا أعمال
أهل البر ؟ قال :

(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن على رضى الله عنه ، انظر حياة الصحابة

إذا اصابكم ما اصاب بنى اسرائيل ، قلت :

يا رسول الله ! وما اصاب بنى اسرائيل ؟ قال :

إذا داهن خياركم فجاركم ، وصار الفقه فى شراركم ، وصار الملك فى صفاركم ، فعند ذلك تلبسكم فتنة تكرون ويكر عليكم (١) «اهـ

وبنو اسرائيل استحقوا ما نزل بهم من لعنة الله عليهم ، على لسان انبيائهم ، ودالت دولتهم ، وذهبت ريحهم ، وسبقت كلمة العذاب عليهم .

استحقوا ذلك : بسبب انهم وقعوا فى المعاصى والفجور ، وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ثم نهتهم علماءهم ، فلم يسمعوا لقولهم ، ولم يتناهوا عن منكر فعلوه ، فجالسوهم فى مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود ، وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

هذا واقع بنى اسرائيل ، وحاصل ما آل اليه حالهم ، من عذاب وطرد ، ونقمة ولعنة عليهم من الله ورسوله .

أما الذين استجابوا لأوامر الله سبحانه ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، فكانوا هم المؤمنون حقاً ، الصادقون قولاً ، المحسنون فعلاً ، الراسخون قدماً وقلباً ، المحبون بعضهم بعضاً . يقول سبحانه :

«وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ ، بعضهم أولياء بعض ، يأمرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتُونَ الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، أن الله عزيز حكيم (١) » .

وبعد : فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قد أجمعت الأمة عليه ، وكثرت الآيات والأخبار ، الدالة على ثبوت الفلاح للذين جندوا أنفسهم للعمل له ؛ يقول الله تعالى :

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط .

(٢) التوبة آية : ٧١

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون (١) » .

وفي الآيات بيان أن الفلاح منوط باتباع الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأنه فرض كفاية لا فرض عين ؛

هذا الصنيع المحمود عند الله تعالى ، وعند رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعند المؤمنين أجمع ، جعله الله يسرا لا عسر فيه ، ترغيبا لخلقه ، فلم يقل مثلا سبحانه :

كونوا كلكم جميعا معشر الناس آمرين بالمعروف ... الخ .
إذ لو كان ذلك كذلك لشق على الناس ذلك ، وهو بالخلق رءوف رحيم .

لذلك قال تعالى :

« ولتكن منكم أمة » .

وقد خص الله سبحانه القائمين على أوامره تعالى ، المنتهين عن نواهيه سبحانه ، بالفلاح والظفر بالمطلوب ، فقال فيهم :

« من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله ، آناء الليل وهم يسجدون .

يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين (٢) » .

فلم يشهد القرآن لهم بالصلاح لمجرد الإيمان منهم بالله واليوم الآخر ، فحسب ، وإنما أضاف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر ، ولذلك خصهم الله بقوله :

« خير أمة أخرجت للناس » .

(١) آل عمران آية : ١٠٤

(٢) آل عمران آية : ١١٣ - ١١٥

ولذلك فان الحرج نعم كافة الخلق لا محالة ، ان تقاعد القادرون عنه .

ومن هجر الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فهو خارج بهجرانه عن هؤلاء الذين وصفهم الله بقوله : « كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » .

وليس مؤمنا كذلك بالقرآن ولا بالنبي ، كما اخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :

« ان الذي لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ، ليس مؤمنا بالقرآن ولا بي » .

ولقد فهم بعض الناس يوما ، قول الله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » . ان هذه الآية تجيز السكوت عن رد المنكر وتغييره ، فارشدهم سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ، وقال لهم :

« يا ايها الناس انكم تقرأون هذه الآية ، وانكم تضعونها على غير موضعها ، واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الناس اذا راوا المنكر ولا يغيروه ، أوشك الله ان يعذبهم بعقاب » .

وأخرج البيهقي وسعيد بن منصور وغيرهم عن قيس بن أبي حازم قال :

« لما ولي أبو بكر رضى الله عنه صعد المنبر فحمد الله ، ثم قال :

ايها الناس ! انكم تقرأون هذه الآية : « يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » . وانكم تضعونها على غير مواضعها ، واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ان الناس اذا راوا المنكر ولا يغيروه ، أوشك ان يعذبهم الله بعقاب (١) » .

(١) أخرجه أيضا النسائي وابن ماجه ، وأبو يعلى وأبو نعيم في المعرفة والدارقطني في اللؤلؤ وقال : جميع رواته ثقات

وعند ابن مردويه ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

قعد ابو بكر على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم سمي خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم مد يديه ، ثم وضعهما على المجلس الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يجلس عليه من منبره ، ثم قال :

سمعت الحبيب وهو جالس على هذا المجلس يتأول هذه الآية :

((يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)) . ثم فسرها فكان تفسيره لنا أن قال :

نعم ! ليس من قوم عمل فيهم بمنكر ويفسد فيهم بقبیح ، فلم يغيروه ولم ينكروه ، إلا حق على الله أن يعهمم بالعقوبة جميعا ، ثم لا يستجاب لهم ، ثم أدخل أصبعيه في أذنيه ، فقال :

ان لا أكن سمعته من الحبيب فصمتا (٢) » .

اذن فالأمة الاسلامية كلها ، أمام هذا الفرض الكفائي مدينة ، ومؤاخذة ، وينالها الأذى والعقاب في الدنيا والآخرة ، اذا سكنت عن وقوع المنكر فيها من بعض أفرادها ، لأنها مكلفة ديناً أن تكون مقومة لكل فرد فيها .

والسكوت على الفسق والفجور والعصيان ، يستوجب العقاب والأذى ، وليس في ذلك ظلم » فاتقوا فتنة لا تصبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

والأمة التي ينتشر فيها المنكر ، أو يكثر فيها الفسق والفجور ، ولا تغيره ، أو تحاربه ، أو تؤدب قاعله ، فهي من غير شك أمة آتمة ، عليها الوزر في الدنيا والآخرة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، يخبر عن الدين لا يأمرهم بالمعروف ولا ينهون عن المنكر أنهم بثس القوم هم .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« بئس القوم ، قوم لا يأمرُونَ بالمعروف ، ولا ينهون عن المنكر ، بئس القوم ، قوم يمشى المؤمن بينهم بالتقية » .

ويزيد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، شأن هؤلاء الذين تقاعدوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بيانا فيقول - فيما رواه أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه :

« كيف أنتم إذا طغى نساؤكم ، وفسق شبابكم ، وتركتم جهادكم ؟ قالوا :

كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال :

نعم . والذي نفسي بيده ، واشد منه سيكون . قالوا :

وما أشد منه يا رسول الله . قال :

كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا :

كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال :

نعم . والذي نفسي بيده ، واشد منه سيكون . قالوا :

وما أشد منه ؟ قال :

كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ؟ قالوا :

وان ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال :

نعم . والذي نفسي بيده ، واشد منه سيكون . قالوا :

وما أشد منه ؟ قال :

كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ، ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا :

وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال :

نعم . والذي نفسى بيده ، وأشد منه سيكون ؟ يقول الله تعالى :

« بى حلفت لا تبحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران » اهـ

وفى نفس هذا المعنى يتفاعل الامام على كرم الله وجهه : فيقول :

« انه سيأتى عليكم من بعدى زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ، ولا أظهر من الباطل ، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله ، وليس عند أهل ذلك الزمان ، سلعة أبور من الكتاب اذا تلى حقاً تلاوته ، ولا أنفق منه ، اذا حرف عن مواضعه ، ولا فى البلاد شيء أنكر من المعروف ، ولا أعرف من المنكر .

فقد نبذ الكتاب حملته : وتناساه حفظته ، فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان ، وصاحبان مصطحبان ، فى طريق واحد لا يؤيهما مؤو .

فالكتاب وأهله فى ذلك الزمان فى الناس وليسا فيهم ، ومعهم وليسا معهم .

لأن الضلالة لا توافق الهدى ، وان اجتمعا ، فاجتمع القوم على الفرقة ، وافترقوا عن الجماعة كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب امامهم !

فلم يبق عندهم منه الا اسمه ، ولا يعرفون الا محطه وزبره لا ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثله ، وسموا صدقهم على الله فرية : وجعلوا فى الحسنة عقوبة السيئة » اهـ .

اذا ما تحقق ذلك فى المجتمع وحدث ، فما على الانسان الا أن يجاهد المنكر بقدر استعداده واستطاعته ، موطننا نفسه على الصبر وتحمل الأذى ، واثقا بالثواب من الله تعالى .

أما من لم يتيسر له ذلك ، ولم تتسع له الفرصة ، فما عليه الا أن ينكر ذلك بقلبه ثم يجاهد نفسه وهواه ، ويترك أمر العوام ، لأن هذه انما تكون فتنة ، يلزم الانسان التضرع الى الله تعالى ، بالخلاص منها .

عن أبي ثعلبة الخشني ، انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن تفسير قوله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم : لا يضركم من ضل اذا
اهتديتم » ؟

فقال :

يا ابا ثعلبة :

« مر بالمعروف وانه عن المنكر ، فاذا رأيت شحامطاعا ، وهوى
متبعيا ، ودنيا مؤثرة ، واعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك بنفسك ،
ودع عنك العوام .

ان من ورائكم فتنا كقطع الليل المظلم ، للمتمسك فيها ، بمثل
الذي أنتم عليه أجر خمسين منكم .

قيل : بل منهم يا رسول الله ؟ قال : لا ، بل منكم ، لانكم تجدون
على الخير اعوانا : ولا يجدون عليه اعوانا « (١) » .

وفي رواية : قال صلى الله عليه وسلم :

« تأمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى اذا رأيت شحا
مطاعا ، ودنيا مؤثرة ، واعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك بخويصة
نفسك ، ودع عنك امر العوام » اهـ

ويقول الامام علي رضي الله عنه :

« ان ما أحدث الناس لا يحل لكم شيئا مما حرم عليكم ، ولكن
الحلال ما أحل الله ، والحرام ما حرم الله ، فقد جربتكم الامور
وضرستموها ، ووعظتم بمن كان قبلكم : وضربت لكم الامثال ،
ودعيتكم الى الامر الواضح ، فلا يصم عن ذلك الا اصم ، ولا يعمى
من ذلك الا اعمى .

(١) رواه ابو داود والترمذي ، وحسنه وابن ماجه .

ومن لم ينفعه الله بالبلاء والتجارب ، لم يستفد بشيء من العظة
وانتاه التقصير من امامه ، حتى يعرف ما انكر ، وينكر ما عرف .

فان الناس رجлан :

متبع شرعة ، ومبتدع بدعة ، ليس معه من الله برهان سنة ،
ولا ضياء حجة .

وان الله سبحانه ، لم يعظ احدا بمثل هذا القرآن : فانه حبل
الله المتين ، وسببه الامين ، وفيه ربيع القلب ، وينابيع العلم ،
وما للقلب من جلاء غيره ، مع انه ذهب المتذكرون ، وبقي الناسون ،
او المتناسون .

فاذا رأيتم خيرا فاعينوا عليه ، واذا رأيتم شرا ، فاذهبوا عنه ،
فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كان يقول :

« يا ابن آدم ! اعمل الخير ، ودع الشر ، فاذا انت جواد
قاصد » ا هـ

وبعد : ففي الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، الخير الكثير ،
بهما مكن الله لعباده ، وشهد لصلاح حالهم كتابه :

« يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن
المنكر : ويسارعون في الخيرات ، واولئك من الصالحين » .

وصدق الله سبحانه اذ يقول :

« الذين ان مكناهم في الأرض ، اقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ،
وامروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

خاتمة

لما كان القرآن الكريم ، كتاب الله الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وكان هو مصدر الاسلام الأول الذى اعتمد الاسلام عليه ، قبل كل شىء ، فى صدور احكامه : وتشريع قوانينه وكان هو ايضا : المصدر الالهى ، الذى يعتمد عليه ، كل من يدين بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، نبياً ورسولاً وكان هو كذلك ، الإلهام الربانى ، الذى اعتمدنا عليه ، واستمددنا منه كل ما سردناه من أدلة : لتقويم كتابنا الذى نحن بصددده .

لما كان القرآن الكريم ، هو كل هذا :

فانى آثرت بعد الثناء الجميل على الله سبحانه ، على توفيقه الحكيم ، أن اختتم كتابى هذا ، ببعض ما اختتم الله تبارك وتعالى به كتابه :

« اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ؟ سيدنا ومولانا محمد ، ومن اتبع هديه ، وسلك طريقه : وعمل بشريعته ، وعلى آله وصحبه وسلم .

من أهم المصادر

سبحان من أنزله

لأبي عبد الله محمد بن أحمد
الأنصاري القرطبي - المتوفى عام
٦٧١ هـ

لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل
ابن كثير - المتوفى عام ٧٧٤ هـ

لناصر الدين أبي الخير عبد الله بن
عمر البيضاوي - المتوفى عام
٧٩١ هـ

للسيد معين الدين محمد بن عبد
الرحمن بن محمد بن عبد الله
الصفوي المتوفى عام ٩٠٥ هـ

لأبي الفضل شهاب الدين السيد
محمود الألوسي - المتوفى عام
١٢٧٠ هـ

للسيد جلال الدين السيوطي ،
والمحلي

للشيخ حسنين محمد مخاف
لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي
النيسابوري

لإمام أبي بكر محمد بن عزيز
السجستاني

القرآن الكريم

تفسير القرطبي

القرآن العظيم

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

جامع البيان في تفسير القرآن

روح المعاني

الجلالين

صفوة البيان لمعاني القرآن

أسباب النزول

غريب القرآن

الاتقان في علوم القرآن

مناهل العرفان في علوم القرآن

صحيح البخارى

فتح البارى

للسيد جلال الدين السيوطى

للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى

للامام البخارى رضى الله عنه

لابن حجر

للامام مسلم رضى الله عنه - شرح

النوى

للبيهقى

للباقلانى

للامام ابي داود

للامام النووى

للامام ابن كثير

لابن الديبع الشيبانى

لابن الاثير الجزرى

لمحمد بن حسن الشيبانى

للطبرانى

للامام السيوطى

للامام على بن ابي طالب رضى

الله عنه

للامام المحدث عبيد الرحمن

السهلى

دلائل النبوة

اعجاز انقران

سنن ابي داود

رياض الصالحين

التهاية ، او الفتن والملاحم

تيسير الوصول الى جامع

الاصول من حديث الرسول

صلى الله عليه وسلم

جامع المعقول والمنقول لاحاديث

الرسول

السير الكبير

المعجم الصغير

الجامع الصغير في احاديث

البشير النذير

نهج البلاغة

الروض الانف

السيرة النبوية

السيرة الحلبية

احياء علوم الدين

التنوير في اسقاط التدبير

كشف الغمة

حياة الصحابة

الأتوار الأحمديّة

القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم

الاسلام والايمان

حياة محمد

الاسلام دين العلم والمدنية

الاسلام والعقل

السيرة التحليلية على ضوء الكتاب والسنة

الجهاد في الاسلام

للامام ابن هشام

لعلى بن برهان الدين الحلبي

لحجة الاسلام الامام الفزالي

لابن عطاء الله السكندري

للامام الشعراني

للاستاذ محمد يوسف الكاندهلوي

لابن راشد المشهدي الخفاجي

لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود

لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود

للاستاذ محمد حسين هيكل

للشيخ محمد عبده

لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود

للدكتور محمد محمد ابو شهبة

جامعة الأزهر

رقم الأيداع ٤٢٦٨ / ١٩٧٣.

الشعب

المجلس التشريعي الفلسطيني

